

# **الظلم وأثره على الفرد والمجتمع في ضوء الكتاب والسنة**

بقلم الفقير لعفوره

**د. دوخي بن زيد بن علي الحارثي**

**الناشر / دار الطرفين**

ح) دوخي زيد علي الحارثي، ١٤٣٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحارثي، دوخي زيد الحارثي

الظلم وأثره على الفرد والمجتمع في ضوء الكتاب والسنة/ دوخي  
زيد علي الحارثي - الطائف، ١٤٣٤هـ

٤٧٢ ص، ١٧ X ٢٤ سم

ردمك: ١٧٩٧ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١- الظلم. ٢- الإسلام والمجتمع. ٣- الوعد والإرشاد. أ.العنوان.

١٤٣٤ / ٣٠٦٥

ديوي ٢١٢.٣

رقم الإيداع: ١٤٣٤ / ٣٠٦٥

ردمك: ١٧٩٧ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

للنشر  
والتوزيع

دار الطريقين

الطائف - وادي وج - جنوب جسر خالد بن الوليد

جوال: ٠٥٠٥٧٠٤٨٠٨ - ٠٥٠٣٥١٢٤٩٩

[www.tarafen.com](http://www.tarafen.com)

[tarafen@maktoob.com](mailto:tarafen@maktoob.com)



## المقدمة

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، وأشهد أن لا إله إلا الله الواحد الأحد الصمد الذي حرم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرماً : (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) <sup>(١)</sup> وأشهد أن محمداً عبده ورسوله القائل : (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه...) <sup>(٢)</sup>. والقائل : (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا) <sup>(٣)</sup>، اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك الهادي البشير والسراج المنير وعلى صحابته الغر الميامين، الذين كانوا يقولون الحق وبه يعدلون، ومن اقتفى أثرهم واستنّ بسنتهم إلى يوم الدين .

أما بعد : فلما للظلم من عواقب وخيمة وسبب في زوال النعم وهلاك الأفراد وسقوط الحكومات واندثار الأمم الماضية بنزول الهلاك من الله عليهم وإبادتهم بأنواع مختلفة من العذاب الديني والأخروي أو سقوطهم وذهابهم شذر مذر على أيدي غيرهم بسبب ظلمهم مثلما حصل في هذا الزمن الذي أصبحت تياراته تموج بأهله ذات اليمين وذات الشمال وهم على أعمال منحرفة وطرق معوجة وسبل متفرقة ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ <sup>(١٠٤)</sup> بل هم يغوصون في ظلمات الظلم ويهلكون أفراداً وجماعات وحكومات ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ .

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة، باب ٥٥ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب المظالم، باب ٣ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب العلم باب ٩ ، ٦٧ .

ولما رأيت هذا الأمر الذي استفحل واشتدت وطأته - ولم تكن هناك استجابة كاملة في الرجوع من هذا الظلم إلا أنه لا سمع ولا طاعة - كان من واجبي أن أسعى حثيثاً في بحث هذا الموضوع واستقصائه وبيان الأمور المهمة التي تهم هذه المجتمعات على اختلافها شعوباً وحكومات، أفراداً وجماعات، وقد تريّثت قبل الكتابة في هذا الموضوع وبحثت لعلّي أجد كتاباً حاوياً لهذا الموضوع يمكن الرجوع إليه والنظر في هذا الأمر وما يحتوي من أنواع في الوقوع فيها الهلاك في الدنيا والآخرة. فلم أجد إلا موضوعات متفرقة بين طيّات الكتب لا يرتوي منها الظمآن، فنزلت الميدان - ميدان العلم - أسوة بزملائي طلبة العلم، واقتداء بالعلماء الأفاضل الذين خدموا هذا العلم، والذين هم ورثة الأنبياء كما أخبر بهذا الصادق المصدوق محمد بن عبدالله ﷺ فقال: (من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سلك الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم، وإنّ العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إنّ العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنّما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر) <sup>(١)</sup>.

---

(١) رواه الترمذي كتاب العلم، حديث ٢٦٨٢، وقال لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة، وليس هو عندي بمتصل هكذا، حدثنا محمود بن خدّاش بهذا الإسناد، وقال: إنّما يروى هذا الحديث عن عاصم بن رجاء بن حيوة عن الوليد بن جميل عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ وهذا أصح من حديث محمود بن خدّاش ورأى محمد بن إسماعيل هذا أصح، وروى البخاري طرفاً منه في كتاب العلم: ١.



فوجدت كتاب الله تعالى يغصّ بالآيات البينات التي تبين الظلم وعواقبه  
الوخيمة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ  
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٣)، وقال تعالى:  
﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ (٥٩)، وقال  
تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفْلُونَ﴾ (١٣١)، وقال  
تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (٤)،  
وقال تعالى: ﴿فَكَأَيُّ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى  
عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ وَفَصَّرِ مَّشِيدٍ﴾ (٤٥)، وقال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ  
قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ (٤٨)، وقال تعالى:  
﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (٥٩)، وقال تعالى:  
﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ذَكَرْنَاهُمْ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٢٠٩).

(١) سورة يونس: آية (١٣).

(٢) سورة الكهف: آية (٥٩).

(٣) سورة الأنعام: آية (١٣١ - ١٣٢).

(٤) سورة الأنبياء: آية (١١).

(٥) سورة الحج: آية (٤٥).

(٦) سورة الحج: آية (٤٨).

(٧) سورة القصص: آية (٥٩).

(٨) سورة الشعراء: الآية (٢٠٩).

والسنة المطهرة تندد بالظلم والظلمة فالرسول ﷺ بين أن الشرك بالله تعالى ظلم عظيم. فعندما نزل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْآمَنُونَ هُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (١)، وتخوف الصحابة وسألوا الرسول ﷺ وقالوا: (أيننا لا يظلم نفسه يا رسول الله؟ ، أخبرهم ﷺ أنه الشرك كما أخبر تعالى عن عبده لقمان في نصحه لابنه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبْنِهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ ۖ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٢).

والشرك هو أكبر الكبائر وهو الذنب الذي لا يغفر، وقد ندّد ﷺ أيضاً بما دون الشرك فقال ﷺ: (أتدرون من المفلس؟ ، قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: (إنّ المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيته حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار) (٣).

وستجد أيها القارئ الكريم الآيات والأحاديث مبثوثة أمامك في الأبواب والفصول والمباحث التي ستمر عليها في صلب هذا الكتاب. وقد بينّا تفاسير

(١) سورة الأنعام: الآية (٨٢) .

(٢) سورة لقمان: الآية (١٣) .

(٣) رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة كتاب البر والصلة، رقم الحديث ٢٥٨١ واللفظ له، والترمذي: كتاب القيامة ٢، وأحمد في المسند ٢/٣٠٣، ٣٣٤، ٣٧٢ .

و شروح ذلك أخذاً من كتب التفسير وشروحات كتب الحديث، وقمنا بالتعليق على ذلك ما استطعنا إليه سبيلاً .

وكلنا أمل في الله تعالى أن يهدينا الصواب ويجنبنا الخطأ والارتياب، وإليك أخي القارئ وصفاً للبناء العام لهذا الكتاب، والذي موضوعه (الظلم وأثره على الفرد والمجتمع) .

١ - التمهيد : وفيه تعريف الظلم .

٢ - الباب الأول : رحمة الله تعالى وتنزهه عن الظلم .

الفصل الأول : مظاهر عد الله تعالى وشواهد.

المبحث الأول : كمال نزاهته عز وجل عن الظلم.

المبحث الثاني : نجاة المتقين والنكال بالظالمين .

المبحث الثالث : إمهال الظالمين إلى يوم القيامة وأخذهم بما يستحقون .

المبحث الرابع : عفو الله عن المستضعفين والتائبين بقبول توبتهم.

المبحث الخامس : القضاء بين العباد بحضور رسلهم وكتب أعمالهم والحفظة عليهم من الملائكة .

الفصل الثاني : طرق التخلص من الظلم :

المبحث الأول : الذكر والاستغفار .

المبحث الثاني : استغفار الرسول ﷺ لأُمَّته في حياته .

المبحث الثالث : كف النفس عن الظلم .

المبحث الرابع : التوبة .

الفصل الثالث : عقوبة الظلمة :

المبحث الأول : مسببات الظلم .

المبحث الثاني : عظم عقوبة الظلم .

المبحث الثالث : جزاء ظالمي أنفسهم بالشرك في الدنيا والآخرة .

المبحث الرابع : جزاء آكلي أموال اليتامى ظلماً .

المبحث الخامس : جزاء آكلي أموال المؤمنين ظلماً وعدواناً .

المبحث السادس : عاقبة الظلم في المسجد الحرام .

المبحث السابع : جزاء الظالمين في الآخرة .

المبحث الثامن : القصاص من عدل الله تعالى .

٣- الباب الثاني : شرع الله الحكيم وأثره في حماية المجتمع الإسلامي من الظلم .

الفصل الأول : تعظيم حرمة المسلمين وبيان حقوقهم .

المبحث الأول : السخرية والتنازع .

المبحث الثاني : المحافظة على حقوق المسلمين .

الفصل الثاني : تحريم الظلم ووجوب رد المظالم .

المبحث الأول : تحريم الظلم .

المبحث الثاني : رد المظالم .

الفصل الثالث : نظرة المظلوم وإجابة دعوته :

المبحث الأول : إعلان المظلوم ظلامته .

المبحث الثاني : الفرار بالدين من جور الظلم .

المبحث الثالث : نصرة المظلوم .

المبحث الرابع : استجابة دعوة المظلوم .

الفصل الرابع : التحذير من الركون إلى الظلمة ومخالطتهم وموالاتهم .

المبحث الأول : تحريم موالات اليهود والنصارى .

المبحث الثاني : موالات الأقارب من الكفرة .

المبحث الثالث : الركون إلى الظلمة موجب للعذاب .

٤ - الباب الثالث : أنواع الظلم :

الفصل الأول : ظلم العبد لنفسه .

المبحث الأول : الشرك بالله تعالى، ويدخل فيه الشرك في الاتباع بتحكيم غير ما أنزل الله .

المبحث الثاني : الوقوع في المعاصي .

الفصل الثاني: ظلم العبد لغيره :

المبحث الأول : ظلم العبد من يعول .

المبحث الثاني : ظلم العباد فيما بينهم .

المبحث الثالث : ظلم العبد لسائر الحيوان .

٥- الباب الرابع : أثر الظلم على الفرد والمجتمع :

الفصل الأول : أثر الظلم على الأفراد :

المبحث الأول : ضياع النعمة .

المبحث الثاني : زوال الملك .

المبحث الثالث : ندم الظالم .

الفصل الثاني : أثر الظلم على المجتمع :

المبحث الأول : أثر الظلم في عموم العقوبة :

١- عقاب الظلمة في الدنيا .

٢- عقاب الظلمة في الآخرة .

٣- نماذج من هلاك الأمم .

أ - قوم نوح عليه السلام .

ب - فرعون وجنوده .

ج - قوم لوط عليه السلام .

د - قوم صالح عليه السلام .

هـ - قوم شعيب عليه السلام .

المبحث الثاني : جور الرعاة وأثره في فساد الرعية :

١ - رعاية الحكام وأثر الظلم منهم .

٢ - رعاية الرجل لأسرته وأثر الظلم في ذلك .

٣ - رعاية المرأة لأسرتها وأثر الظلم في ذلك .

٤ - رعاية العبد على مال سيده .

المبحث الثالث : أثر الظلم في نكسة المسلمين وتسلط الكافرين :

١ - الميل عن دين الله تعالى .

٢ - كفر النعمة .

٣ - المداهنة وعدم الإنكار .

الخاتمة : بيان ما توصلت إليه في هذا المبحث من نتائج حول بيان فساد الظلم وتطهير المجتمع الإسلامي منه .

إنني عندما أقدم هذا الكتاب الذي يأخذ مكانه ضمن غيره من كتب طلبية العلم والعلماء لا أدعي أنني قد أشبعت هذا الموضوع من جميع نواحيه ولم أكن لأقول إنني قد استقصيته بل أدليت بدلوي وأخذت ما قد قدّر لي لأنني دائماً أرى وأعلم مهما عمل الانسان فلن يبلغ من العلم إلا قليلاً ، وأرجو أن أكون قد توصلت إلى ما فيه الفائدة للجميع والله من وراء القصد . وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ..



## تمهيد

معنى الظلم في اللغة :

الظلم بالضم .

والمصدر الحقيقي : الظلم بالفتح . ظلم يظلم ظلماتاً بالفتح فهو ظالم وظلوم .

وظلمه حقه وتظلمه إياه، وتظلم أحل الظلم عن نفسه، ومنه شكاً من ظلمه، وأظلم كافتعل . وانظلم احتمله وظلمه تظليماً: نسبة إليه .

ومن أمثلة ذلك في اللغة : ظلم الأرض : حفرها في غير موضع حفرها . ظلم البعير : نحره من غير داء . ظلم الوادي : بلغ الماء موضعاً لم يكن بلغه من قبل . ظلم الوطى : سقى منه اللبن قبل أن يروب وتخرج زبدته . ظلم الحمار الأتان : سفدها وهي حامل<sup>(١)</sup> .

الظلم في الاصطلاح : وضع الشيء في غير الموضع الشرعي<sup>(٢)</sup> .

وقيل : التصرف في ملك الغير بغير إذنه<sup>(٣)</sup> .

---

(١) القاموس المحيط ج ٤، ص ١٤٧، دار الجيل، وترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة ج ٣، ص ١٢٧-١٢٨، عمدة القارئ ج ٦، جزء ١٢، ص ٢٨٣، انظر : لسان العرب المجلد ١٢، ص ٣٧٣، تاج العروس ج ٨، ص ٣٨٣، والقاموس المحيط، ج ٤، ص ١٤٧، والصحاح في اللغة والعلوم للجوهري ج ٢، ص ٦٧ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٥، ص ٩٥، وعمدة القارئ ج ٦، جزء ١٢، ص ٢٨٣ .

(٣) تاج العروس ج ٨، ص ٣٨٣، وافرات الموارد في فصيح العربية والشوارد ج ٢، ص ٧٣٢ .

قال ابن رجب الحنبلي البغدادي : "الظلم: أن يعاقب بذنوب غيره" <sup>(١)</sup>، وهو مما يدل على أن الله قادر على الظلم ولكن لا يفعله فضلاً منه وجوداً وكرماً وإحساناً إلى عباده .

وبهذا نكون قد وقفنا على ثلاث تعاريف :

الثاني منها هو : "التصرف في ملك الغير بغير إذنه" وهذا التعريف لا يشمل إلا بعض جزئيات الظلم فهو تعريف ناقص .

وأما التعريف الثالث وهو : "أن يعاقب بذنوب غيره" فإنه لم يشمل ظلم النفس للنفس ولا ظلم الغير للغير، فهذا التعريف ناقص أيضاً.

وبهذا يكون التعريف الأكمل للظلم هو التعريف الأول وهو : "وضع الشيء في غير موضعه الشرعي" لكونه يشتمل على جميع أنواع الظلم .

---

(١) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ، ص ٢١١ ، دار المعرفة بيروت.

## **الباب الأول**

### **رحمة الله تعالى وتنزهه عن الظلم**

وفيه فصول :

- الفصل الأول : مظاهر عدل الله تعالى وشواهدة.
- الفصل الثاني : طرق التخلص من الظلم .
- الفصل الثالث : عقوبة الظلمة .

## الفصل الأول : مظاهر عدل الله تعالى وشواهد

وفيه مباحث :

- المبحث الأول : كمال نزاهته عز وجل عن الظلم .
- المبحث الثاني : نجاة المتقين والنكال بالظالمين .
- المبحث الثالث : إمهال الظالمين إلى يوم القيامة وأخذهم بما يستحقون.
- المبحث الرابع : عفو الله عن المستضعفين والتائبين بقبول توبتهم.
- المبحث الخامس : القضاء بين العباد بحضور رسلهم وكتب أعمالهم والحفظة عليهم من الملائكة .

## المبحث الأول

كمال نزاهته عز وجل عن الظلم

## المبحث الأول

### كمال نزاهته عز وجل عن الظلم

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤٤) (١). أي لا يعاقب أحداً بدون ذنب ولا يجازي خلقه بما لا يستحقون ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم بالمعاصي والكفر بمخالفتهم لأمر الله تعالى . قال أبو السعود: (إن ما حكى عنه من عدم اهتدائهم إلى طريق الحق وتعطل مشاعرهم من الإدراك ليس لأمر مستند إلى الله عز وجل من خالقهم موفى المشاعر ونحو ذلك، بل إنما هو من قبلهم أي لا ينقصهم شيئاً مما ينيط به مصالحهم الدينية والدنيوية وكما لا تهم الأولوية والأخروية من مبادئ إدراكاتهم وأسباب علومهم من المشاعر الظاهرة والباطنة والإرشاد إلى الحق بإرسال الرسل وإنزال الكتب بل يوفيهم ذلك بغير إخلال بشيء أصلاً) (٢) اهـ.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٤٠) (٣).

قال ابن كثير: (يقول الله مخبراً أنه لا يظلم أحداً من خلقه يوم القيامة مثقال حبة من خردل ولا مثقال ذرة بل يوفيهما له ويضاعفها له إن كانت حسنة، كما قال

(١) سورة يونس: آية (٤٤) .

(٢) تفسير أبي السعود: ص ١٤٩ ، الجزء الرابع .

(٣) سورة النساء: آية (٤٠) .

تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ الآية، وقال تعالى مخبراً عن لقمان أنه قال: ﴿يَبْنِيْ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ (١).

قال النسفي: (إن الله لا يظلم مثقال ذرة، قال: هي النملة الصغيرة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أدخل يده في التراب فرفعه ثم نفخ فيه فقال كل واحدة من هؤلاء ذرة، وقيل جزء من أجزاء الهباء في الكوة ذرة) (٢) اهـ.

وقال الفخر الرازي: (واعلم ان المراد من الآية أنه تعالى لا يظلم قليلاً ولا كثيراً، ولكن الكلام خرج على أصغر ما يتعارفه الناس يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾ (٣) اهـ.

فيعلم من هذا أن الله جلّت قدرته وتعالّت وتقدست أسماؤه وصفاته قد تنزه عن ظلم عباده فلا حاجة له في ظلم أحد، بل من أحسن فله الحسنى وزيادة ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد.

فالظلم والحسد والحقد لا يحصل إلا بين الناس لتفاوتهم في الأمور المختلفة فهذا يحسد هذا على منصب وهذا يحسد هذا على مال وهكذا.

(١) تفسير القرآن العظيم: ج ١، ص ٤٩٧.

(٢) تفسير النسفي: الجزء ١، ص ٢٢٦.

(٣) تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب المجلد الخامس الجزء العاشر ص ١٠٥.

ويغلب حصول الحسد والحقد من أسافل الناس وسقطهم كما يغلب حصول الظلم من أهل القوة والجبروت الذين بعدوا عن الدين وتعاليمه وقيمه ومبادئه، فبعدت بهم الشقة عن ذلك لجهلهم ولانغماسهم في الدنيا وحطامها فتنافسوها حتى حصل ما حصل من ظلم وجور حيث نأى بهم الهوى والشيطان عن اتباع ما ارتضاه لهم الرحمن، وهذا سيؤدي بهم إلى الهلاك والدمار مثلما حصل لمن قبلهم من الأمم.

وحاشاه عز وجل أن يظلم أحداً، فالجميع يعيش من ورزقه ويحيون ويموتون بأمره فهو المتصرف في جميع الأمور لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وكل شيء عنده بمقدار، وصدق حيث يقول: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَلِّئُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (١).

ويقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢).

هذه آيات الله التنزيلية التي تتلى على محمد عبدالله ورسوله ﷺ بين فيها المولى عز وجل بأنه لا يريد لعباده إلا الخير، وأنه لا يجور على أحد فهو الحكم العدل لا يظلم أحداً، بل الناس أنفسهم يظلمون بارتكابهم ما حرم ربهم عليهم.

(١) سورة الكهف: آية (٤٩) .

(٢) سورة آل عمران: آية (١٠٨) .



قال أبو السعود : ("وما الله يريد ظلماً للعالمين" تذييل مقرر لمضمون ما قبله على أبلغ وجه وأكده فإن تنكير الظلم وتوجيه النفي إلى إرادته بصيغة المضارع دون نفسه وتعليق الحكم بأحاد الجمع المعرف والالتفات إلى الاسم الجليل إشعاراً بعلّة الحكم وبياناً لكمال نزاهته عز وجل عن الظلم بما لا مزيد عليه. أي ما يريد فرداً من أفراد العالمين في وقت من الأوقات فضلاً عن أن يظلمهم فإن المضارع كما يفيد الاستمرار في الإثبات يفيد في النفي بحسب المقام كما أن الجملة الاسمية تدل بمعونة المقام على دوام الثبات وعند دخول حرف النفي تدل على دوام الانتفاء لا على انتفاء الدوام وفي سبك الجملة نوع إيماء إلى التعريض بأن الكفرة هم الظالمون ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١).

قال الله تعالى : ﴿مِثْلَ دَابِّ قَوْسٍ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ (٢).

الله سبحانه لا يعاقب عباده بغير ذنب، ولا يترك الظالم منهم بغير انتقام، ولا يريد الظلم لأحد منهم. فحاشاه أن يظلم ما دام لا يريد له عباده، فليحذر العبد من ظلم نفسه حتى لا يوقعها في الهلاك فمن عدل الله تعالى وعدم ظلمه لأحد مجازاة كل عبد من عبيده على صنيعه بما يستحق. إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ولا

(١) تفسير أبي السعود: المجلد الأول الجزء الثاني ص ٧٠ .

(٢) سورة غافر: الآية (٣١) .

إِنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ الظَّالِمَةَ لَا يَزَالُونَ يَتَرَبَّصُونَ بِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ الدَّوَائِرَ ﴿٦﴾ عَلَيْهِمُ دَائِرَةُ السُّوءِ وَعَظَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ (١)، فسحان من لا يخفى عليه خافية وهو للظالمين بالمرصاد .

فقد بين تعالى في الآية التي هي مدار بحثنا ما كان من الظلمة مع قوم نوح وعاد وثمود ومن جاء بعدهم. فقد طلب قوم نوح منه طرد المؤمنين وأنه لم يمنعهم من اتباعه إلى أولئك الذين يرون بزعمهم أنهم أراذل الناس فقال تعالى مخبراً عنهم: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرَذَلُونَ﴾ (١١١) ، وقوله تعالى عنهم ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ ، وقال تعالى مخبراً عن رد نوح عليه السلام: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٤) **إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ** (١١٥) وقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُؤَارِيهِمْ وَلِنَكْفِيَ أَرْكَكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ (٢٩) ، ويقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٨) .

(٢) سورة الشورى : آية (٨) .

الله جل شأنه وتعالى وتقدست أسماؤه وصفاته له الحكمة البالغة يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فلو أراد سبحانه لجعل الناس كلهم على الهدى، ولو شاء لجعلهم على الضلالة، ولكنه تعالى جعل الناس فريقين فهدى من شاء إلى الحق وأضل من شاء عنه، وهذا بمشيئته الأزلية وما سبق في علمه تعالى بمن سيطيع وبمن سيحيد ويعصي .

قال الشوكاني : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قال الضحاك: أهل دين واحد إما على الهدى وإما على ضلالة ولكنهم اختلفوا على أديان مختلفة بالمشيئة الأزلية وهو معنى قوله : في الدين الحق وهو الإسلام .

﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٨) : أي الظالمون ما لهم من ولي يدفع عنهم العذاب ولا نصير ينصرهم في ذلك المقام (١) اهـ.

نعم إن الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بارتكابهم ما حرم ربهم عليهم في هذه الحياة الدنيا سيلقون جزاءهم يوم القيامة، يوم الفصل بين الخلق، يوم ينجي الله المؤمنين ويدخلهم الجنة بفضلهم ورحمته، ويخزي الظالمين الكافرين به تعالى، يقول تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ (١١) (٢).

(١) فتح القدير: ج٤، ص ٥٢٥ .

(٢) سورة محمد: آية (١١) .

إن الله عز وجل رحيم بعباده جميعاً ولكنه من رحمته عادل يجازي كل عبد بعمله في الدنيا إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وقد سبقت رحمته غضبه وله مائة رحمة أنزل واحدة في الدنيا وادخر باقي المائة يوم القيامة كما ثبت في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المسلم بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار) <sup>(١)</sup>.

وعن سلمان قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة طباق ما بين السماء والأرض فجعل منها في الأرض رحمة فيها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة) <sup>(٢)</sup>.

قال ابن حجر على هذا الحديث الأول : (اشتمل على الوعد والوعيد المقتضيين للرجاء والخوف فمن علم أن من صفات الله تعالى الرحمة لمن أراد أن يرحمه والانتقام لمن أراد أن ينتقم منه، لا يأمن انتقامه من يرجو رحمته، ولا ييأس من رحمته من يخاف انتقامه، وذلك باعث على مجانبة السيئة ولو كانت صغيرة وملازمة الطاعة ولو كانت قليلة .

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق ١٩، حديث رقم ٦٤٦٩، ومسلم في صحيحه التوبة ١٨ - ٢١، والترمذي كتاب الدعوات ٩٩، وابن ماجه، كتاب الزهد ٣٥، والدارمي كتاب الرقاق ٦٩، وأحمد في المسند ٤٣٣/٢ .

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب التوبة ٢١ "سعة رحمة الله وأنها تغلب غضبه".

قيل: في الجملة الأولى نوع إشكال فإن الجنة لم تخلق للكافر ولا طمع له فيها فغير مستبعد أن يطمع في الجنة من لا يعتقد كفر نفسه فيشكل ترتب الجواب على ما قبله، وأجيب: بأن هذه الكلمة سيقى لترغيب المؤمن في سعة رحمة الله التي لو علمها الكافر الذي كتبت عليه أنه لا حظ له في الرحمة لتناول إليها ولم يئأس منها. ثم قال: وإذا كان ذلك حال الكافر فكيف لا يطمع فيها المؤمن الذي هداه الله للإيمان؟<sup>(١)</sup> اهـ.

إذا كان الكافر يرى من رحمة الله تعالى ما يجعله يطمع في ذلك ودخوله الجنة في اليوم الذي يرى فيه الجميع أن لا منجى ولا ملجأ من الله إلا إليه، فأولى أن يطمع في ذلك المؤمن، وكل يعترف بما قدم في حياته، الكافر يود لو يرجع إلى الدنيا ليعمل صالحاً غير الذي كان يعمل، والمؤمن يود لو ازداد من الصالحات لترتفع درجته، ولكن رحمة الله تعالى قريبة من المؤمنين فيقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

هذا في حق الطائعين الممثلين لأمر الله تعالى . وأما الذين لا مولى لهم ولا نصير الذين ظلموا أنفسهم في حياتهم الدنيا بكفرهم وضلالهم فيقول الله في حقهم: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري: مجلد ١١، كتاب الرقاق ص ٣٠١.

(٢) سورة الطور: آية (٢١).

(٣) سورة الطور: آية (٤٧).

إن هذا هو العدل الذي لا يجاريه عدل فكل يُحاسب ويجازى على ما قدم ولا يظلم الله أحداً من عباده بل يقرر سبحانه يوم القيامة العباد بما عملوا: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَنَهُ طَبْعُهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤ مَن أَهْتَدَىٰ فَأَتَمَّا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَأَتَمَّا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ وَازِرَةً وَزَرَّ أُخْرَىٰ ۖ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ (١).

فلا حجة لأحد. الكل يعترف بما في كتابه وما سجّل له وما سجّل عليه، وهنا تظهر العدالة الربانية الحقّة .

ويقول تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝٤٠﴾ (٢).

(هو تحريك لمشاعر أولئك الذين بغى عليهم أهل البغي أن يأخذوا بحقهم، وأنه إذا كان العفو سنةً كريمةً وعملاً مبروراً، فإنه لا يكون كذلك حتى يجيء عن قدرة على من بغى، فيكون العفو هنا عن فضل وإحسان ممن بغى عليه، الأمر الذي يرى منه الباغي أن هناك يداً قادرة على أن تقطع هذه اليد التي بغت، فلا يتهاذى بعد هذا في بغيه، بل ينزجر ويندحر، ولا يطل برأسه من جحره بعد هذا أبداً. قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ﴾ إشارة إلى الأخذ بما هو أولى من جزاء السيئة بسيئة مثلها، وهو العفو عن المسيء وذلك بعد القدرة عليه، ووقوعه في يد

(١) سورة الإسراء: آية (١٣-١٥) .

(٢) سورة الشورى: آية (٤٠) .

من بغى عليه، فإن العفو مع القدرة كما قلنا هو عقوبة للمعتدي، ووقعها على النفوس الحية أقسى وأمر من كل عقوبة (١).

إن من عدل الله أن شرع القصاص ومن رحمته أن ندب إلى الفضل وهو العفو كما هو في الآية الكريمة، فهو جل وعلا لا يحب الظالمين أي المعتدين بالسيئات على الآخرين؛ لذا ندّد بهم وأثبت حق المعتدى عليهم فقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٩٤). وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٣٦) (٢).

وقد ندب سبحانه إلى العفو لرحمته بعباده فقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ ، وقال تعالى: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٥) (٣).

وقد أعقب المولى عز وجل بعد الآية التي نحن بصددتها قوله تعالى ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤١) إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويغنون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم (٤٢) ولَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) (٤).

(١) التفسير القرآني للقرآن : مجلد ٥، جزء ٢٥، ص ٧٧ .

(٢) سورة البقرة: آية (١٩٤) .

(٣) سورة النحل: آية (١٢٦) .

(٤) سورة المائدة: آية (٤٥) .

(٥) سورة الشورى: آية (٤٣) .

فبيّن تعالى رفع الظلم عمّن ظلم ونصرة المظلوم من الظالم فالرد بالمثل من حق المظلوم وله التصرف في ذلك ولا سبيل عليه، إنما السبيل على من يظلم الناس في دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم، فبعدل الله تعالى وإنصافه يحفظ الحقوق وقد توعدّ الظلمة بالعذاب الأليم: الشديد الموجه، وهذا من تمام عدله ورحمته بعباده حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يظلم أحدٌ أحدًا.

قال الثعالبي : (قال ابن عطية: سمّي الجزاء باسم الابتداء وإن لم يكن سيئة لتشابهها في الصورة) <sup>(١)</sup>.

---

(١) جواهر الحسان في تفسير القرآن: ج ٤ ، ص ١١٤ .



## المبحث الثاني

نجاه المتقين .. والنكال بالظالمين

## المبحث الثاني

### نجاة المتقين والنكال بالظالمين

يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۚ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا ۖ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْمًا أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ۖ ۝٦٩ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۖ ۝٧٠ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۖ ۝٧١ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا ۖ ۝٧٢﴾ (١).

يذكر المولى عز وجل عباده المنكرين للبعث والإعادة بعد أن صاروا رميماً ببدء خلقهم حيث لم يكونوا شيئاً: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۖ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۖ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۖ ۝٧٩﴾.

يا له من ظلم عظيم! كيف ترى الحقائق واضحة ثم يكفر بها الإنسان، ولكن المولى عز وجل لم يكن ليعذب أحداً بذنب آخر كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۖ ۝١٦٤﴾ وقد جاء هذا في خمسة مواضع في القرآن الكريم (٢)، وهذا من عدله تعالى وتنزهه عن الظلم الذي حرّمه على نفسه، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

(١) سورة مريم: آية (٦٧، ٧٢).

(٢) سورة الأنعام: آية (١٦٤)، والإسراء: آية (١٥)، وفاطر: آية (١٨)، والزمر: بية (٧)، والنجم: آية (٣٨).

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (قال الله كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك. أما تكذبيه إياي أن يقول إني لن أعيده كما بدأته، وأما شتمه إياي أن يقول اتخذ الله ولداً، وأنا الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد) <sup>(١)</sup>.

ويقسم المولى عز وجل بأنه لا بد من حشر جميع الخلائق ومحاسبتهم ومجازاة كل بعمله فعباده المتقون ينجيهم عز وعلا من عذابه ويدخلهم جنته : ﴿جَزَاءٌ مِنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ أي تفضيلاً من الله تعالى بسبب أعمالهم الطيبة حيث استعدوا في دار الدنيا وزرعوا زرعاً وجدوا حصاده طيباً يانعاً في الآخرة، وأما من خبث زرعهم فلم ينتج ولم يخرج إلا خبثاً، فهؤلاء الظلمة الذين فرطوا في جنب الله مأواهم النار وبئس القرار : ﴿جَزَاءٌ وَفَقَاءٌ﴾.

قال ابن كثير : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي إذا مرّ الخلائق كلهم على النار وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوي المعاصي بحسبهم نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين فيشفع الملائكة والنيون والمؤمنون فيخرجون خلقاً قد أكلتهم النار إلا دارات وجوههم وهي مواضع السجود وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان فيخرجون أولاً من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان ثم الذي يليه حتى يخرجون

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير سورة الإخلاص، وله أطراف ٣١٩٣، ٩٤٧٤، ٤٩٧٥. والنسائي: جوائز ١١٧، وأحمد في المسند: ٣١٧/٢، ٣٥٠.

من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ثم يخرج الله من النار من قال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله وإن لم يعمل خيراً قط ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود<sup>(١)</sup> اهـ.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً كما خلقوا، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعِدَّا عَلَيْهِمْ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾<sup>(١٠٤)</sup>، وأول من يكسى من الخلائق إبراهيم، ويؤخذ من أصحابي رجال ذات اليمين وذات الشمال، فأقول يا رب أصحابي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم لا يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾<sup>(١١٨)</sup> (٢).

وعن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري قالا: قال رسول الله ﷺ: (يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله له: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً وسخرت لك الأنعام والحراث، وتركك ترأس وتربع فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا؟ قال: فيقول لا، فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني)<sup>(٣)</sup>.

(١) تفسير القرآن العظيم: ج ٣، ص ١٣٣ - ١٣٤.

(٢) رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة، حديث رقم ٢٤٢٣، وقال حسن صحيح.

(٣) رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة، حديث رقم ٢٤٢٨، وقال حديث صحيح غريب.

هذا جزاء المفرطين في طاعة الله تعالى يعرفون بجرائمهم ويؤخذ بهم ذات الشمال، ويذكرهم المولى عز وجل بما قد أنعم به عليهم من نعمة السمع والبصر والمال والولد وتسخير الأنعام له وطوع له الأرض لينعم من خيراتها ويسعى عليها، وجعل له سلطة وما إلى ذلك ومع هذا فقد أنكر لقاء الله تعالى ومحاسبته حيث قد أغترّ بالدنيا وزخرفها وضيع وقته فيما لا يرضى الله وحتى اخترمته المنية، فالله ينساه أي يتركه تعالى جزاء على ما حصل منه، وأما أصحاب الأعمال الطيبة فيؤخذ بهم ذات اليمين ويحاسبون حساباً يسيراً، ويظفرون بجزاء موفوراً، بتنعمهم في الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. هكذا يتجلى عدل الله تعالى وعدم ظلمه لعباده في الآيات البينات وأحاديث رسوله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .

ويقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (١٧) .

إذا كانت حكمة الله تعالى تقتضي الصلاح لا الفساد، فلا حاجة له سبحانه في هلاك أحد وهو سائر على مراد الله تعالى إنما يحيق العذاب والنكال بأهله المفسدين في الأرض .

(١) سورة هود: آية (١١٧) .

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا  
الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٧) (١).

فلا يحل ولا يقع العذاب إلا بالظالمين أما الفريق الآخر وهم الملتزمون  
بأوامر الله تعالى المنقادون لما جاء به رسل الله تعالى فهم الناجون الفائزون.

قال ابن الجوزي: (وفي قوله تعالى: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (١١٧) ثلاثة أقوال:

١ - يتتصف بعضها من بعض رواه قيس بن أبي حاتم عن جرير. قال أبو  
جعفر الطبري: فيكون المعنى لا يهلكهم إذا تناصفوا وإن كانوا مشركين،  
وإنما يهلكهم إذا تظالموا.

٢ - مصلحون لأعمالهم، متمسكون بالطاعة، قاله أبو صالح علي بن عباس.

٣ - مؤمنون، قاله مقاتل (٢).

وأقول: كل هذه الأقوال محتملة.

وقال سيد قطب: (ثم يعود السياق إلى تكملة التعليق والتعقيب على  
مصارع القرى والقرون فيشير من طرف خفي إلى أنه لو كان في هذه القرون أو  
بقية يستبقون لأنفسهم الخير عند الله فينهون عن الفساد في الأرض، ويصدون  
الظالمين عن الظلم، ما أخذ تلك القرى بعذاب الاستئصال الذي حل بهم، فإن الله

(١) سورة الأنعام: آية (٤٧).

(٢) زاد المسير ج ١٢ ص ٨٧، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

لا يأخذ القرى بظلم إذا كان أهلها مصلحين، أي إذا كان للمصلحين من أهلها قدرة يصدون بها الظلم والفساد، إنما كان في هذه القرى قلة من المؤمنين لا نفوذ لهم ولا قوة فأنجاهم الله، وكان فيها كثرة من المفترين وأتباعهم والخانعين لهم، فأهلك القرى بأهلها الظالمين<sup>(١)</sup>.

لهذا كان قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (١١٦).

وقال تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢).

نعم لاشك ولا ريب أن القرآء الكريم شفاء للقلوب والأبدان وللنفوس كيف لا يكون كذلك وهو كلام رب العالمين الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٤) إنه شفاء من جميع الأمراض حسية كانت أو معنوية، فبتلاوته بتدبر وتمعن وتنفيذ ما جاء فيه بتحليل حلاله وتحريم حرامه يهدأ الإنسان بانشرach صدره وذهاب وساوس الشيطان ونزغاته. يقول تعالى:

(١) في ظلال القرآن: ج ٤، ص ١٩٣٢.

(٢) سورة هود: آية ١١٦.

(٣) سورة الإسراء: آية (٨٢).

(٤) سورة فصلت: آية (٤٢).

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ  
الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ  
وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس: ٦] <sup>(١)</sup> . بهذا يذهب ما عند الإنسان من توهمات، ومن  
القلق وجميع الأمراض والأسقام، وكذا يزول ويذهب ما هناك من حقد وحسد  
وطمع وهوى وظلم وغير ذلك مما لا يرضاه الله تعالى. إنه الكتاب المهيمن على  
جميع الكتب فهو رحمة للمؤمنين الذين عرفوا قدره وأحلوا حلاله وحرّموا حرامه،  
وحجة على الظالمين لا يزيدهم إلا خساراً وعمى، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي  
ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ <sup>(٢)</sup> ،  
فهذه خسارة لا تعادلها خسارة فليست خسارة مال فيكون لها عوض بل خسارة  
الدين، الذي خلق الله الإنسان من أجله، وأن يتعبد به ربه، وأرسل إليه الرسل  
وأُنزل معهم الكتب، فمن أطاع وامتثل عمّته رحمة أرحم الراحمين، ومن جحد  
وكذب باء بالخسران المبين .

(١) سورة الناس .

(٢) سورة فصلت: آية (٤٤) .



قال الشوكاني : (اختلف أهل العلم في معنى كونه شفاء على قولين :

القول الأول : إنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وذهاب الريب وكشف الغطاء عن الأمور الدالة على الله سبحانه .

القول الثاني : إنه شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ ونحو ذلك <sup>(١)</sup> .

ولا مانع من حمل الشفاء على المعنيين من باب عموم المجاز، أو من باب حمل المشترك على معنيه، ثم ذكره سبحانه أنه رحمة للمؤمنين لما فيه من العلوم النافعة المشتملة على ما فيه صلاح الدين والدنيا ولما في تلاوته وتدبره من الأجر العظيم الذي يكون سبباً لرحمة الله سبحانه ومغفرته ورضوانه ومثل هذه الآية قول تعالى:

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْهُوَ

عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ ، ثم لما ذكر سبحانه ما في القرآن من المنفعة لعباده المؤمنين ذكر ما فيه لمن عداهم من المضرة عليهم .

﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ <sup>(٨٢)</sup> أي ولا يزيد القرآن كله أو بعض منه

الظالمين الذين وضعوا التكذيب موضع التصديق والشك والارتياب موضع اليقين والاطمئنان (إلا خساراً) أي هلاكاً؛ لأن سماع القرآن يغيظهم ويحنقهم ويدعوهم إلى زيادة ارتكاب القبائح تمرداً وعناداً، فعند ذلك يهلكون) اهـ <sup>(٢)</sup> .

(١) الرقى والتعوذ لا تكون إلا من القرآن الكريم أو ما ثبت في السنة المطهرة ولا يكون بخلاف ذلك من الشعوذة والتفتة، والحروز وما يعمل به المشعوذون والدجالون من لسحرة وغيرهم ويأكلون أموال الناس بالباطل ويضيعون عليهم دينهم .

(٢) فتح القدير : جزء ٣ ص ٢٥٣ .

إِنَّ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَدْلِهِ أَنْ أَنْزَلَ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ هَذَا الْكِتَابَ الْعَظِيمَ الَّذِي هُوَ كَلَامُهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُ نَزَلَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ وَجَعَلَ فِيهِ الشِّفَاءَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ وَعَمِلَ أَخَذَ بِحِظِّ وَافِرٍ وَحَصَلَ لَهُ الشِّفَاءُ وَمَنْ تَرَكَهُ وَلَمْ يَأْخُذْهُ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ هَلَكَ وَخَسِرَ وَهَذَا مِنْ تَمَامِ الْعَدْلِ فَهُوَ يُجَازِي كَلًّا بِعَمَلِهِ وَيَكْتُبُ لَهُ السَّعَادَةَ أَوْ الْخُسْرَانَ عَلَى سَعْيِهِ.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ (١).

فكيف لا يقوى الحق وأهله والله ينزل من القرآن ما هو شفاء لما في الصدور من الشك والريب والزيغ وسبب الرحمة لمن آمن به والتزمه قولاً وعملاً واعتقاداً؟ وكيف لا يهبط ويزهق الباطل وأهله الظلمة الذين جعل الله القرآن عليهم عمى لتركهم الاهتداء به وازديادهم في التكذيب والشك والارتياب .

إن الهلاك والدمار والعذاب لا يحل ولا يقع إلا بالظالمين وأعدائهم لتكبيهم صراط الله المستقيم وإعراضهم عن هدي القرآن الذي فيه النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة ، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ (٢).

(١) سورة التوبة: آية (١٢٤-١٢٥) .

(٢) سورة الأنعام: آية (١٠٤) .

ويقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٣٠)  
يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالْظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٣١) (١).

إن الهداية بيد الله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء فلا يستطيع أحد أن يهدي نفسه ولا يجلب لها نفعاً إلا بمشيئة الله تعالى فهو العليم بمن يستحق الهداية فيسيرها له ويسره لها بعد تقييض الأسباب ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤).

إن من هدي إلى صراط مستقيم وقام بما أزمه الله من الهدى والنور والتقوى وابتعد عن محارم الله تعالى وحماه ولم يقع في شيء مما حرم عليه وصبر على هذه الحياة الدنيا وما فيها من أشواك ومن مصائب ومن بلاوي ومصائب وعلم أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر فإن الله جل وعلا يدخله في رحمته بفضلته بمشيئته وإرادته لأنه تعالى هو الذي يسر له هذا الطريق وهذا المسلك وجنبه طريق الشر والغواية.

(١) سورة الإنسان: آية (٣١).

(٢) سورة الزمر: آية (٢٣).

(٣) سورة الروم: آية (٥٣)، وسورة النمل: آية (٨١).

(٤) سورة الحج: آية (٥٤).

أما من عميت بصيرته وضل وغوى وتنكب صراط الله المستقيم وطريق المنعم عليهم، وسلك طريق المغضوب عليهم والضالين، فهذا ومن سلك طريقه ومنهج منهجه من أعوانه وأمثاله الظلمة أعد الله لهم عذاباً أليماً أي موجعاً جزاء على تعديهم على محارم الله تعالى وعدم مبالاتهم بما كلفوا به في هذه الحياة الدنيا التي ما مثلها إلا كمثل مسافر استظل تحت شجرة ثم ذهب وتركها، أما دار الخلد فهي الآخرة، يقول تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٦٨) (١).

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٧٢) (٢).

إن لكل جزاء وهذا من عدل الله تعالى ولا يستوي هؤلاء وهؤلاء، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ (٣). نعم لا يستوي الظلمة العصاة ولا المطيعون التقاة كل له شرعة ومنهاجاً، وفي الآخرة له مستقر جزاءً وافقاً.

(١) سورة التوبة: آية (٦٨).

(٢) سورة التوبة: آية (٧٢).

(٣) سورة الحشر: آية (٢٠).

يقول سيد قطب عند ذكر آية الحشر : ( لا يستويان طبيعة وحالاً ، ولا طريقة وسلوكاً ، ولا وجهة ولا مصيراً ، فهما على مفرق طريقين لا يلتقيان أبداً في طريق ، ولا يلتقيان أبداً في سمة ، ولا يلتقيان أبداً في خطة ، ولا يلتقيان أبداً في سياسة ولا يلتقيان أبداً في صف واحد في دنيا ولا آخرة... ) ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ ﴾ (٢٠) ، ثم يثبت مصير أهل الجنة ويدع مصير أهل النار مسكوتاً عنه ، معروفاً ، وكأنه ضائع لا يعنى به التعبير ! (١) اهـ .

إننا مهما بحثنا في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ من عدل الله تبارك وتعالى وعن آثار رحمته بعباده ولطفه بهم فسنجد ذلك في أماكن كثيرة ومواقع متعددة ، وإذا نظرنا في هذا الكون وما به من مخلوقات لوجدناه يعيش ويستقر في كنف وفي رزق الله يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٦) (٢) .

ثم من عدله تعالى أن بعث في كل أمة من الأمم رسولاً يبين لهم ما يصلحون به في هذه الحياة الدنيا وما تستقر عليه أحوالهم وما يكون به كسب أرزاقهم ، وما يكون فيه حفظ أنفسهم وأموالهم وأعراضهم . يقول تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (٢٤) (٣) .

(١) في ظلال القرآن : ج ٦ ، ص ٣٥٣١ .

(٢) سورة هود : آية (٦) .

(٣) سورة فاطر : آية (٢٤) .

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۚ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا ۚ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (١).

فلا حكم أفضل من حكمه ولا عدل تستقيم وتصلح عليه البشرية أعلى من عدله - جل وعلا - فمن لطفه ورحمته بمخلوقاته جمعاء أنه عندما خلقها لم يتركها سدى بل ضبطها بضابط الرسالة والكتب المنزل وأبان لهم ما فيه سعادتهم الدينية والدنيوية فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك ظلام للعبيد.

---

(١) سورة النحل: آية (٣٦).

## المبحث الثالث

**إمهال الظالمين إلى يوم القيامة وأخذهم بما يستحقون**

### المبحث الثالث

#### إمهال الظالمين إلى يوم القيامة وأخذهم بما يستحقون

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤٢) ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنَدْتُمْ هَوَاهُمْ﴾ (٤٣) ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أُولَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ (٤٤) ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ (٤٥) (١).

يخبر المولى عز وجل رسوله محمداً ﷺ بأنه تعالى غير غافل وغير مهمل للظلمة الذين يتقلبون في نعم الله تعالى، وهذا وعيد شديد للظالمين، وتسلية للمظلومين، وبيان من رب العالمين، بأنه وإن أُملي للظالم وأمهله، فلا بد من أخذه، وإذا أخذه تعالى لم يفله، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢). والمصيبة العظيمة والطامة الكبرى هو إذا أخر المولى عز وجل الظالم وأجل له العذاب ليوم القيامة حيث لا تطرف الأعين من شدة الهول ويأتون مسرعين إلى إجابة الداعي، قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (١٠٨) ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (١٠٩) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ (١١٠) ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ (١١١) (٢).

(١) سورة إبراهيم: آية (٤٢-٤٥).

(٢) سورة طه: آية (١٠٨-١١١).



وهم مقنعوا رؤوسهم أي رافعوها، وأبصارهم شاخصة لا تطرف لحظة لما هم فيه من الهول وكذا قلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجع والخوف قد صعدت إلى الحناجر. قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٧) وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ (١).

قال سيد قطب: (والرسول ﷺ لا يحسب الله غافلاً عما يعمل الظالمون ولكن ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يرون الظالمين يتمتعون ويسمع بوعيد الله، ثم لا يراه واقعاً بهم في هذه الحياة الدنيا، فهذه الصيغة تكشف من الأجل المضروب لأخذهم الأخذة الأخيرة، التي لا إمهال بعدها، ولا فكاك منها، أخذهم في اليوم العصيب الذي تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع، فتظل مفتوحة مبهوتة مذهولة، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك، ثم يرسم مشهداً للقوم في زحمة الهول. مشهدهم مسرعين لا يلوون على شيء ولا يلتفتون إلى شيء، رافعين رؤوسهم لا عن إرادة ولكنها مشدودة لا يملكون لها حراكاً، يمتد بصرهم إلى ما يشاهدون من الرعب فلا يطرف ولا يرتد إليهم، وقلوبهم من الفزع خاوية خالية لا تضم شيئاً يعونه أو يحفظونه أو يتذكرونه، فهي هواء خواء).

هذا هو اليوم الذي يؤخرهم الله إليه. حيث يقضون هذا الموقف، ويعانون هذا الرعب (٢) اهـ.

(١) سورة غافر: آية (١٧-١٨).

(٢) في ظلال القرآن: ح ٤، ص ٢١١١.

وقال الشوكاني : (في هذا تسليية للرسول ﷺ وإعلام للمشر-كين بأن تأخير العذاب عنهم ليس للرضاء بأفعالهم ، بل سنة الله سبحانه في إمهال العصاة... إلى أن قال عند قوله تعالى : ﴿لَيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي ترفع فيه أبصار أهل الموقف ، ولا تغمض من هول ما تراه في ذلك اليوم... إلى أن قال: والمراد أن الأبصار، بقيت مفتوحة، لا تتحرك من شدة الحيرة والدهشة) (١) اهـ.

قال أبو السعود: (فيه تسليية لرسول الله ﷺ ووعد له أكيد ووعد للكفرة وسائر الظالمين شديد أو لكل أحد ممن يستعجل عذابهم أو يتوهم إهمالهم للجهل بصفاته تعالى، والاعتزاز بإمهاله، وقيل: معناه لا تحسبته تعالى يعاملهم معاملة الغافل عما عملوا بل معاملة من يحافظ على أعمالهم ويجازيهم بذلك نقيراً وقطميراً) (٢)، والمراد بالظالمين أهل مكة مما عدت مساويهم من تبديل نعمة الله تعالى كفروا وإحلال قومهم دار البوار واتخاذ الأنداد كما يؤذن به التعرض لحكمة التأخير المنبئ عنه قوله تعالى : ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ (٣) الآية .

أو جنس الظالمين وهم داخلون في الحكم دخولاً أو ولياً ﴿إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ﴾ يمهلهم متمتعين بالحظوظ الدنيوية ولا يعجل عقوبتهم حسبما يشاهد وهو استئناف وقع تعليلاً للنهي السابق أي دم على ما كنت عليه من عدم حسبانته تعالى

(١) فتح القدير : ج ٣ ص ١١٥ .

(٢) القطمير: ألْقَشْرَةُ الرَّرِيقَةِ عَلَى النَّوَاةِ كَاللَّفَافَةِ هَا .

النَّقِيرُ: النُّقْطَةُ الَّتِي عَلَى ظَهْرِ النَّوَاةِ .

الْفَتِيلُ الْخِيطُ الَّذِي فِي شَقِّ النَّوَاةِ .

(٣) قال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ (٢٠) ٣٠ إبراهيم

غافلاً عن أعمالهم ولا تحزن بتأخير ما تستوجبه من العذاب الأليم إذا تأخيره للتشديد والتغليظ، أو لا تحسبته تعالى تاركاً لعقوبتهم لما ترى من تأخيرها إنما ذلك لأجل هذا أو لا تحسبته تعالى يعاملهم معاملة الغافل ولا يؤاخذهم بما عملوا لما ترى من التأخير إنما هو لهذه الحكمة. وقرئ بالنون وإيقاع التأخير عليهم مع أن المؤخر إنما هو عذابهم لتهويل الخطب وتفظيع الحال بيان أنهم متوجهون إلى العذاب مرصدون لأمر ما لا أنهم باقون باختيارهم...) (١) اهـ. إلى آخر ما قال .

إذا أمعنا النظر في آيات الله التنزيلية، وقفنا على عظيم عدل الله تعالى وتنزهه عن الظلم فهو يؤخر عباده ويمهلهم، وقد أرسل لهم الرسل وأنزل عليهم الكتب حتى تبلغ الحجة قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٦٥) (٢)، فلا حجة لأحد وإن كان فحجة داحضة وأقوال باطلة .

ما أحلمك يا رب الأرض والسماء على عبادك، وما أكرمك، وما أنزهك عن أن تظلم أحداً بل خيرك إلينا نازل، وشرنا إليك صاعد، تمنّ علينا بالخيرات، ونبادل إحسانك بالإساءة، فنستغفرك ونتوب إليك، ونسألك المغفرة والرضوان، ومحو الزلات، ومضاعفة الحسنات، ولا تجعلنا يا الله ممن يظلمون أنفسهم أو غيرهم، ولا تخرجنا من هذه الدنيا إلا ونحن سالمون، ومن عذابك ناجون، وعن النار مبعدون، ولجنتك كاسبون، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(١) تفسير أبي السعود: المجلد الثالث، الجزء الخامس ص ٥٥ .

(٢) سورة النساء: آية (١٦٥) .

ويقول تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٤٧) (١).

قال عبد الرحمن السعدي : (يخبر تعالى عن حكمه العدل، وقضائه القسط بين عباده إذا جمعهم يوم القيامة، وأنه يضع الموازين العادلة، التي يبين فيها مثاقيل الذر الذي توزن به الحسنات والسيئات . (فلا تظلم نفس) مسلمة ولا كافرة (شيئاً) بأن تنقص من حسناتها أو يزداد في سيئاتها . (وإن كان مثقال حبة من ردل) التي هي أصغر الأشياء وأحقرها من خير أو شر (أتينا بها) وأحضرناها، ليجازى بها صاحبها، كقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) (٢)، ﴿وَيَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ إِنَّ هَذَا إِلَّا كِتَابٌ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ (٣) . (وكفى بنا حاسبين) يعني بذلك نفسه الكريمة، فكفى بها حاسباً، أي عالماً بأعمال العباد حافظاً لها، مثبتاً لها في الكتاب عالماً بمقاديرها ثوابها واستحقاقها، موصلاً للعمال جزاءها) (٤) اهـ.

(١) سورة الأنبياء : آية (٤٧) .

الخردل: نبات عشبي حريف من الفصيلة الصليبية ينبت في الحقول وعلى حواشي الطرق ، تستعمل بذوره في الطب، ومنه بذور يتبل بها الطعام. الواحدة خردلة. ويقال: ما عندي من كذا خردلة: شيء، ويضرب به المثل في الصغر، فيقال: ما عندي خردلة من كذا. المعجم الوسيط : ٢٢٥ / ١ .

والذرة: هي أصغر جزء في عنصر ما، يصح أن يدخل في التفاعلات الكيميائية. المعجم الوسيط ٣١٠ / ١ .

(٢) سورة الزلزلة : آية ٧-٨ - .

(٣) سورة الكهف : آية ٤٩ .

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : ج ٥ ص ٢٣٥ .

ورد في الحديث عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعاً:  
 "يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسع وتسعون  
 سجلاً، كل سجل منها مدّ البصر، ثم يقال: أتتكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي  
 الحافظون؟ فيقول: لا يا رب. فيقال: أفلك عذر أو حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول:  
 لا، فيقال: بلى، إنّ لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم اليوم، فيخرج له بطاقة مع هذه  
 السجلات فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة،  
 فطاشت السجلات وثقلت البطاقة<sup>(١)</sup>.

قال ابن كثير: (أي ونضع الموازين العدل ليوم القيامة، الأكثر على أنه إنما هو  
 ميزان واحد وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيها)<sup>(٢)</sup>.

لا ظلم لأحد من ربّ العالمين إنما هي أعمال العباد يوفيها لهم ثم يجازيهم بها  
 فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه، لا يغادر  
 شيئاً إلا أحصاه وجازى عليه .

(١) فتح المجيد ص ٥٨، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، والحديث رواه الترمذي (٢٦٤١)، في الإيمان، باب  
 في ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله وحسنه، وابن ماجه (٤٣٠٠) في الزهد، باب ما يرجى من  
 رحمة الله يوم القيامة، وأحمد في المسند ٢١٣/٤، والحاكم ١/٥٠٦، وصححه ووافقه الذهبي، وهو كما قال .

(٢) تفسير القرآن الكريم ج ٣، ص ٨٠ .

قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾<sup>(١)</sup>، وقال تعالى على لسانه عبده لقمان في وعظه لابنه: ﴿يَبْنِيْ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾<sup>(٢)</sup>، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾<sup>(٣)</sup>.

كل هذه الآيات تدل دلالة واضحة على عدل الله تعالى وتنزهه عن ظلم عباده، فلا حاجة له سبحانه في ذلك فهم الضعفاء إليه وهو القوي العزيز، هم الفقراء إليه وهو الغني الحميد. قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾<sup>(٤)</sup>.

فمن عدله تعالى أن جعل هناك ملائكة مع كل إنسان يكتبون الحسنات والسيئات ويوم القيامة يؤتى بهذه الصحف فأخذ كتابه بيمينه وأخذ كتابه بشماله وكل يقرأ كتابه وما قدّم في حياته الدنيا، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾<sup>(٥)</sup>.

(١) سورة الكهف: آية (٤٩).

(٢) سورة لقمان: آية (١٦).

(٣) سورة النساء: آية (٤٠).

(٤) سورة فاطر: آية (١٥).

(٥) سورة الإسراء: آية (١٣).

ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١).

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي : (و) إذا كانت القيامة (لو أن لكل نفس ظلمت) بالكفر والمعاصي - جميع (ما في الأرض) من ذهب وفضة وغيرها لتفتدي به من عذاب الله . (لافتدت به) ولما نفعها ذلك، وإنما النفع والضرب، والثواب والعقاب، على الأعمال الصالحة، و السيئة. (وأسرّوا) أي الذين ظلموا . (الندامة لما رأوا العذاب) ندموا على ما قدّموا، ولات حين مناص (وقضى بينهم بالقسط)، أي العدل التام، الذي لا ظلم ولا جور فيه بوجه من الوجوه) (٢) اهـ.

في هذه الآية الكريمة تنبيه من المولى عز وجل وتحذير لعباده الذين خلقهم - تعالى - جميعاً لطاعته وعبادته لا لشيء آخر ويبيّن لهم أنه لا ينفع أحداً يوم القيامة عند الله إلا عمله الصالح الذي تقدم به إلى الله في حياته الدنيا، أما غيره فيستحيل أن ينفعه بشيء .

قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : ولو أن لكل نفس كفرت بالله وظلمها في هذا الموضع عبادتها غير من يستحق عبادة وتركها طاعة من يجب عليها طاعته ما في الأرض من قليل أو كثير لافتدت به يقول لافتدت بذلك كله من عذاب الله إذا عاينته، وقوله : وأسروا الندامة لما رأوا العذاب يقول وأخفت رؤساء هؤلاء المشركين في وضعائهم وسفلتهم الندامة حين أبصروا عذاب الله قد أحاط بهم

(١) سورة يونس: آية (٥٤) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ج ٣، ص ٣٦٢ .

وأيقنوا أنه واقع بهم وقضي- بينهم بالقسط، يقول: وقضى- الله يومئذ بين الأتباع والرؤساء منهم بالعدل وهم لا يظلمون وذلك أنه لا يعاقب أحداً منهم إلا بجريته ولا يأخذه بذنب أحد ولا يعذب إلا من قد أعذر إليه في الدنيا وأنذر وتابع عليه بالحجج<sup>(١)</sup> اهـ.

قال تعالى : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (اختصمت الجنة والنار إلى ربهما، فقالت الجنة: يا رب ما لها لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟ وقالت النار: يعني أوثرت بالمتكبرين، فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي، وقال للنار: أنت عذابي، أصيب بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها، قال: فإن الله لا يظلم من خلقه أحداً، وأنه ينشيء للنار من يشاء فيلقون فيها فتقول: هل من مزيد ثلاثاً، حتى يضع فيها قدمه فتمتلئ، ويرد بعضها إلى بعض وتقول قط قط قط<sup>(٢)</sup>).

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (ليصين أقواماً سفع من النار بذنوب أصابوها عقوبة ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته، يقال لهم الجهنميون)<sup>(٣)</sup>.  
السفع: أثر تغيير البشرة فيبقى فيها بعض سواد<sup>(٤)</sup>.

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ج ١١، ص ١٢٣، مطبعة الحلبي بمصر- الطبعة الثالثة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب التوحيد ٢٥، حديث: ٧٤٤٩، وسيرد الحديث معنا والكلام عليه.

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب التوحيد ٢٥، حديث: ٧٤٥٠.

(٤) فتح الباري ج ١٣، ص ٤٢٧.



في هذين الحديثين يبيّن لنا المصطفى ﷺ أنه لا أنساب ولا أصحاب مكانة من رئاسة وغيرها ولا أصحاب ثروة، فالمعروف أن الضعفاء هم الأقرب إلى الحق والالتزام به، لذا فقد بيّن ﷺ المخاصمة التي حصلت بين الجنة والنار، وأن الجنة لا يدخلها إلا الضعفاء وسقطهم ولا يعني هذا أن الأغنياء وأصحاب السلطات والمكانات لا يدخلون الجنة بل يدخلونها إذا نزّهوا أنفسهم من الظلم بأنواعه ولكن المعروف أن ذلك قلة ويغلب عليهم في الدخول الصنف الأول لأن ما هم فيه من مكانات قد تطغى عليهم فيأخذهم الكبر - أعاذنا الله من ذلك - وهذا الصنف الذي أخذه الكبر لما له أو سلطانه فقد أوثرت به النار، وهذا منتهى العدل فجعل - سبحانه - الجنة رحمة، والنار عذابه للمخالفين الواقعين في الظلم في حياتهم الدنيا كما بيّن لنا ﷺ فضل الله ورحمته بمن يخرجهم سبحانه من النار بعد التمحيص وما أصابهم من سفح النار أثر ما أصابوا في الدنيا من ذنوب وماتوا ولم يتوبوا منها .

ويقول الله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١).

(١) سورة الرعد: آية (٦) .

إن من عميت بصيرتهم ضلوا الطريق واستهوتهم الشياطين ويحسبون أنهم على هدى مع أنهم في غوايتهم وفي غيهم يتمادون، وعن الصراط المستقيم ناكبون يطلبون تعجيل العقوبة لفرط إنكارهم وتكذيبهم ولكن من رحمة الله تعالى أنه لم يعجل العقوبة لهذه الأمة بخاصة فهو يؤخرهم لأجل مسمى ويتجاوز عن المشركين إذا آمنوا، وعن المذنبين إذا تابوا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) (١).

وأما من أصرّ على الكفر فالله شديد العقاب وهذا من عدله فلا مساواة بين المؤمن والكافر بل من عاش ومات على الإيمان فهو يجازيه بالجزاء الحسن يجازيه بجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وأما من عاش ومات على الكفر فالنار مثواه: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا لَاحِمًا مَغْسَقًا (٢٥) جَزَاءً وَفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا (٢٨)﴾ (٢).

(١) سورة الفرقان: آية (٦٧-٧٠).

(٢) سورة عم: آية (٢٤-٢٨).

يقول ابن كثير : عند قوله تعالى : (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم): (أي أنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار، ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرْدُ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٤٧) ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٦٧) ، وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (٥٠) (٣) (٤) اهـ.

قال صديق حسن خان : ((وإن ربك لذو مغفرة) أي لذو تجاوز عظيم والمراد به الإمهال وتأخير العذاب (للناس على) أي مع (ظلمهم) باقترافهم الذنوب ووقوعهم في المعاصي إن تابوا عن ذلك ورجعوا إلى الله سبحانه، و الجار والمجرور في محل نصب على الحال، أي حال كونهم ظالمين) (٥).

إذا تتبعنا كتب التفاسير وجدنا المعاني تدور على قطب واحد وهدف واحد هو بيان أن الله سبحانه وتعالى يترتب جزاؤه على العدل والإمهال للعباد لعلهم يرجعون عن غيهم وطغيانهم ويلتزمون بأوامر الله تبارك وتعالى مع أن من عميت بصيرتهم وحادوا عن الجادة واقترفوا الذنوب ووقعوا في المعاصي وظلموا أنفسهم بذلك يستعجلون بالعذاب عندما تُبين لهم رسلهم الحق وتأمروهم بالالتزام به

(١) سورة الأنعام : آية (١٤٧) .

(٢) سورة الأعراف : آية (١٦٧) .

(٣) سورة الحجر : آية (٤٩) .

(٤) تفسير القرآن العظيم : ج ٢ ، ص ٥٠١ .

(٥) فتح البيان في مقاصد القرآن ج ٥ ، ص ٣ .

وتنهاهم عن الظلم وتجاوز الحد في ذلك، فهم يقولون كما بين لنا القرآن الكريم:  
﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِّنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَتْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (١).

وهذا من شدة تكذيبهم وعنادهم وكفرهم .

أما علموا أن الله قد أهلك كثيراً من الأمم السالفة بسبب ظلمهم وأوقع بهم نعمته وجعلهم عبرة وعظة لمن يتعظ؟! أما يرون رحمته تعالى وعد له بأن آخرهم عن العذاب ولم يعجله لهم مثل ما حصل لمن سلف عسى أن يتوبوا ويرجعوا إلى الله فيبدل سيئاتهم حسنات؟!!

إن رحمته وعدله تظهر واضحة فيما غير آية من كتابه العزيز وسنة رسوله ﷺ ولكن أين الذين يعقلون الحق ويرونه وهو يظهر لهم واضحاً جلياً؟ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبهم أقفالها؟

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَرْخِوْنَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٢).

قال ابن كثير: (يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة. أي لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بني آدم، ولكن الرب جل جلاله يحلم ويستر وينظر إلى أجل مسمى، أي لا يعاجلهم بالعقوبة إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً) (٣).

(١) سورة الأنفال: آية (٣٢).

(٢) سورة النحل: آية (٦١).

(٣) تفسير القرآن العظيم ج ٢، ص ٥٧٣.

قال الألوسي البغدادي : (بظلمهم) أي بسبب كفرهم ومعاصيهم بناء على أن الظلم فعل ما لا ينبغي ووضعه في غير موضعه على الغير ويدخل فيه ما عدّ من القبائح وهذا تصريح بما أفاده قوله تعالى : (وهو العزيز الحكيم) وإذ أن بأنّ ما أتاه هؤلاء الكفرة من القبائح قد تناهى إلى أمد لا غاية وراءه، فلو يؤاخذهم ما ترك على الأرض المدلول عليها بالناس من دابة، وقال من دابة بناء على شهرة كون الديب في الأرض أي ما ترك عليها شيئاً من الدواب أصلاً بل أهلكها بالمرّة، أما الظالم فبظلمه وأما غيره فبشؤم ذلك فقد قال سبحانه : ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلِّمُوا أَنْتَ اللَّهُ شَكِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢٥) . (١) إلى أن قال : (أنه تعالى لو أخذهم بما كسبوا من كفر أو معصية لجعل هلاكهم جميعاً وبطل نسلهم لا يبقى أحد من الناس وحينئذ يهلك الدواب لأنها مخلوقة لمنافع العباد ومصالحهم كما يشعر به قوله تعالى : ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ (٢)(٣) اهـ.

قال محمود حجازي : (وهو الرحمن الرحيم واسع الكرم كثير الحلم حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ويعاقبهم على جرمهم فوراً ما ترك على ظهر الأرض من دابة ولكنه جلّ جلاله - ستار غفور رحيم، وهو يؤخرهم إلى أجل مسمى عنده فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، وعندئذ يأخذ المسيء جزاءه حتماً بلا تأخير ولا إمهال) (٤).

(١) سورة الأ، فال : آية (٢٥) .

(٢) سورة البقرة : آية (٢٩) .

(٣) روح المعاني : جزء ١٣ ، ص ١٧٠ بتصرف .

(٤) التفسير الواضح : ج ١٣ ، ص ٤٩ . ولو استبدل المفسر كلمة ستار "بستير" كان أولى وأصح .

إن من حكمة الله وعدله أن جعل الأعمار غير معروف أجلها للناس فلا أحد يعرف متى يكون أجله لأنه لو كان ذلك لا استعداد كل عبد عندما يقرب الأجل وقدم التوبة وعمل صالحاً، ولكنه جل وعلا استأثر بذلك في علمه، وأنذر عباده عقابه وخوفهم من النار، ودعاهم إلى الجنة وسهل طريقها وجعل سبحانه الأجل محدود فلا يزداد فيه ولا ينقص كما بين ذلك في غير ما موضع من القرآن العظيم ، فقال تعالى : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ <sup>(١)</sup> . كما أن من عدله أن بين في كتابه أن من كذب بآياته واستكبر عنها فإن مأواه النار، ومن آمن وعمل صالحاً فإن مصيره إلى الجنة كما بين ذلك تعالى فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا نُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ <sup>(٢)</sup> هُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ <sup>(٣)</sup> وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ <sup>(٤)</sup> وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ فَجَرى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدانا لهذا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِى لَوْلَا أَنَّ هَدانا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى ارْتَبْتُمْوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ <sup>(٥)</sup>﴾ <sup>(٦)</sup> .

(١) سورة الأعراف: آية (٣٤) .

(٢) سورة الأعراف: آية (٤٠-٤٣) .

## المبحث الرابع

**عفو الله عن المستضعفين والتائبين بقبول توبتهم**

## المبحث الرابع

### عفو الله عن المستضعفين والتائبين بقبول توبتهم

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٩٧ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝٩٨ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٩٩ ﴾ (١) .

بين المولى عز وجل حال من يقبض ملك الموت أرواحهم وهم ظالموا أنفسهم ببقائهم بين ظهراني المشركين وسؤالهم سؤال تقرير وتوبيخ على فعلتهم تلك، واعتذارهم الذي لا يجدي ولا يغني عنهم من الله شيئا ومن عذاب الله لقاء فعلتهم تلك إلا من قد استثنى المولى عز وجل وهذا من لطف الله تعالى ورحمته بالمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين ليس لهم قدرة واستطاعة على الهجرة من بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام فهذا الصنف عفى عنهم من يعلم السر وأخفى ذو العفو والمغفرة الواسعتين .

يقول القرطبي : (المراد بالملائكة ملك الموت لقوله تعالى : (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّلَ بكم) و(ظالمي أنفسهم) أي في حال ظلمهم أنفسهم، كما قال تعالى : (هدياً بالغ الكعبة) . وقول الملائكة : (فيم كنتم) سؤال تقرير وتوبيخ

(١) سورة النساء : آية (٩٧-٩٩) .



أي أكنتم في أصحاب النبي ﷺ أم كنتم مشركين ! وقول هؤلاء : (كنا مستضعفين في الأرض) يعني مكة، اعتذار غير صحيح، إذ كانوا يستطيعون الحيل ويهتدون السبيل، ثم وقفهم الملائكة على دينهم بقولهم : (ألم تكن أرض الله واسعة) ويفيد هذا السؤال أنهم ماتوا مسلمين ظالمي أنفسهم في تركهم الهجرة، وإلا فلو ماتوا كافرين لم يقل لهم شيء من هذا، وإنما أضرب عن ذكرهم في الصحابة لشدة ما واقعوه، ولعدم تعين أحدهم بالإيمان، واحتمال رده. والله أعلم<sup>(١)</sup>.

إن الرحمة من صفته عز وجل قال تعالى : ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلْ لِلَّهِ كُنْزٌ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾<sup>(٢)</sup>.

قال الألوسي : (جملة مستقلة داخلية تحت الأمر صادحة بشمول رحمته عز وجل لجميع الخلق إثر بيان شمول ملكه وقدرته سبحانه وتعالى للكل المصحح لإنزال العقوبة بالمكذبين مسوقة لبيان أنه تعالى رؤوف بالعباد لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم التوبة)<sup>(٣)</sup>.

فالله رؤوف بعباده غفار للذنوب رحيم بهم، فهو سبحانه يصفح عن عقوبتهم عليها، ويتفضل عليهم بنعمه مع مخالفتهم أمره ونهيه، وركوبهم معاصيه.

(١) الجامع لأحكام القرآن : ج ٥ ص ٣٤٥ .

(٢) سورة الأنعام: آية (١٢) .

(٣) روح المعاني : ج ٧، ص ١٠٤ .

ففي الآيتين الأخيرتين من الآيات التي معنا هنا تتجلى الرحمة الربانية والعدل الإلهي الذي لا يساويه عدل فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، لا تخفى عليه خافية، فقد تاب وعفى عن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان بعجزهم عن الهجرة، للضعف أو عدم الخلاص من المشركين أو عدم الاهتداء إلى الطريق، فهم لم يتركوا الهجرة اختياراً بل لسبب من الأسباب ، علم الله ذلك، فاستثناهم من المستطيعين للهجرة ولم يهاجروا بل رضوا بمجاورة الكفرة الموجبة للإخلال بأمور الدين، وإن كانوا قد أسلموا، ويبيّن الله تعالى أن جزاءهم في الآخرة جهنم لبقائهم بين ظهراي المشركين ولم يسعهم ما وسع بقية المسلمين الذين هاجروا فارين بدينهم إلى الحبشة ثم إلى المدينة ولم تن عزائمهم ولم يمنعهم المال ولا الولد ولا الزوجات بل آثروا دين الله تعالى وطمعوا في ما عنده مما أعدّه لعباده الطائعين . ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢٢)

وجاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال : (كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض فدلّ على راهب فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة فقال لا فقتله فكمّل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدلّ على رجل عالم فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا انتصف الطريق أتاه الموت فاختمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاءنا تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيراً قط فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم فقال:

قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى له ففاسوه فوجوده أدنى إلى الأرض التي قبضته ملائكة الرحمة). قال قتادة: فقال الحسن ذكر لنا أنه لما أتاه الموت ناء بصدره<sup>(١)</sup>.

ذكر النووي في شرحه لهذا الحديث عند لفظ: (انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن فيها أناساً يعبدون الله فاعبد معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء) قال العلماء في هذا استحباب مفارقة التائب المواضع التي أصاب بها الذنوب والأخذان المساعدين له على ذلك ومقاطعتهم ما داموا على حالهم وأن يستبدل بهم صحبة أهل الخير والصلاح والعلماء والمتعبدين الورعين ومن يقتدي بهم وينتفع بصحبتهم وتتأكد بذلك توبته<sup>(٢)</sup>.

ومن آثار رحمة الله جلّ شأنه وعظم سلطانه ما جاء في الحديث عن صفوان بن محرز قال: قال رجل لابن عمر كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى قال سمعته يقول يدني المؤمن يوم القيامة من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول هل تعرف فيقول أي رب أعرف قال فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى صحيفة حسناته، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله<sup>(٣)</sup>.

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة حديث رقم ٢٧٦٦، والبخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء ٥٤، وابن ماجه، كتاب الديات ٢، وأحمد في المسند ٣/٢٠، ٤٤.

(٢) النووي على صحيح مسلم، جزء ١٧، ص ٨٣.

(٣) مسلم في صحيحه كتاب التوبة، حديث رقم ٢٧٦٩.

نعم ما أرحم الله بعباده وما أعدلّه عندما يوفّي كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون.

ولكن لا يغترّ أحد من الناس من كونه يقول لا إله إلا الله، وليفهم أن المنافقين كانوا كذلك يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويصلون ويزكون ويصومون رمضان ويحجون بيت الله الحرام ويقاتلون مع رسول الله ﷺ ومصدق ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (١)، هذا إقرار منهم ظاهر وباطنهم بضد ذلك. وجاء ذلك في مواضع كثيرة في القرآن وفي السنة المطهرة .

فلا بد للمؤمن الذي يؤمن بلقاء الله وبالجنة والنار والذي يرجو الله أن يجعله ممن يدينهم يوم القيامة أن يلتزم بأوامر الله قولاً وعملاً قلباً وقالباً، فإن الإيمان لا بد أن يكون قولاً باللسان وإيماناً بالجنان وعملاً بالأركان، وإن مما عمّت به البلوى في هذا الزمان هو الاقتصار على النطق فقط بأعمال الخير دون فهم للمقصود أو من الفهم ولكن يحصل التقصير في العمل إضافة إلى مخالفة أوامر الله جل وعلا وأوامر رسوله ﷺ والبعد كل البعد عما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه والتابعون والسلف الصالح، وارتكاب ما أحدث في هذا الزمان من المنكرات التي غرانا بها أعداء الإسلام ولكن لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإن الله وإنا إليه راجعون، ونسأل الله تعالى بفضله ومنّه وكرمه وجوده أن يرد المسلمين إليه مرداً جميلاً، وأن يلزمهم كلمة التقوى، ويوحّد صفوفهم، وينصرهم على أعدائهم أعداء الإسلام والمسلمين .

(١) سورة المنافقين: آية (١) .

يقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (١١٠) (١).

كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، ليس في هذه غرابة فهو بشر- يجوز عليه الخطأ والنسيان ولكن المولى عز وجل جعل التوبة والاستغفار ماحية لذلك لأن العبد يعرف أن له رباً يغفر الذنوب ويقل العثرات ويمحو السيئات .

فمن رحمته بعباده أن جعل التوبة تحب ما قبلها، وهو سبحانه ليس له حاجة في عذاب أحد من عباده فهم فقراء إليه وهو الغني الحميد وأن من أرجى الأوقات بقبول التوبة ثلث الليل الآخر حيث يكون ربنا تبارك وتعالى قريباً من عباده كما جاء في حديث النزول الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له) (٢).

أين يكون العباد في هذه الساعة وأين هم من هذه الفرصة الغالية، في مناجاة ربّ الأرباب غافر الزلات وقاضي الحاجات ؟ لا يضيع هذه الفرصة إلا من خسر- عظيم العطايا، وفرط في زمن فيه تنزل الرحمة بالعفو والانفكاك من الذنوب والخطايا .

(١) سورة النساء : آية (١١٠) .

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب التهجد ١٤ ، ومسلم في صحيحه كتاب المسافرين ١٦٨ - ١٧٠ ، وأبو داود كتاب السنة ١٩ ، والترمذي كتاب الصلاة ٢١١ ، وابن ماجه كتاب الإقامة ١٨٢ ، والدارمي كتاب الصلاة ١٦٨ ، والموطأ كتاب القرآن ، ٣٠ ، وأحمد في المسند ٢ / ٢٦٤ .

يقول سيد قطب : (إنه - سبحانه - موجود للمغفرة والرحمة حيثما قصده مستغفر ينيب... والذي يعمل السوء يظلم غيره، ويظلم نفسه، وقد يظلم نفسه وحدها إذا عمل السيئة التي لا تتعدى شخصه... وعلى آية حال فالغفور الرحيم يستقبل المستغفرين في كل حين ، ويغفر لهم ويرحمهم متى جاءوه تائبين. هكذا بلا قيد ولا شرط ولا حجاب ولا بواب، حيثما جاءوا تائبين مستغفرين وجدوا الله غفوراً رحيماً) (١).

إن ما جاء في السنة المطهرة ما يعرفنا برحمة الله بعباده وما يوده لهم من الخير وطريقه. فيروى لنا الإمام البخاري رحمه الله تعالى من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه حديثين أحدهما عن النبي ﷺ والآخر عن نفسه قال : (إن المؤمن من يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وأن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه فقال به هكذا قال أبو شهاب بيده فوق أنفه ثم قال: لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهب راحلته حتى اشتدّ عليه الحرّ والعطش أو ما شاء الله، قال أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده) (٢).

(١) في ظلال القرآن : ج ٥، ص ٧٥٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الدعوات حديث رقم ٦٣٠٨، ومسلم في صحيحه كتاب التوبة ١-٨، والترمذي كتاب القيامة ٤٩، وكتاب الدعومات ٩٨، وابن ماجه كتاب الزهد ٣٠، والدارمي كتاب الرقاق ١٩، وأحمد في المسند ١/٣٨٣.

والحديث الأول هو الموقوف على ابن مسعود، والثاني مرفوع إلى النبي ﷺ.

قال الحافظ ابن حجر : (قال المحب الطبري: "إنما كانت صفة المؤمن لشدة خوفه من الله ومن عقوبته لأنه على يقين من الذنب وليس على يقين من المغفرة، والفاجر قليل المعرفة بالله فلذلك قلَّ خوفه واستهان بالمعصية"، وقال ابن أبي جمرة: السبب في ذلك أن قلب الفاجر مظلم فوقع الذنب خفيف عنده، ولهذا تجد من يقع في المعصية إذا وعظ يقول هذا سهل، قال: ويستفاد من الحديث أن قلة خوف المؤمن من ذنوبه وخفته عليه يدل على فجوره، قال: والحكمة في تشبيه ذنوب الفاجر بالذباب كون الذباب أخف الطير وأحقره، وهو مما يعاين ويدفع بأقل الأشياء، حتى قال: وفي الحديث ضرب المثل بما يمكن، وإرشاد إلى الحُصّ على محاسبة النفس واعتبار العلامات الدالة على بقاء نعمة الإيمان، وفيه أن الفجور أمر قلبي كالإيمان، وفيه دلائل لأهل السنة لأنهم لا يكفرون بالذنوب ورد على الخوارج وغيرهم ممن يكفر بالذنوب). وقال ابن بطال: يؤخذ منه أنه ينبغي أن يكون المؤمن عظيم الخوف من الله تعالى من كل ذنب صغيراً كان أو كبيراً؛ لأن الله تعالى قد يعذب على القليل فإنه لا يسأل عما يفعل سبحانه وتعالى . وقال القرطبي في (المفهم): هذا مثل قصد به بيان سرعة قبول الله توبة عبده التائب وأنه يقبل عليه بمغفرته ويعامل معاملة من يفرح بعمله، ووجه هذا المثل أن العاصي حصل بسبب معصيته في قبضة الشيطان وأسره وقد أشرف على الهلاك، فإذا لطف به، ووقفه للتوبة خرج من شؤم تلك المعصية، وتخلص من أسر الشيطان ومن المهلكة التي أشرف عليها فأقبل الله عليه بمغفرته ورحمته (١) اهـ.

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ١١، كتاب الدعوات ص ١٠٥ - ١٠٦ .

بعد أن ذكرنا بعض الأقوال على هذا الحديث فإن ما يظهر لنا واضحاً جلياً هو أثر رحمة الله تعالى بعباده، فهو أشدّ فرحاً بتوبة عبده إذا تاب وأناب وأقلع عن المعاصي فهو يتوب على من تاب ويفرح سبحانه بذلك .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : قال رجل لم يعمل حسنة قط لأهله إذا مات فحرقوه ثم ذرّوا نصفه في البر ونصفه في البحر فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبته عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم فأمر الله البر فجمع ما فيه ، وأمر البحر فجمع ما فيه، ثم قال: لم فعلت هذا قال من خشيتك يا ربّ وأنت أعلم فغفر الله له <sup>(١)</sup>.

فسبحان علام الغيوب ، ستار العيوب، غفار الذنوب، يعلم ما يكون في القلوب، فلقد علم سبحانه صدق مقالة عبده في أن يعمل به ما عمل خوفاً من الله وعلمه بشديد عذابه وأليم عقابه، ولكن رحمة المولى سبقت غضبه فغفر لعبده على ما كان منه من سوء الأعمال وعدم فعل الخيرات حتى أتاه الممات، فالمؤمن لا ييأس من رحمة الله الواسعة.

وعن عبدالرحمن بن أبي عمرة قال : (سمعت النبي ﷺ قال : "إن عبداً أصاب ذنباً وربما قال أذنب ذنباً فقال : ربّ أذنبت ذنباً وربما قال أصبت ذنباً،

(١) رواه مسلم في صحيح كتاب التوبة ٢٥، والبخاري في صحيحه كتاب الأنبياء ٥٤، والترمذي فضائل الجهاد ١٤، النسائي: جنائز ١١٧، وابن ماجه: زهد ٣٠، وأحمد: ٣٢٣/٢.



فقال ربّه أعلم أن له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنباً أو أذنب ذنباً فقال: ربّ أذنبت أو أصبت آخر فاغفر، فقال: أعلم عبدي أن له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً وربما قال أصاب ذنباً فقال: ربّ أذنبت أو أصبت آخر فاغفر لي فقال اعلم عبدي أن له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي ثلاثاً فليعمل ما شاء<sup>(١)</sup>.

قال ابن حجر : (قال القرطبي في المفهم: يدل هذا الحديث على عظيم فائدة الاستغفار وعلى عظيم فضل الله وسعة رحمته وحلمه وكرمه، لكن هذا الاستغفار هو الذي ثبت معناه في القلب مقارناً للسان لينحل به عقد الإصرار ويحصل معه الندم فهو ترجمة للتوبة، ويشهد له حديث : (خياركم كل مفتن تواب)، ومعناه الذي يتكرر منه الذنب والتوبة فكلما وقع في الذنب عاد إلى التوبة، لا من قال استغفر الله بلسانه وقلبه مصرّ - على تلك المعصية فهذا الذي استغفاره يحتاج إلى الاستغفار ، ويشهد له حديث ابن عباس مرفوعاً : التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وقوله : "اعمل ما شئت" معناه ما دمت تذنّب فتتوب غفرت لك<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب التوحيد ٣٥ حديث رقم ٧٥٠٧ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ١٣ ، ص ٤٧١ .

ويقول الله تعالى: (١). ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ .

هذه الآية الكريمة توضح لنا آثار رحمة الله بعبده يونس بن متى حيث سمع نداءه بالدعاء لخالقه ومولاه الله عز وجل حين التقمه الحوت، فنجاه وأخرجه من بطن الحوت لم يكسر له عظماً ولم يחדش له لحماً، وهكذا تكون آثار رحمة الله تعالى التي عم بها جميع المؤمنين من خلقه فينجيهم من كل كرب ومن كل غم ولم تكن خاصة بالرسول عليهم السلام بل رحمته قريبة من المؤمنين إذا أخلصوا وتابعوا.

وقد ذكر بعض المفسرين من قصص ذي النون - يونس بن متى - أموراً لا تليق بنبي من الأنبياء عليهم السلام من كونه تعمّد الوقوع في معصية الله تعالى وأفضل ما رأيت مما قيل في معنى هذه الآية ما ذكره القاسمي ورجحه من كلام ابن حزم (بعد أن حكى مذهب الكرامية قال: وذهب أهل السنة والمعتزلة والنّجارية والخوارج والشيعة أنه لا يجوز البتّة أن يقع من نبي معصية بعمد صغيرة ولا كبيرة) . ثم قال ابن حزم: (وهذا القول الذي ندين الله به ولا يحل لأحد أن يدين بسواه. ونقول أنه يقع من الأنبياء السهو عن غير قصد، ويقع منهم قصد الشيء يريدون به وجه الله تعالى والتقرب به منه فيوافق خلاف مراد الله تعالى . إلا أنه تعالى لا يقرهم على شيء من هذين الوجهين أصلاً، بل ينبههم على ذلك ولا بد،

(١) سورة الأنبياء: آية (٨٧-٨٨) .

أثر وقوعه منهم، وربما يبغض المكروه في الدنيا كالذي أصاب آدم ويونس والأنبياء عليهم السلام، بخلافنا في هذا فإننا غير مؤاخذين بما سهونا فيه ولا بما قصدنا به وجه الله عز وجل فلم يصادف مراده تعالى . بل نحن مأجورون على هذا الوجه أجراً واحداً) ثم قال في الكلام على يونس عليه السلام : (وأما إخبار الله أن يونس ذهب مغاضباً فلم يغضب ربه قط، ولا قال الله تعالى أنه غاضب ربه. فمن زاد هذه الزيادة كان قائلاً على الله الكذب، وزائداً في القرآن ما ليس فيه، هذا لا محل ولا يجوز أن يظن بمن له أدنى مسكة من عقل أنه يغضب ربه تعالى، فكيف أن يفعل ذلك نبي من الأنبياء؟ فعلمنا يقينا أنه إنما غاضب قومه ولم يوافق ذلك مراد الله عز وجل فعوقب بذلك. وإن كان يونس عليه السلام لم يقصد بذلك إلا رضا الله عز وجل .

وأما قوله تعالى : ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ فليس على ما ظنوه من الظن السخيف الذي لا يجوز أن يظن بضعيفه من النساء أو بضعيف من الرجال إلا أن يكون قد بلغ الغاية من الجهل، فكيف بنبي مفضل على الناس في العلم؟ ومن المحال المتيقن أن يكون بنبي يظن أن الله تعالى الذي أرسله بدينه لا يقدر عليه، وهو يرى أن آدمياً مثله يقدر عليه، ولا شك في أن من نسب هذا للنبي ﷺ الفاضل فإنه يشتد غضبه لو نسب ذلك إليه أو إلى ابنه. فكيف إلى يونس بن متى الذي يقول فيه رسول الله ﷺ : (لا تفضلوني على يونس بن متى) <sup>(١)</sup> . فقد بطل ظنهم

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأنبياء حديث رقم ٢٤١٢، ٣٤١٣، وكتاب التفسير حديث رقم ٤٦٠٣، ٤٦٠٤، ٤٨٠٤، ٤٨٠٥ .

ولاشك، وصح أن معنى قوله : (فظن أن لن نقدر عليه) أي أن لن نُضَيِّقَ عليه في مغاضبته لقومه، إذ ظنَّ أنه محسن في فعله ذلك، وإنما نهى الله عز وجل محمداً ﷺ عن أن يكون كصاحب الحوت، فنعم نهاه الله عز وجل عند مغاضبة قومه، وأمره بالصبر على أذاهم وبالمطاوله لهم. وأما قوله تعالى : أنه استحق الذم والملامة، لولا النعمة التي تداركه بها، للبت معاقباً في بطن الحوت، فهذا نفس ما قلناه من أن الأنبياء - عليهم السلام - يؤاخذون في الدنيا على ما فعلوه مما يظنونهم خيراً وقربة إلى الله عز وجل، إذا لم يوافق مراد ربهم، وعلى هذا الوجه أقر على نفسه بأنه كان من الظالمين، والظلم وضع الشيء في غير محله فلما وضع النبي ﷺ المغاضبة في غير موضعها اعترف في ذلك بالظلم<sup>(١)</sup>.

والذي نحن بصدده هو بيان سعة رحمة الله عز وجل بعباده إذا هم التجؤوا إليه واعترفوا بتقصيرهم في حقه تعالى. تبين لنا ما كان من أمر يونس بن متى عليه السلام وما حصل له، ترى ما حصل بعد ذلك أي بعدما ابتلعه الحوت ونزل به في قاع البحر .

لقد لجأ إلى ربه ومولاه وناداه بالنداء الذي أبانه الله لنا في محكم التنزيل ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ فسبحان سامع الصوت وكاسي العظام لحماً بعد الموت لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية يسمع ديبب النملة على الصفاة الملساء في الليلة الظلماء، لقد سمع استغاثة عبده - وأنجاه من

(١) محاسن التأويل: المجلد السابع، الجزء ١١، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

الغم وما هو فيه من الكرب العظيم، نعم ما أعظمه من كرب، وما أكبرها من مصيبة وأشقها على العباد، وما أهونها وأبسطها على الخالق العظيم الذي لا إله غيره، والذي أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون أنه لو غرق إنسان في البحر لوجدنا الناس يجمعون قواهم ومعداتهم ويجددون في البحث ويذهبون يمناً ويسرة وأسفل وأعلى ويرسلون غواصاتهم وخطاطيفهم فقد يحصلون على ذلك بتوفيق الله وقد لا يحصلون على ذلك ولا يعرفون مصيره. وهذا دلالة على عجز الإنسان وقوة الخالق العظيم .

كيف بمن كان في بطن الحوت وفي قاع البحر وفي تلك الظلم العظيمة ثم في لحظة من اللحظات إذا هو قد أنقذ ورجع على ما كان عليه من الصحة والسلامة، إنها القدرة الإلهية، إنه الله الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾<sup>(١)</sup>، استجاب لنبيه فأنقذه مما هو فيه ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ :  
وفي شعر أمية بن أبي الصلت<sup>(٢)</sup> :

وأنت بفضل منك نجيت يونساً      وقد بات في أضعاف حوت لياليا

(١) سورة يس : آية (٨٢) .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، سورة الصافات ، آية (١٤٤) ص ٢١ .

كذا العدل الرباني الذي يظهر واضحاً جلياً مقترناً برحمته بجميع عباده المؤمنين الذين يؤمنون به في الرخاء والشدة، يؤمنون به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره .

(وكذلك ننجي المؤمنين) أي إذا كانوا في غموم وأخلصوا في أدعيتهم منيبين لاسيما بهذا الدعاء، فهو يسمع دعاءهم ويقضي حاجاتهم، ويتوب عليهم، ويغفر زلاتهم، رؤوف رحيم عدل لا يظلم أحداً ولا يرضاه من أحد على أحد، جل وعلا وتنزه وتقدس .

## المبحث الخامس

القضاء بين العباد بحضور رسلهم  
وكتب أعمالهم والحفظة عليهم من الملائكة

## المبحث الخامس:

### القضاء بين العباد بحضور رسالهم وكتب أعمالهم

#### والحفظت عليهم من الملائكة

يقول الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٤٧) (١).

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى: (فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها وكتاب أعمالها من خير وشر موضوع شاهد عليهم وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً أمة بعد أمة، وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم ويقضى لهم كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: "نحن الأولون السابقون يوم القيامة المقضى لهم قبل الخلائق" (٢) فأتمته إنها حازت قصب السبق بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم القيامة) (٣) اهـ.

---

(١) سورة يونس: آية (٤٧).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء ٦٨، والجمعة ١، ١٢، والأنبياء ٥٤، والأيمان ١، والدييات ١٥، والتعبير ٤٠، والتوحيد ٣٥، ومسلم في الجمعة ١٩، ٢١، والنسائي: الجمعة ١، والدارمي: مقدمة ٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم ج ٢، ص ٤١٩.



فالله جل وعلا يقضي في الآخرة بين خلقه بالعدل وهم لا يظلمون من جزاء أعمالهم شيئاً فهو يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فإن كان هناك مسيء من أهل الإيمان فهو تحت مشيئة الرب، وأما الكفرة الظلمة المشركون فهم الذين يخلدون في نار جهنم لا يذوقون الموت كلما نصجت جلودهم بدّلوا جلوداً غيرها ليدوقوا العذاب جزاءً وفاقاً . فأهل الجنة دخلوها برحمة الله وفضله، وأهل النار دخلوها بعدل الله تعالى، ولم يكن تعالى ظالماً لأحد .

قال الشيخ عبد المجيد الشاذلي : (والظلم الذي حرّمه الله على نفسه مثل أن يترك حسنات المحسن فلا يجزيه بها، ويعاقب البريء على ما يفعله من السيئات، ويعاقب هذا بذنب غيره أو يحكم بين الناس بغير القسط ونحو ذلك من الأفعال التي ينزه الرب عنها لقسطه وعدله وهو قادر عليها، إنما يستحق الحمد والثناء لأنه يترك هذا الظلم وهو قادر عليه، كما أن الله منزّه عن صفات النقص والعيب فهو أيضاً منزّه عن أفعال النقص والعيب)<sup>(١)</sup>. وأوضح تعالى معنى هذه الآية في سورة الزمر بقوله تعالى : ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾<sup>(٢)</sup> وَوُفِّتَ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾<sup>(٢)</sup>.

فمن رحمة الله وعدله وتنزهه عن الظلم جل وعلا الإشهاد على الناس يوم الحشر يوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويأتي بالرسل يسألهم عما أجيئوا من أمهم ويشهد عليهم .

(١) حد الإسلام وحقيقة الإيمان: ص ١١٩ .

(٢) سورة الزمر: آية (٦٨-٧٠) .

قال الشيخ الشنقيطي : (وقيل الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله وأظهر الأقوال في الآية عندي أن الشهداء هم الرسل من البشر، الذين أرسلوا إلى أممهم؛ لأنه لا يقضى بين الأمم حتى يأتي رسولها كما صرح تعالى في سورة يونس في قوله : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٤٧) ﴿فَصَرَاحٌ جَلٌّ وَعَلَا بَأْتُهُ يَسْأَلُ عَمَّا أَجَابَتْهُمْ بِهِ أُمَمُهُمْ، كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ (١) وقال تعالى ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢)، وقد يشير إلى ذلك قوله تعالى (٣) : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (٤١) ، لأنه كونه ﷺ هو الشهيد على هؤلاء الذين هم أمته، يدل على أن الشهيد على كل أمة هو رسولها) (٤).

إنه العدل منه جل وعلا، مع أنه لا يسأل عما يعمل والخلق هم الذين يسألون فهو يرسل الرسل ويقرر على العباد حسناتهم وسيئاتهم ويشهد على ذلك ويقول تعالى : ﴿وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢١) ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٢) (٥).

(١) سورة المائدة : آية (١٠٩).

(٢) سورة الأعراف : آية (٦).

(٣) سورة النساء : آية (٤١).

(٤) أضواء البيان : ج ٧، ص ٦٢.

(٥) تفسير فصلت ، آية (٢١-٢٢).

من هنا ظهرت البينات وتنزه رب الأرض والسموات عن ظلم عباده حيث قرر عليهم وأثبت ما كانوا يعملون في دنياهم من خير أو شر، وأكبر إثبات وأبلغ حجة إرسال الرسل التي أرسلت إليهم.

وقال الفخر الرازي: في المسألة الثالثة من المسائل التي ذكرها عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

والمراد من الآية أحد أمرين، إما بيان أن الرسول إذا بعث إلى كل أمة فإنه بالتبليغ وإقامة الحجة يزيح كل علة فلا يبقى لهم عذر في مخالفته أو تكذيبه، فيدل ذلك على أن ما يجري عليهم من العذاب في الآخرة يكون عدلاً ولا يكون ظلماً، لأنهم من قبل أنفسهم وقعوا في ذلك العقاب. أو يكون المراد أن المراد أن القوم إذا اجتمعوا في الآخرة جمع الله بينهم وبين رسولهم في وقت المحاسبة، وبان الفضل بين المطيع والعاصي يشهد عليهم بما شاهد منهم، وليقع منهم الاعتراف بأنه بلغ رسالات ربه، فيكون ذلك من جملة ما يؤكد الله به الزجر في الدنيا كالمساءلة، وإنطاق الجوارح، والشهادة عليهم بأعمالهم والموازين وغيرها، وتمام التقرير على هذا الوجه الثاني أنه تعالى ذكر في الآية الأولى أن الله شهيد عليهم، فكأنه تعالى يقول: أنا شهيد على أعمالهم يوم القيامة، ومع ذلك فلاني أحضر- في موقع يوم القيامة مع كل قوم رسولهم حتى يشهد عليهم بتلك الأعمال، والمراد منه المبالغة في إظهار الحق<sup>(١)</sup> اهـ.

(١) تفسير الفخر الرازي: المجلد التاسع جزء ١٧ .

بعد هذا كله نخرج بفائدة جليلة وبلاغ عظيم وهو أن الله تبارك وتعالى عندما خلق الخلق وكلفهم بعبادته لم يتركهم سدى بل أرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين وجعل مع كل مخلوق ملائكة يكتبون أعماله إن خير فخير وإن شراً فشر.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كُنِينًا ۝١١ يِعْمُونَ مَا تَعْمَلُونَ ۝١٢ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ۝١٥﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۝١٦٤ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٦٥﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ۝١٣ أَقْرَأْ كُنْتُكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ (٣).

ما كان الله تعالى ليذر عباده هملاً ولا ليتركهم سدى بل ضبطهم سبحانه وتعالى في حياتهم الدنيا وأعد لكل نزلًا يوم القيامة ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (٤).

(١) تفسير الانفطار: آية (١٥-١٠).

(٢) سورة الإسراء: آية (١٦٤-١٦٥).

(٣) سورة الإسراء: آية (١٣-١٤).

(٤) سورة المدثر: آية (٣٨).

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ يَمِينُهُ ۖ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٧١) (١).

وقد قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٤٧) (٢). وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (٤١) (٣)، وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾ (٤)، وقال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ (٥) الآية.

وقيل المراد بالإمام "الكتاب" واستدل على هذا بقوله تعالى ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ (١٢) (٦)، وقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٨) (٧) وقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَىٰ الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ (٨)، وقوله: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (١٣) (٩).

(١) سورة الإسراء: آية (٧١).

(٢) سورة يونس: آية (٤٧).

(٣) سورة النساء: آية (٤١).

(٤) سورة النحل: آية (٨٩).

(٥) سورة الزمر: آية (٦٩).

(٦) سورة يس: آية (١٢).

(٧) سورة الجاثية: آية (٢٨).

(٨) سورة الكهف: آية (٤٩).

(٩) سورة الإسراء: آية (١٣).

قال الشنقيطي بعد ذكر الآيات في الاستدلال على الإمام وهي سالفه الذكر: (واختار ابن كثير أن الإمام هو كتاب الأعمال دلالة آية (يس) وهذا القول رواية عن ابن عباس ذكرها ابن جرير وغيره، وعزاه ابن كثير لابن عباس وأبي العالية والضحاك والحسن، وعن قتادة ومجاهد أن المراد "بإمامهم" نبيهم.... وقال بعض أهل العلم "إمامهم" أي بكتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع. وممن قال به: ابن زيد، واختاره ابن جرير، وقال بعض أهل العلم: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ﴾ أي ندعو كل قوم بمن يأتون به. فأهل الإيمان أئمتهم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وأهل الكفر أئمتهم سادتهم وكبرائهم من رؤساء الكفرة كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ﴾ الآية وهذا الأخير أظهر الأقوال عندي، والعلم عند الله) <sup>(١)</sup> اهـ.

والذي أراه والله أعلم أن المراد بالإمام هو النبي ويؤيد هذا حديث حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقضى البارحة؟ قلت: أنا، ثم قلت: أما أنا لم أكن في صلاة ولكن لدغت، قال: فماذا صنعت؟ قلت استرقيت <sup>(٢)</sup>، قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي، قال: ما حدثكم الشعبي؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن حصيب الأسلمي

(١) أضواء البيان : ج ٣، ص ٦١٦ .

(٢) استرقيت: أي طلبت الرقية، وهي مداواة المريض بالنفث بنحو قراءة قرآن أو أدعية مأثورة عن النبي ﷺ

أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حمة <sup>(١)</sup> فقال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: عرضت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهيط <sup>(٢)</sup>، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقيل: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: ما الذي تخوضون فيه؟ فقال: هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون، فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال أنت منهم، ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال سبقك بها عكاشة <sup>(٣)</sup>.

فالشاهد من هذا الحديث هو عرض الأمم يقدمهم أنبياءهم.

(١) حمة: بضم المهملة وتخفيف الميم، وهي سمّ العقرب وشبهها.

(٢) الرهيط: تصغير (الرهط) وهي الجماعة دون العشرة.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، حديث رقم ٢٢٠، والبخاري في صحيحه كتاب الطب حديث رقم ٥٧٥٢، ورواه الترمذي في صفة القيامة حديث رقم ٢٤٤٨.

ومن هنا نرى عدل المولى عز وجل في بعث الناس ومحاسبتهم على ما عملوا في حياتهم الدنيا فأخذ كتابه بيمينه كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابَهُ ۖ﴾ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٣﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ۖ فَقُولُ يَلَيِّنُنِي لَمْ أُوْتِ كِتَابَهُ ﴿٢٤﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَّةٍ ﴿٢٥﴾ يَلَيِّنُهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ ﴿٢٧﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٨﴾ خَذُوهُ فَعِلُوهُ ﴿٢٩﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣١﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٢﴾ وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٣﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِن غِسْلِينٍ ﴿٣٥﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٦﴾ .

فلا يظلم الله أحداً شيئاً، بل كل يوفى عمله ويجازى على ذلك إن خيراً خيراً، وإن شراً فشر .

فالله لا يظلم الناس مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (١) .

قال البغوي : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وقال قوم : هذا في الخصوم، وروى عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: (إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد ألا من كان يطلب مظلمة فليجيء إلى حقه فليأخذ فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته أو أخيه فليأخذ منه وإن كان صغيراً، ومصدق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١٠١) (٢) (٣) .

(١) سورة النساء : آية (٤٠) .

(٢) سورة المؤمنين : آية (١٠١) .

(٣) تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل : ج ١، ص ٤٢٨ - ٤٢٩، دار المعرفة، بيروت، لبنان .



## **الفصل الثاني**

### **طرق التخلص من الظلم**

وفيه مباحث :

المبحث الأول : الذكر والاستغفار .

المبحث الثاني : استغفار الرسول ﷺ لأمته في حياته .

المبحث الثالث : كفّ النفس عن الظلم .

المبحث الرابع : التوبة .

المبحث الأول

الذكر والاستغفار

## المبحث الأول

### الذكر والاستغفار

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا الذُّنُوبَ بِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١).

إن العبد إذا صدر منه ذنب اتبعه التوبة والاستغفار، فيرجع إلى ربه وخالقه ويتوب وينيب إليه لأنه يعرف أن لا أحد يغفر ويقبل التوبة إلا الله فهو يقبل العثرات ويمحو السيئات .

قال أبو السعود : ((إذا فعلوا فاحشة) أي فعلة بالغة القبح (ظلموا أنفسهم) بأن أتوا ذنباً أي ذنب كان، وقيل الفاحشة الكبيرة وظلم النفس الصغيرة أو الفاحشة ما يتعدى إلى الغير وظلم النفس ما ليس كذلك) (٢).

فلا يصبر العبد على المعصية بل إذا وقع في ذلك يستغفر ويرجع لأن الموت أقرب إليه من حبل الوريد، فلا يتمادى ويلهيه الأمل حتى يأتي الأجل وهو على تلك المعاصي فكيف يكون الخلاص؟!

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣).

(١) سورة آل عمران : آية (١٣٥) .

(٢) تفسير أبي السعود: المجلد الأول الجزء الثاني ص ٨٦ .

(٣) سورة الأعراف: آية (٣٤) .

قال ابن كثير : (قال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا هشام بن يحيى عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن عبد الرحمن بن أبي عمرة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "إن رجلاً أذنب ذنباً فقال: ربّ إني أذنبت ذنباً فاغفره لي فقال الله عز وجل عبدي عمل ذنباً فعلم أن له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: ربّ إني عملت ذنباً فاغفره لي، فقال تبارك وتعالى علم عبدي أن له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ثم عمل ذنباً آخر فقال: ربّ إني عملت ذنباً فاغفره لي فقال عز وجل علم عبدي أن له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ثم عمل ذنباً آخر فقال: ربّ إني عملت ذنباً فاغفره لي فقال عز وجل: عبدي علم أن له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به أشهدكم أنّي قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء" أخرجاه في الصحيحين من حديث إسحاق بن أبي طلحة بنحوه) (١) (٢).

قال النووي على هذا الحديث : (هذه المسألة تقدمت في أول كتاب التوبة وهذه الأحاديث ظاهرة في الدلالة لها وأنه لو تكرّر الذنب مائة مرة أو ألف مرة أو أكثر وتاب في كل مرة قبلت توبته وسقطت ذنوبه ولو تاب عن الجميع توبة واحدة بعد جميعها صحّت توبته . قوله عز وجل للذي تكرّر ذنبه : (اعمل ما شئت فقد غفرت لك) معناه: ما دمت تذنّب ثم تتوب غفرت لك، وهذا جار على القاعدة التي ذكرناها (٣).

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب التوحيد ٣٥، ومسلم في صحيحه ، كتاب التوبة ٢٩ .

(٢) تفسير القرآن العظيم: ج ١، ص ٤٠٦ .

(٣) شرح مسلم للنووي: المجلد التاسع جزء ١٧، ص ٧٥-٧٦ .

## المبحث الثاني

استغفار الرسول ﷺ لأمة في حياته

## المبحث الثاني

### استغفار الرسول ﷺ لأُمته في حياته

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (١)

بيّن الله تبارك وتعالى وجوب طاعة رسله لأنهم هم المبلغون عنه عز وجل ويرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم ما يخالف أمره أن يأتوا إلى رسوله ﷺ أن يستغفر لهم الله بعد توبتهم واستغفارهم فإنهم إذا عملوا ذلك رحمهم الله وتاب عليهم وغفر لهم لأنه هو التواب الرحيم، ورسله ليسوا كغيرهم من البشر في أعمالهم وطاعتهم لربهم وخوفهم منه. وما اختارهم المولى عز وجل إلا لفضلهم على غيرهم فعصمهم تعالى وهذا لون من ألوان التخلص من الظلم وهو طلب الرسول أن يستغفر لهم لقبول دعوته عند ربه التواب الرحيم وهذا في حياة الرسول ﷺ. وقد أخطأ من ظنّ أو اعتقد أن هذا يحصل حتى بعد وفاة الرسول ﷺ.

قال سيد قطب: (والله تَوَّاب في كل وقت على من يتوب، والله رحيم في كل وقت على من يؤوب، وهو سبحانه يصف نفسه بصفته، ويعد العائدين إليه المستغفرين من الذنوب، قبول التوبة وإفاضة الرحمة... والذين يتناولهم هذا النص ابتداء كان لديهم فرصة استغفار الرسول ﷺ، وقد انقضت فرصتها وقد بقي باب

---

(١) سورة النساء: آية (٦٤).

الله مفتوحاً لا يغلق، ووعدته قائماً لا ينقض، فمن أراد فليقدم، ومن عزم فليتقدم<sup>(١)</sup> اهـ.

والرسول ﷺ بين لنا فضائل الاستغفار وماذا نقول إذا أردنا التخلص مما قد ظلمنا به أنفسنا .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة"<sup>(٢)</sup>، وكان ﷺ يقول: "رب اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي خطاياي وعمدي، وجهلي وجدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت، وما أخرت وما أسررت، وما أعلنت، أنت المقدم، وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير"<sup>(٣)</sup>.

وقال ﷺ: "مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره مثل الحي والميت"<sup>(٤)</sup>.

وقال ﷺ: "من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياها وإن كانت مثل زبد البحر"<sup>(٥)</sup>.

(١) في ظلال القرآن: ج ٢، ص ٦٩٦ .

(٢) صحيح البخاري كتاب الدعوات حديث رقم ٦٣٠٧ .

(٣) صحيح البخاري كتاب الدعوات، حديث رقم ٦٣٩٨ .

(٤) صحيح البخاري كتاب الدعوات، حديث رقم ٦٤٠٧ .

(٥) صحيح البخاري كتاب الدعوات، حديث رقم ٦٤٠٦ .

هذا المسلك الذي لا كلفة فيه ولا موعنة على أحد بل كلمات يتلفظ بها اللسان مع استحضار القلب و خشوع الجوارح لذلك، فيزول الظلم وينكسر الشيطان ويندحر حيث بطل ما قد عمل من إيقاع الإنسان في المعاصي، ولكن رحمة أرحم الراحمين الله رب العالمين تدارك بها عبده الذي اصطاده الشيطان وخلصه مما وقع فيه، وبملازمة العبد لهذا يكون بعيداً عن الظلم والأوزار وكل ما يغضب الرحمن.



المبحث الثالث

كف النفس عن الظلم

## المبحث الثالث

### كف النفس عن الظلم

قال الله تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (١).

هذا لون من ألوان التخلص من الظلم بالامتناع من الوقوع في المعاصي ورفضها مهما كان من المغريات الجالبة لذلك، فنبى الله يوسف عليه السلام عندما أراد الله له ما أراد وما حصل بينه وبين إخوته وما قد بينه الله في كتابه الكريم حتى آل به الأمر إلى أن صار في بيت العزيز بمصر وعند زوجة العزيز، وقد أوصاها زوجها به خيراً، ولكن لا يخفى شر النساء ومكرهنّ وكيدهنّ، فلما كان في يوسف من الجمال ما كان جرى الشيطان في عروقها وزين لها الشر وأن تراود يوسف عن نفسه أن يفعل فيها الفاحشة ففعلت ذلك بمحاولته في هذا ولكنه امتنع أشدّ الامتناع، وولّى هارباً عندما أرادت إجباره على ذلك وصار من أمره ما صار وما لاقاه من التّهم الكاذبة والسجن وهو صابر، حتى أظهره الله وأبطل كيد الخائنين.

يقول ابن كثير: (يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه فراودته عن نفسه أي حاولته عن نفسه ودعته إليها وذلك أنها أحبّته حبّاً شديداً لجماله وحسنه وبهائه فحملها ذلك على أن

(١) سورة يوسف: آية (٢٣).

تجملت له وغلقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها (قالت هيت لك) فامتنع من ذلك أشد الامتناع و(قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي) وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير أي أن بعلك ربي أحسن مثواي أي منزلي وأحسن إليّ فلا أقابله بالفاحشة في أهله (إنه لا يفلح الظالمون) <sup>(١)</sup>.

إن الإقدام على المعصية أو تبسيتها في النفس قد يردي صاحبها وقد يكون في ذلك خسرانه وندامته، ولا ننسى ما فعل الله تعالى بأصحاب الجنة وهو البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه حيث حلفوا بينهم ليحصدن الثمر في الليل حتى لا يعلم فقير ولا سائل فيعطى من ذلك حق فقره ومسكنته ويبتوا النية الباطلة والعمل الرديء والذي يخالف ما حضّ عليه المولى عز وجل فكان عاقبة أمرهم خسراً حيث حنّهم تعالى في أيامهم فأصاب البستان آفة سماوية فجعلته هشيماً وهذا جزاء الظالمين، وستأتي الآيات في موضعها <sup>(٢)</sup> وبيان ذلك إن شاء الله تعالى.

نعم إن هذا جزاء من خالف أمر الله وبخل بما آتاه الله وأنعم عليه ومنع الحقوق، هذا جزاء من قدم على الأعمال التي لا ترضي الله تعالى .

وهنا فرق بين من كف نفسه عن كل عمل عاقبته وخيمة وفيها مضرّة عليه في دينه ودنياه، وبين من يوقع نفسه في مهاوي الردى بالظلم والتسبب في هلاكها في الدنيا والآخرة .

(١) تفسير القرآن العظيم : ج ٢، ص ٤٧٣ .

(٢) سورة القلم: آية (١٧-٣٣) .

فالامتناع وعصيان النفس والوقوف عند حدود الله تعالى فيه الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة وإن في موقف يوسف عليه السلام الإيماني وقصته لعبرة لأولي الأبواب .

كيف لا يكون ذلك والمولى عز وجل يبين لنا في محكم التنزيل فيقول تعالى : ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهِ؟ أَسْتَحْضِرُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ٥٤﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهُ ٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ٥٦﴾ وَلَا جُرْأَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ٥٧﴾﴾ (١) .

هكذا ينبغي أن يسلك الشباب المسلم هذا المسلك الإيماني وأن يثقوا بالله تعالى فيقفوا عند حدوده ويمنعوا أنفسهم من الهلكة والوقوع في المعاصي التي هي ظلم للنفس في مجاوزة الحد بالاعتداء على محارم الله تعالى ويفوزوا برضاء الله تعالى في الدنيا وتحقيق أمانهم وتذليل الصعوبات التي تقف في طريقهم كما حصل لسلفهم الصالح، وإن حصل ما يكدر الصفو، فلا يستنكر، فهذه سنة الحياة وخاصة لعباد الله الصالحين.

(١) سورة يوسف : آية (٥٤-٥٧) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (الدنيا سجن المؤمن جنة الكافر)<sup>(١)</sup>.  
فالعاقبة دائماً تكون لعباد الله المؤمنين الملتزمين بأوامره والواقفين عند  
حدوده ولا تززعهم الأهواء ولا المغريات، والسوء للظلمة المارقين الذين  
يجترؤون على محارم الله تعالى ويوقعون أنفسهم في شبك ذلك .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الزهد ١، والترمذي كتاب الزهد ١٦، وابن ماجه كتاب الزهد ٣، وأحمد  
في المسند : ٣٢٣/٢ .

المبحث الرابع

التوبة

## المبحث الرابع

### التوبة

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٩) (١).

هذه الآية الكريمة مترتبة على الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣٨).

فلا زلنا نجد لطف الله ورحمته وعدله تظهر واضحة إذا تدبرنا كتابه الكريم. فهذه الكبيرة والتي هي السرقة عندما يرتكبها العبد فإن الله عز وجل بين لنا كيفية الخلوص منها لأن هذا ظلم قد تعدى إلى الغير، فحفظاً على حقوق الناس جعل الله الحد في السرقة "قطع اليد" التي تعتبر عضواً فاسداً في الجسد والعضو الفاسد ليس له إلا الإزالة حتى يبقى الإنسان شريفاً ويعرف حرمة حقوق الآخرين مثلما يرى حرمة .

وقد بين لنا تعالى أن التوبة تكون عما باشره وعن كل التبعات لما باشره، والعزم على ترك المعاودة لذلك، وإصلاح النفس يكون بالالتزام بما أحل الله له والابتعاد عن كل ما حرم الله عليه، فبذلك يبقى الإنسان صالحاً سالماً من الأذناس والأمراض المعنوية المؤدية به إلى الهلاك. واللفظ هنا في الآية هام، فيشمل السارق

(١) سورة المائدة: آية (٣٩) .

وغيره من المذنبين والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما لا يفوت على أحد أن ما كان فيه حق للغير فلا يسقط بالحد بل لا بد من رد ذلك لصاحبه أو التحلل منه .

والسنة المطهرة تحافظ أشد المحافظة على إقامة الحدود وعدم إسقاطها، وهذا من العدل الرباني حتى تبقى البشرية في أمن ورخاء، فالشريف والوضيع في الحق سواء.

عن عائشة زوج النبي ﷺ : (أن قريشاً أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح فقالوا: من يكلم رسول الله ﷺ فقالوا ومن يجتري إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ فأتى بها رسول الله ﷺ فكلّمه فيها أسامة بن زيد فتلّون وجه رسول الله ﷺ فقال أتشفع في حد من حدود الله ؟ فقال له أسامة : أستغفر الله يا رسول الله فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاخطب فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد : فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها، قال يونس قال ابن شهاب قال عروة قالت عائشة فحسنت توبتها بعد وتزوجت وكانت تأتني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ ) (١).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الحدود، حديث رقم ٦٧٨٨، ومسلم في صحيحه كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره واللفظ له .



وفي رواية لمسلم عن عائشة قالت: كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجده فأمر النبي ﷺ أن تقطع يدها فأتى أهلها أسامة بن زيد فكلموه فكلّم رسول الله ﷺ فيها ... الحديث .

ولا نذهب بعيداً ولكن أردنا بيان أن توبة الله تعالى على الظالم نفسه لا تعني إسقاط الحد عنه إذا بلغ السلطان ويرد على هذا سؤال: كيف يكون التوفيق بين الحديث وقول الله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِينًا﴾ (١) .

والجواب : أن هذه الشفاعة إنما هي في قضاء حوائج الناس وتيسير أمورهم وليست في إبطال الحدود وإشاعة الفوضى في المجتمع .

قال ابن كثير في بيان معنى هذه الآية :

(قال مجاهد بن جبر: "نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض") (٢) اهـ.

(١) سورة النساء : آية (٨٥) .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ج ١ ، ص ٥٣١ .

المرأة المخزومية هي فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسد بن عبد الله ابن عمرو بن مخزوم . انظر: فتح الباري: ج ١٢ ، ص ٨٨ .

عن أبي موسى قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه السائل وربما قال جاءه السائل أو صاحب الحاجة قال اشفعوا فلتؤجروا ويقضي الله على لسان رسوله ما شاء (١).

قال ابن حجر: (قال الطيبي: "الفاء واللام زائدتان للتأكيد لأنه لو قيل اشفعوا تؤجروا صحّ أي إذا عرض المحتاج حاجته عليّ فاشفعوا له إليّ فإنكم إن شفعتكم حصل لكم الأجر سواء قبلت شفاعتكم أم لا، ويجري الله على لسان نبيه ما شاء أي من موجبات قضاء الحاجة أو عدمها، أي إن قضيتها أو لم أقضها فهو تقدير الله تعالى وقضائه" (٢) اهـ.

ومن هذا يفهم أنا الشفاعة الحسنة هي في الأمور التي ترجع على الأفراد والجماعات بما هو خير. وبضدها الشفاعة السيئة التي منها الشفاعة في الحدود فهذا هو الذي لا تجوز الشفاعة فيه عند السلطان؛ لأن في إقامة الحدود استقامة واستقرار للأفراد والجماعات وحصول الأمن والاطمئنان على الأنفس والأموال، وكذا يحصل التخلص من تلك المعصية، ويكون في إقامة الحد رادعاً وزاجراً. وقد يحصل بهذا الاستقامة، فالمرأة المخزومية تقول عنها عائشة في الحديث الذي ذكرناه بأنها حسنت توبتها وكانت تأتي إليها وترفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ.

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب التوحيد حديث رقم ٧٤٧٦، وكتاب الزكاة حديث رقم ١٤٣١، والأدب رقم ٦٠٢٦، ٦٠٢٨، ورواه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة ١٤٥، وأبو داود: كتاب الأدب ١١٧، والترمذي: كتاب العلم ١٤، والنسائي: تاب الزكاة ٦٥، وأحمد في المسند: ٤/ ٤٠٠....

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الأدب ج ١، ص ٤٥١.

كان السلف الصالح إذا وقع أحدهم في أي مظلمة فإنه سرعان ما يصل إلى رسول الله ﷺ ويقول: طهرني يا رسول الله. كل هذا من أجل التخلص من المظالم.

عن عمران بن حصين أن امرأة من جهينة أتت نبي الله ﷺ وهي حبلى من الزنى فقالت: يا نبي الله أصبت حداً فأقمه عليّ فدعا نبي الله ﷺ وليّها فقال أحسن إليها فإذا وضعت فائتني بها ففعل فأمر بها نبي الله ﷺ فشكّت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها فقال له عمر تصلي عليها يا نبي الله وقد زنت فقال لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى" (١).

هكذا يجود المؤمن بنفسه في سبيل الحق وإن أودى ذلك بحياته لأنه يعلم أن عذاب الله أشد وأبقى فيخلص نفسه مما قد وقع فيه من ظلم لها حتى يسلم من العذاب الأخروي .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الحدود ٢٣ ، "حد الزنا" .

## الفصل الثالث

### عقوبة الظلمة

وفيه مباحث :

المبحث الأول : مسببات الظلم .

المبحث الثاني : عظم عقوبة الظلم .

المبحث الثالث : جزاء ظالمي أنفسهم بالشرك في الدنيا والآخرة.

المبحث الرابع : جزاء آكلي أموال اليتامى ظلماً .

المبحث الخامس : جزاء آكلي أموال المؤمنين ظلماً وعدواناً .

المبحث السادس : عاقبة الظلم في المسجد الحرام .

المبحث السابع : جزاء الظالمين في الآخرة .

المبحث الثامن : القصاص من عدل الله تعالى .

المبحث الأول

مسببات الظلم

## المبحث الأول

### مسببات الظلم

الظلم مصدره بل أسبابه ثلاثة أشياء :

١ - الشيطان: هذا هو العدو الأول وهو السبب في خروج آدم عليه السلام من الجنة إلى هذه الحياة الدنيا وقد حذرنا الله منه وبين لنا عداوته فقال تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢٠٨) . فهو دائماً وأبداً بدوام الحياة يأمر الإنسان بالفحشاء ويعده الفقر ليحثه على المنكرات وكل ما يغضب رب الأرض والسماوات، ويجعل الدنيا أكبر هممه ومبلغ غايته. قال تعالى ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢١٨) . فهو يتوعد الإنسان بأن يغويه ويضله ويمنيه الأمانى الكاذبة حتى يرتكب ما نهاه الله عنه من تعديات وتغيير لخلق الله. والمولى عز وجل بين لنا هذا وحذرنا من اتباع الشيطان وما يعد من غرور للإنسان لإضلاله وليكون من حزبه وأعدائه. قال تعالى : ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنْتًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا يُخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلَا ضِلَلَنَّهُمْ وَلَا مَنِئِنَّهُمْ وَلَا مُرَنَّهُمْ فَلْيَبْتَكَنَّ ءَازَانِ الْاُنْعَمِ وَلَا مُرَنَّهُمْ فَلْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١) (٣)

(١) سورة البقرة: آية (٢٠٨) .

(٢) سورة البقرة: آية (٢٦٨) .

(٣) سورة النساء: آية (١٧٧-١٢١) .

الشیطان يستحوذ على القلوب أي يغلب عليها فينسى ذكر الله أي ما أمر الله تعالى به حتى يصبح من الخاسرين. وقد بين تعالى هذا فقال: ﴿اسْتَحْذَرُوا الشَّيْطَانَ فَإِنَّهُ أُولِيكُمْ حِرْبًا أَلَّا إِنَّ حِرْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَسِرُونَ﴾ (١) ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (٢).

هذا واحد من أعداء الإنسان وهو العدو الكبير والأساس للأعداء الآخرين.

٢ - النفس : وهي ثلاثة أنواع :

أ - نفس أمّارة : وهي التي من شأنها الأمر بالسوء لميلها إلى الشهوات وتأثيرها بالطبع وصعوبة قهرها وكفها عن ذلك .

ب - نفس لوّامة : وهي : "كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة، تلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد إحساناً، وتلوم المسيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته" (٣).

ج - نفس مطمئنة : وهي التي اطمأنت على ما وعد الله أهل الإيمان به في الدنيا من الكرامة في الآخرة .

(١) سورة المجادلة : آية (١٩) .

(٢) سورة فاطر : آية (٦) .

(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ج ١، ص ٧٧، دار المعرفة .

والغالب على النفس هو الميل إلى الدنيا والانحراف عن الطاعة لأن الشيطان يجري مع الإنسان مجرى الدم ويزين للنفس اتباع الهوى . والنفس سرعان ما تهوى وتسعى إلى ذلك .

قال ابن القيم : (إنها - أي النفس <sup>(١)</sup> - جاهلة ظالمة وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كل قول وعمل قبيح . ومن وصفه الجهل والظلم لا يطمع في استقامته واعتداله البتة فيوجب له ذلك بذل الجهد في العلم النافع الذي يخرجها به عن وصف الجهل، والعمل الصالح الذي يخرجها به عن وصف الظلم، ومع هذا فجعلها أكثر من علمها وظلمها أعظم من عدلها فحقيق بمن هذا شأنه أن يرغب إلى خالقها وفاطرها أن يقيها شرها، وأن يؤتيها تقواها ويزكيها، فهو خير من زكاها، فإنه ربها ومولاها، وأن لا يكله إليها طرفة عين، فإن وكله إليها هلك، فما هلك من هلك إلا حيث وكل إلى نفسه.... ، فمن عرف حقيقة نفسه وما طبعت عليه، علم أنها منبع كل شر، ومأوى كل سوء، وأن كل خير فيها ففضل من الله من به عليها لم يكن منها كما قال تعالى : ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾ <sup>(٢)</sup> .

(١) الأمانة بالسوء .

(٢) سورة الحجرات : آية (٧) .



فهذا الحب وهذه الكرامة لم يكونا بالنفس ولا بها، ولكن هو الله الذي منّ بها، فجعل العبد بسببها من الراشدين ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١)، (عليم) بمن يصلح لهذا الفضل ويزكوا عليه وبه ويثمر عنده (حكيم) فلا يضعه عند غير أهله فيضعه في غير موضعه (٢) اهـ .

يقول تعالى حكاية عن امرأة العزيز: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ (٣) ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (٢٨) فَأَدْخِلِي فِي عِبْدِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخِلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ (٤) .

ويقول تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ (٥) .

٣- الهوى : أما الهوى فقد ذكره الله في كتابه العزيز في أكثر من موضع فقال تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ (٦) .

(١) سورة الحجرات : آية (٨) .

(٢) مدارج السالكين : ج ١ ، ص ٢٢٠ .

(٣) سورة يوسف : آية (٤٠) .

(٤) سورة الفجر : آية (٢٧-٣٠) .

(٥) سورة القيامة : آية (١-٢) .

(٦) سورة النساء : آية (١٣٥) .

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ (٥).

في هذه الآيات البينات بيان من المولى عز وجل أن في اتباع الهوى يحصل الخسران المبين الذي يؤدي بصاحبه إلى فقدان الخير والمسرات والنعيم الدنيوي والتلذذ بطاعة رب العالمين وعبادته التي عاقبتها النعيم المقيم بجوار رب العالمين .  
وآية الأعراف: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ (٦).

قال عبدالرحمن السعدي عن الذي آتاه الله آياته فانسلخ عنها: (يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا﴾ "أي: علمناه كتاب الله، فصار العالم الكبير، والخبير النحرير، ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: انسلخ من

(١) سورة النازعات: آية (٤٠) .

(٢) سورة الأعراف: آية (١٧٦) .

(٣) سورة الكف: آية (٢٨) .

(٤) سورة طه: آية (١٦) .

(٥) سورة القصص: آية (٥٠) .

(٦) سورة الأعراف: آية (٢٧) .

الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله، فإن العلم بذلك، يصير صاحبه متصفاً بمكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ويرقى إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات.

فترك هذا كتاب الله وراء ظهره، ونبذ الأخلاق التي يأمر بها الكتاب، وخلعها كما يخلع اللباس . فلما انسلخ منها، اتبعه الشيطان: أي تسلط عليه حين خرج من الحصن الحصين وصار إلى أسفل سافلين فأزله إلى المعاصي أزاً، (فكان من الغاوين) بعد أن كان من الراشدين المرشدين. وهذا لأن الله تعالى خذله ووكله إلى نفسه، فلماذا قال تعالى : (ولو شئنا لرفعناه بها) بأن نوقفه للعمل بها فيرتفع في الدنيا والآخرة فيتحصن من أعدائه (ولكنه) فعل ما يقتضي- الخذلان (إذ أخلد إلى الأرض) أي: إلى الشهوات السفلية والمقاصد الدنيوية (واتبع هواه وترك طاعة مولاه) (١).

هذا سبب اتباع الهوى والرضى بالدنيا والظن أنها تدوم ويخلد فيها .

هذه نبذة بسيطة تمهيداً للبحث الذي نحن بصددده وهو عقوبة الظلمة لأن فيما أوردناه ما يجعل هناك رادعاً وزاجراً للإنسان من الوقوع في الظلم وما يغضب رب العباد وما بسببه يكون دخول النار وغضب الجبار، ثم يعرف الإنسان أعداءه في هذه الحياة الدنيا وخاصة ما هو سبب غوايته، وأيضاً قرناء السوء الذين وقعوا في هذه الشبكة التي بناها فهم يدعون غيرهم ليوقعوهم فيما قد وقعوا فيه، فليحذر الإنسان من هذا، وليكن دائماً يقظاً متنبهاً من أن لا يدخل عليه شيء مما ذكرنا وأن لا يقع وهو لا يعلم، فإننا لشيطان حريص على غواية الإنسان وليس له

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المآن: ج ٣ ص ١١٦، المؤسسة السعيدية بالرياض .

وظيفة وليس له عمل إلا السعي في الأرض هو وجنوده ليضلوا ابن آدم ويأخذوا به ليكون من حزبهم ويكون المسكين معهم في نار جهنم والعياد بالله من ذلك .

فالله سبحانه وتعالى يوصي عباده ويحذرهم من الشيطان فيقول تعالى :

﴿يَنْبَغِيءَ آدَمَ لَا يَفْنَنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا الْبُرِّيَّهُمَا سَوَاءَ تَهُمَا إِنَّهُ يَدْرِكُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١)﴾

وسنوالي ما يسره الله تعالى مما ورد في عقوبة الظلمة الذين انحرفوا عن صراط الله المستقيم .

---

(١) سورة الأعراف : آية (٢٧) .

المبحث الثاني

عظم عقوبة الظلم

## المبحث الثاني

### عظم عقوبة الظلم

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقَصَهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ۝ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝﴾ (١٠٢) . (١)

قال السعدي: (ولما ذكر قصص هؤلاء الأمم مع رسلهم قال الله تعالى لرسوله (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك): لتذنب به، ويكون آية على رسالتك، وموعظة وذكرى للمؤمنين. (منها قائم) لم يتلف، بل بقي من آثار ديارهم، وما يدل عليهم (و) منها (حصيد) قد تهدمت مساكنهم، واضمحلت منازلهم، فلم يبق لها أثر .

(وما ظلمناهم) بأخذهم بأنواع العقوبات (ولكنهم ظلموا أنفسهم) بالشرك والكفر والعناد . (فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك) وهكذا كل من التجأ إلى غير الله، لم ينفعه ذلك عند نزول الشدائد . (وما زادوهم غير تتبيب) أي: خسار ودمار، بالضد مما خطر ببالهم، أي يقصمهم بالعذاب ويبيدهم ولا ينفعهم وكانوا يدعون من دون الله من شيء) (٢) .

(١) سورة هود: آية (١٠٠-١٠٢) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ج ٣ ص ٤٥٩ - ٤٦٠ ، المؤسسة السعيدية بالرياض .

قال سيد قطب : (ومصارع القوم معروضة، ومشاهدهم تزحم النفوس والخيال، منهم الغارقون في لجة الطوفان الغامر، ومنهم المأخوذون بالعاصفة المدمرة، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسفت به وبداره الأرض، ومنهم من يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار، وما حل بهم من قبل في الدنيا (للأنظار...) ثم يستمر في بيان أنواع الهلاك فيقول : (لا تزال آثاره تشهد بما بلغ أهله من القوة والعمران كبقايا عاد في الأحقاف، وبقايا ثمود في الحجر...) اهـ<sup>(١)</sup> .

إننا إذا تدبرنا آيات الله وما جرى بين الرسل وأممهم وطاعة الطائعين ومعاندة ومكابرة المكابرين ومرور السنين الطويلة على ذلك وبلوغ الشر- نهايته ينزل الله عذابه على من طغى وبغى وأفسد في الأرض بعد إصلاحها وتطاول في الأذى على رسله وعباده المؤمنين، ولا عبرة لنسب ولا غنى ولا سلطان، وإن ما حصل لبعض قرابة الرسل من العذاب جزاء على ظلمهم ليعطى صورة حققة للعدالة الحققة والتنزه التام، فلو تدبرنا ما قصه الله علينا في كتابه العزيز عن نوح وابنه لكان في ذلك عبرة لأولي الألباب، وإنذاراً لمن حادوا عن صراط الله المستقيم. قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ﴾<sup>(٤٥)</sup> قَالَ يَنْفُخُ فِيهِ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ<sup>(٤٦)</sup> ﴿٢﴾ .

قال محمد رشيد رضا : (إن الله يجزي الناس في الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم لا بأنسائهم ولا بإحبابي أحد منهم لأجل آبائهم وأجدادهم الصالحين وإن كانوا من الأنبياء المرسلين وأن من سألهم هؤلاء الآباء ما يخالف سننه في شرعه

(١) في ظلال القرآن : ج٤، ص ١٩٢٧ .

(٢) سورة هود: آية (٤٥-٤٦) .

وحكمته في نظام خلقه كان مذنباً يستحق التأديب حتى يتوب وينيب (...). ثم قال : (إن هؤلاء المغرورين بأنسابهم من الشرفاء الجاهلين بكتاب ربهم وما يليق بعظمة الربوبية وعلو الهمة، الجاهلين بسنة نبيهم الذين يزعمون أنهم أفضل من العلماء العاملين والصالحين المصلحين، والأغنياء الشاكرين والفقراء الصابرين، وإن كانوا عراة مما كسا الله هؤلاء الأصناف من لباس التقوى والدين، وأنهم يستحقون سعادة الدنيا والآخرة بنسبهم، ويستحقها من عظمهم وأفاض عليهم من ماله بمحابة الله له لأجلهم، أولئك هم الجاهلون، الذين يشهد عليهم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وسنة رسوله ﷺ وهدية في إنذار عشيرته وأهل بيته كقوله لبنته سيدة نساء العالمين : (يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا إغني عنك من الله شيئاً)<sup>(١)</sup>. ثم قال : (هؤلاء الجاهلون المساكين يعدون أعدى أعدائهم من يدعوهم أو يدعو الناس إلى كتاب الله وسنة رسوله خاتم النبيين، ويعدون أصدق أصدقائهم المبتدعين الخرافيين المشعوذين)<sup>(٢)</sup> اهـ.

ولو وقفنا هنيهة ناظرين فيما فعل الله تعالى بأعدائه ونصرته لأنبيائه وأوليائه ماذا يقول القائل العاقل المنصف؟ أليس هذا عدل فيما فعل بالظلمة؟ أليس هذا تنزه من الله تعالى عن الظلم؟ إن الظلم كل الظلم أن يترك أعداء الله يفسدون في الأرض، ويقتلون أولياء الله ورسوله بغير حق و لم يجازوا على ذلك وحاشا الله عن ذلك .

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الوصايا ١١، النسائي كتاب الوصايا ٦، الدارمي كتاب الرقاق ٢٣، وأحمد في المسند ١/ ٢٠٦ .

(٢) تفسير المنارج ١٢، ص ٨٧، دار المعرفة بيروت لبنان .



## المبحث الثالث

جزاء ظالمي أنفسهم بالشرك في الدنيا والآخرة

### المبحث الثالث

#### جزاء ظالمي أنفسهم بالشرك في الدنيا والآخرة

يقول تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَهُمْ يُنَزَّلَ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ (١).

يبين الله تعالى لنا أنه يقذف الخوف في قلوب أعدائه الكفرة وأعداء عباده فهو يصدّهم ويرجعهم خائفين بسبب شركهم بربههم وخالقهم ولجوئهم إلى غيره تعالى الأمر الذي ليس لهم فيه حجة ولا برهان، وقد جعل سبحانه النار مصيرهم ومأواهم جزاء شركهم بالله تعالى، ففي الدنيا يصابون بالرعب فهم في خوف وقلق فلا ملجأ لهم عند الشدائد. وأما حالهم في الآخرة فأشد وأعظم وهو ما أعدّ لهم الجبار من مسكن يأوون إليه جزاء شركهم وهي نار جهنم فبئس المَثْوَى والمستقر لهؤلاء الظالمين الذين ظلموا أنفسهم حيث أوردوها موارد الهلاك وحرموها من السعادة الأبدية .

لقد ندّد تعالى بالشرك وأهله لأنه أعظم الذنوب التي عصي- الله بها. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢). وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٣).

(١) سورة آل عمران : آية (١٥١) .

(٢) سورة الأنعام: آية (٨٨) .

(٣) سورة المائدة : آية (٧٢) .

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (٣١) . (١)

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (٤٨) . (٢)

وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢) يُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٣) . (٣)

إلى غير ذلك من الآيات التي تندد بالمشر-كين وتبيّن عقوبتهم، فهم ظلمة وأيّ ظلم أعظم عند الله من الشرك ؟

إنه تعالى يصيب من يرتكب هذا الظلم بالرعب، وإذا أصيب الإنسان بالرعب لم تقم له قائمة في الدنيا فهو دائماً ذليل، ودائماً مهزوم ومغلوب وعليه الصولة، وهذا ما حصل لكفار قريش من الهزيمة أمام الرسول ﷺ مع كثرة عددهم وعددهم وقلة المسلمين. قال الله تعالى في بيان نصره للمؤمنين وخذلانه للكافرين : ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِيَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّكَ تُدْرِكُهُمُ الْعَذَابُ الَّذِي لَا يَشْفِيهِمْ وَأَنْتَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ النَّارِ (١٤) . هذا نوع من العقاب الدنيوي . (٤)

(١) سورة الحج: آية (٣١) .

(٢) سورة النساء: آية (٤٨) .

(٣) سورة النساء: آية (٧٢-٧٣) .

(٤) سورة الأنفال: آية (١٢-١٤) .

هذا إضافة إلى أن من يموت بقتل أو غيره ولم يتب من هذا الظلم فإن الله جعل النار هي مأواه أي منزله الذي يأوي إليه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾<sup>(١)</sup>، فالنار التي هي مقر الظلمة كالأم التي تحتضن ابنها وتجعله في حجرها فالنار تطبق على أولئك الذين فرطوا في جنب الله وعصوه بإعراضهم عن دينه وجعلوا له أنداداً .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "يقول الله تعالى: لأهون أهل النار عذاباً لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتدياً بها فيقول نعم. فيقول أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك أحسبه قال ولا أدخلك النار فأبيت إلا الشرك"<sup>(٢)</sup>.

إن من عظم هذا الذنب عند الله تعالى والذي لا يرضاه أبداً ولا يغفره لمن مات عليه أن حذر نبيه وصفوة خلقه محمداً ﷺ ومن كان قبله من الأنبياء وغيرهم من هذا فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) سورة القارعة: آية (٦-٩) .

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب المنافقين حديث رقم ٢٨٠٥، و البخاري في صحيحه كتاب الأنبياء حديث رقم ٣٣٣٤ .

(٣) سورة الزمر: آية (٦٥-٦٦) .

## المبحث الرابع

جزاء آكلي أموال اليتامى ظلماً

## المبحث الرابع

### جزاء آكلي أموال اليتامى ظلماً

قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ (١) .

إن من يأكل مال اليتامى بلا سبب مشروع فإنما يأكل في بطنه ناراً يوم القيامة جزاء على اعتدائه على مال أولئك الصبية الصغار الذين فقدوا آبائهم وحرموها حنانهم وإن كان لا يضيع أحداً من خلقه والجزاء من جنس العمل .

فكان من عدله تعالى أن أنزل البيان العظيم على خلقه مبيناً عظم العقوبة وهي النار التي تتوقد في بطنه يوم القيامة مثلما أكل مال اليتامى الضعفاء الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، بل ينظرون إلى من يواسيهم في مصابهم ويدأوي جراحهم بسد فاقتهم بحفظ أموالهم إن وجد لهم شيئاً، والإنفاق عليهم منها دون إسراف أو عبث بها .

فمن رحمة الله تعالى أن يبين ما لهم من حقوق وحض على الرأفة والعطف بهم والإحسان إليهم فقال تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ۝٢﴾ (٢) .

(١) سورة النساء : آية (١٠) .

(٢) سورة البقرة : آية (١٧٧) .

وقال تعالى: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ (٢).

كما حذر تعالى من التعدي على حقوقهم وأكلها بالباطل ودمهم فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ (٣) الآية.

أي: لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بما يرجع عليه بالنفع من التصرف في ذلك بما يجعله ينمو مع الحذر مما فيه ضياع لذلك.

عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "يا أباذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفس لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم" (٤).

قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۖ وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ (٥).

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ (٦).

(١) سورة النساء: آية (٣).

(٢) سورة النساء: آية (٨).

(٣) سورة الإسراء: آية (٣٤).

(٤) رواه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة حديث رقم ١٨٢٦.

(٥) سورة الفجر: آية (١٧).

(٦) سورة الضحى: آية (٩).

قال ابن كثير : (أي كما كنت يتيماً فأواك الله فلا تقهر اليتيم أي لا تذله وتنهره وتُهنه ولكن أحسن إليه وتلطّف به. قال قتادة: كن لليتيم كالأب الرحيم) (١).

ما دام هذا خطاب للرسول ﷺ الذي هو خير البرية. فكيف ببقية العباد الضعفاء كثير الأخطاء والذنوب الذين يعتدون على أموال اليتامى فيأكلونها ظلماً وبهتاناً؟ كيف بمن يسيء إليهم أو يضرهم أو يشتمهم أو ينهرهم أو يهينهم؟

هذا أمر عظيم والخطر أعظم من ذلك على من وقع منه مخالفة في حق اليتامى إنه لا يقدم على هذا إلا كل ظالم غشوم رأى أن لا أب يدافع عنه حيث توفاه الله تعالى، ونسي أو تناسى ما توعد الله به ظالمي اليتامى من العقوبة الأليمة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَالُ الَّذِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٢).

ومن رحمة الله تعالى بهؤلاء الصبية الضعاف الأيتام أن جعل لهم حظاً من الفيء فقال تعالى: ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ (٣).

(١) تفسير القرآن العظيم: ج ٤، ص ٥٢٣.

(٢) سورة البقرة: آية (٨١).

(٣) سورة الحشر: آية (٧).



وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : "اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال : الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات" <sup>(١)</sup>.

وعن سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال: "أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وشبك بأصبعيه السبابة والوسطى" <sup>(٢)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "اللهم إني أخرج حق الضعيفين اليتيم والمرأة" <sup>(٣)</sup>.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الوصايا حديث رقم ٢٧٦٦، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان حديث رقم ٨٩.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الطلاق حديث رقم ٥٣٠٤، والأدب ورواه مسلم في صحيحه كتاب الزهد ٤٢، وأبو داود كتاب الأدب ١٢٣، والترمذي كتاب البر ١٤، وأحمد في المسند ٢/٣٧٥.

(٣) رواه أحمد في المسند ٢/٤٣٩، وابن ماجه في كتاب الأدب ٣٦٧٨، وقال محمد فؤاد عبد الباقي: "المعنى أخرج عن هذا الإثم بمعنى أن يضيع حقها. وأحذر من ذلك تحذيراً بليغاً. وأزجر عنه زجراً أكيداً. قال النووي: وإسناده صحيح، ورجاله ثقات". وسنن ابن ماجه ٢/١٢١٣.

## الأكل المحرّم والأكل المشروع :

أمّا بالنسبة للأكل المحرم فالآية التي هي مدار بحثنا تبين حرمة أكل أموال اليتامى ظلماً وأن ذلك نار تتوقد في بطونهم، وقد بينا ووضحنا ذلك مع الأدلة من الكتاب والسنة فلا يجوز بوجه من الوجوه الأكل من أموال اليتامى إلا ما صرح الله تعالى به في قوله: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ﴾<sup>(١)</sup>.

قال ابن كثير: (ومن كان غنياً فليستعفف) عنه ولا يأكل منه شيئاً. وقال الشعبي: هو عليه كالميتة والدم (ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف) "نزلت في والي اليتيم الذي يقوم عليه ويصلحه إذا كان محتاجاً أن يأكل معه"<sup>(٢)</sup>.

وعن عائشة رضي الله عنها: (ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف). قالت: أنزلت في والي اليتيم أن يصيب من ماله إذا كان محتاجاً بقدر ماله بالمعروف<sup>(٣)</sup>.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رجلاً أتى النبي (رسول الله) فقال: إني فقير ليس لي شيء ولي يتيم قال: فقال "كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبادر ولا متأثّل"<sup>(٤)</sup>.

(١) سورة النساء: آية (٦).

(٢) تفسير القرآني العظيم: ج ١ ص ٤٥٣

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب الوصايا ٢٧٦٥، وكتاب الحدود ٤٤، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان ١٤٤، ورواه أبو داود كتاب الوصايا ١٠، ورواه أحمد في المسند ١٨٦/٢

(٤) رواه أبو داود في كتاب الوصايا حديث رقم ٢٨٧٢.

قال شمس الحق العظيم آبادي: (ولا مبادر) من المبادرة قال تعالى: (وبدار أن يكبروا) وهذا الذي يظهر في تفسير الحديث، وضبطه الحافظ السيوطي فقال قوله: "ولا مبادر" قيل: معناه ولا مسرف فهو تأكيد وتكرار ولا يبعد، وقل: لا مبادر بلوغ اليتيم بانفاق ماله "ولا متأثل" قال الخطابي: أي غير متخذ منه أصل مال، وأثله الشيء أصله ووجه إباحته له الأكل من مال اليتيم أن يكون ذلك على معنى ما يستحقه من العمل فيه والاستصلاح له، وأن يأخذ منه بالمعروف على قدر مثل عمله، وقد اختلف الناس في الأكل من مال اليتيم. فروى عن ابن عباس أنه قال: يأكل منه الوصي إذا كان يقوم عليه، وإليه ذهب أحمد ابن حنبل. وقال الحسن والنخعي: يأكل ولا يقضي ما أكل. وقال عبيدة السلماني وسعيد بن جبير ومجاهد: يأكل ويؤديه إليه إذا كبر وهو قول الأوزاعي<sup>(١)</sup> اهـ.

قال موفق الدين بن قدامة: (وإذا كان الولي موسراً فلا يأكل من مال اليتيم شيئاً إذا لم يكن أباً لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ وإن كان فقيراً فله أقل الأمرين من أجرته أو قدر كفايته لأنه يستحقه بالعمل والحاجة جميعاً فلم يجوز أن يأخذ إلا ما وجد فيه فإذا أكل منه ذلك القدر ثم أيسر فإن كان أباً لم يلزمه عوضه رواية واحدة لأن للأب أن يأخذ من مال ولده ما شاء مع الحاجة وعدمها وإن كان غير الأب فهل يلزمه عوض ذلك؟

(١) عون المعبود: ج ٨، ص ٧٤.

على روايتين :

١ - إحداهما : لا يلزمه . وهو قول الحسن والنخعي وأحد قولي الشافعي لأن الله تعالى أمر بالأكل من غير ذكر عوض فأشبهه سائر ما أمر بأكله ولأنه عوض من عمله فلم يلزمه بدله كالأجير والمضارب .

٢ - يلزمه عوضه . وهو قول عبيدة السلماني وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وأبي العالية لأنه استباحة بالحاجة من مال غيره فلزمه قضاؤه كالمضطر إلى طعام غيره .

والأول أصح لأنه لو وجب عليه إذا أيسر - لكان واجباً في الذمة قبل اليسار فإن اليسار ليس بسبب للوجوب فإذا لم يجب بالسبب الذي هو الأكل لم يجب بعده وفارق المضطر فإن العرض واجب عليه في ذمته ولأنه لم يأكله عوضاً عن شيء وهذا بخلافه <sup>(١)</sup> اهـ .

---

(١) المغني والشرح الكبير : ج ٤ ، ص ٢٩٥ .

## المبحث الخامس

جزاء آكلي أموال المؤمنين ظلماً وعدواناً

### المبحث الخامس: جزاء أكل أموال المؤمنين ظلماً وعدواناً

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٢٩ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠﴾ (١).

يقول الشيخ السعدي: (ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل وهذا يشمل أكلهم بالغصب، والسريقات، وأخذها بالقمار، والمكاسب الرديئة، بل لعله يدخل في ذلك، أكل مال نفسك على وجه البطر والإسراف لأن هذا من الباطل وليس من الحق. ثم إنه لما حرم أكلها بالباطل أباح لهم أكلها بالتجارات والمكاسب الخالية من الموانع، المشتملة على الشروط، من التراضي وغيره. (ولا تقتلوا أنفسكم) أي: لا يقتل بعضكم بعضاً، ولا يقتل الإنسان نفسه، ويدخل في ذلك الإلقاء بالنفس إلى التهلكة، وفعل الأخطار المفضية إلى التلف والهلاك. (إن الله كان بكم رحيماً) ومن رحمته أن صان نفوسكم وأموالكم ونهاكم عن إضاعتها وإتلافها ورتب على ذلك ما رتب من الحدود. وتأمل هذا الإيجاز ولا جمع في قوله: (لا تأكلوا أموالكم) (ولا تقتلوا أنفسكم) كيف شمل أموال غيرك، ومال نفسك، وقتل نفسك، وقتل غيرك بعبارة أخصر من قوله: (لا يأكل بعضكم مال بعض) و(لا يقتل بعضكم بعضاً) مع قصور هذه العبارة على مال الغير، ونفس الغير.

(١) سورة النساء: آية (٢٩-٣٠).

إلى أن قال : (إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) أي فإنها مباحة لكم .  
 وشرط التراضي - مع كونها تجارة - لدلالة أنه يشترط أن يكون العقد غير عقد  
 رباً، لأن الربا ليس من التجارة، بل مخالف لمقصودها، وأنه لا بد أن يرضى كل من  
 المتعاقدين ، ويأتي به اختياراً . إلى أن قال : (ومن يفعل ذلك) أي : أكل الأموال  
 بالباطل، وقتل النفوس (عدواناً وظلماً) أي : لا جهلاً ونسياناً (فسوف نصليه ناراً)  
 أي عزيمة كما يفيد التذكير (وكان ذلك على الله سيراً) <sup>(١)</sup>.

مما سبق بيانه نعرف أن من الظلم أكل الأموال بالباطل كالربا والقمار  
 والبخس والسرقة وما شابه هذا من سائر صنوف الحيل وإن حرّف وبدّل في  
 المسميات تحايلاً فالعبرة بالأصل لا بما استعير من مسميات لاستباحته وأكله  
 بالظلم والعدوان، وهذا من رحمة الله بعباده حتى لا يطغى أحد على أحد فيحصل  
 الظلم الذي حرمه الله تعالى، وليبقى الناس على نظام سليم يضبطهم ويكفل  
 للجميع حقوقهم بطريقة مشروعة فلا ضعيف يُطغى عليه ويؤكل حقه، ولا قوي  
 يعتدى ويأكل ويعبث في حقوق الآخرين. فالطريق المباحة مفتوحة الأبواب أمام  
 الجميع فلا حرج على أحد ينهج ذلك ليستفيد وينفع نفسه وينفع غيره .

قال تعالى : ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ <sup>(٢)</sup>.

فالطرق المستقيمة والطرق المعوجة قد بينها الله في كتابه الكريم وبينها  
 رسوله ﷺ في سنته المطهرة حتى لا يكون لأحد حجة بعد هذا.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ج ٢، ص ٥٤-٥٦ .

(٢) سورة البقرة: آية (٢٧٥) .

ونفس المؤمن لها حرمتها عند الله تعالى فنهى الله عباده المؤمنين عن قتل أنفسهم بأي طريقة من الطرق سواء بارتكاب ما فيه هلاكها بالملل من هذه الحياة الدنيا لمشكلات واجهته أو أمور أخرى من ضر أصابه من مرض أو فقر أو موت قريب كل هذا يجب على المؤمن أن يستسلم له لأن هذه الحياة الدنيا كلها مصاعب ومتاعب فلا بد للعبد أن يطوع نفسه على أوامر الله تعالى ويصبر نفسه حتى تنقضي أيام حياته ويلقى ربه بقلب سليم ليجزيه بأحسن الجزاء وهو النعيم المقيم في جنات رب العالمين .

ومن أردى نفسه وتسبب في قتلها أو قتل غيرها فقد استحق غضب الله ووقوع عذابه .

عن جابر بن سمرة أن رجلاً قتل نفسه فلم يصلّ عليه النبي ﷺ (١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ خيبر فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن يدعي الإسلام: "هذا من أهل النار: فلما حضر القتال قاتل الرجل من أشد القتال وكثرت به الجراح فأثبتته، فجاء رجل من أصحاب النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت الذي تحدث أنه من أهل النار؟ قاتل في سبيل الله من أشد القتال فكثرت به الجراح. قال النبي ﷺ: "أما إنه من أهل النار" فكاد بعض المسلمين يرتاب فبينما هو على ذلك إذ وجد الرجل ألم الجراح، فأهوى بيده على كنانته فانتزع

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الجنائز حديث رقم ١٠٦٨، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجنائز، حديث رقم ٩٧٨، والنسائي في كتاب الجنائز ٦٦/٤ .



منها سهماً فانتحر بها، فاشتد رجال من المسلمين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله صدق الله حديثك قد انتحر فلان فقتل نفسه، فقال رسول الله ﷺ: "يا بلال قم فأذن، لا يدخل الجنة إلا مؤمن، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر" (١).

ثم بين تعالى العقوبة الشديدة لمن فعل ذلك بقوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (٣٠)

عندما نهى المولى عز وجل عباده المؤمنين عما فيه هلاكهم في الدنيا وبين ما فيه صلاحهم ونجاحهم في حصولهم على المعاش الحلال الذي به تصلح الأنفس وتحصل الطمأنينة في المجتمعات وعند الأفراد ولا يعتدي أحد على أحد وتسلم الأنفس من القتل والهلاك بما لا تقره الشريعة الغراء، بين تعالى الجزاء على هذه المظالم التي تحصل من الأفراد على أنفسهم أو على غيرهم وذلك بالعذاب في النار وفاقاً للظلم والاعتداء الذي لا يحبه الله تعالى كما أخبر فقال: ﴿وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْتَنُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥٥) (٣).

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي حديث رقم ٤٢٠٢، ٤٢٠٣، وكتاب القدر حديث رقم ٦٦٠٦، ٦٦٠٧، ورواه أحمد في المسند ٤/ ١٣٥، وقد ذكر البخاري رواية سهل بن سعد الساعدي في هذه القصة، وذكر ابن حجر في الفتح ج ٧، ص ٤٧٢. الخلاف في الغزوة التي وقعت فيها هذه الحادثة واسم الرجل الذي قتل نفسه، وذكر أنه "قرمان الظفري".

(٢) سورة البقرة: آية (١٩٠).

(٣) سورة الأعراف: آية (٥٥).

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٨٧) (١).

وقال تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَيْبُكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (٣١) (٢). وهذا ذم لقوم لوط ولمن نهج نهجهم.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) (٣).

والآيات كثيرة جداً في التعدييات وتحذير المولى من ذلك والجزاء المترتب على تلك المخالفات فليحذر المؤمن من الاعتداء فيما نهاه عنه المولى عز وجل حتى ينال رضا الله ويفوز بالنعيم المقيم، ويسلم العذاب الأليم.

(١) سورة المائدة: آية (٨٧).

(٢) سورة الشعراء: آية (١٦٦).

(٣) سورة المؤمنون: آية (٥-٧).

## المبحث السادس

عاقبة الظلم في المسجد الحرام

## المبحث السادس

### عاقبة الظلم في المسجد الحرام

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكْفُ فِيهِ وَالْبَاءُ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَمِ يُظْلَمِ نُذْقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (١).

إن من الظلمة الذين كفروا بالله، ومع هذا فهم يصدّون أي يمنعون من أراد الاهتداء والاستقامة على دين الله تعالى وعن المسجد الحرام لمن أراد قصده لتأدية عبادة ربه التي أوجبها على عباده المؤمنين، وجعله تعالى للناس سواء المقيم فيه والنائي عنه فهم فيه سواء، وقد توعدّ جل وعلا من يهّم فيه بأمر سوء من المعاصي عامداً العذاب الأليم، هذا من يهّم فيه بالظلم، فكيف بمن عمل تلك المعاصي في حرم الله تعالى؟ إذا علم هذا فكيف لا يكون من العبد رادع وزاجر لنفسه عما يغضب الله تعالى ويوقعه فيما يوجب عليه عذاب الله تعالى وهو عذاب أليم شديد مخز وموجع لا يستطيعه أحد، وهو بهذا يعلم ويرى أن في كل يوم يكون ذاهب ورائح إلى القبور يشيعه الناس ثم يتوالى الناس على هذا الطريق حيث ينقطع العمل ويبدأ الحساب .

---

(١) سورة الحج: آية (٢٥) .

قال الشنقيطي : (والإلحاد في اللغة: أصله الميل، والمراد بالإلحاد في الآية: أن يميل، ويحيد عن دين الله الذي شرعه، ويعم ذلك كل ميل وَحَيْدَة عن الدين ويدخل في ذلك دخولاً أولياء الكفر بالله، والشرك في الحرم، وفعل شيء مما حرمه وترك شيء مما أوجبه. ومن أعظم ذلك انتهاك حرمت الحرم. وقال بعض أهل العلم: يدخل في ذلك احتكار الطعام بمكة.... إلى أن قال: الذي يظهر في هذه المسألة أن كل المخالفة بترك واجب، أو فعل محرم تدخل في الظلم المذكور، وأما الجائزات كعتاب الرجل امرأته، أو عبده فليس من الإلحاد، ولا من الظلم) (١).

فكل من يريد في الحرم مراداً عادلاً عن القصد الذي هو طاعة الله تعالى يذيقه الله عز وجل من عذاب أليم، فلا بد من ضبط النفس وأن يسلك العبد طريق السداد والعدل وأن لا توسوس نفسه إلا بخير، فالله أعلم بما تكنه الصدور وما توسوس به النفوس : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْسُوسًا ۖ وَنَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَلِّ الْوَرِيدِ ۖ﴾ (٢).

(١) أضواء البيان: ج ٥، ص ٥٨-٥٩.

(٢) سورة ق: آية (١٦).

المبحث السابع

جزاء الظالمين في الآخرة

## المبحث السابع

### جزاء الظالمين في الآخرة

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ (١).

(لا تفتح لهم أبواب السماء) أي: لا يرفع لهم عمل صالح ولا دعاء في الدنيا، وكذا لا يفتح لأرواحهم إذا ماتوا.

(يلج الجمل في سم الخياط) أي: يدخل الجمل ولد الناقة خرق الإبرة.

وقيل: الحبل الغليظ القنب. وقيل: هو حبل السفينة وهذا يبين استحالة دخول أولئك الجنة.

(لهم من جهنم مهاد) أي: فرش (ومن فوقهم غواش) أي: لحف.

قال الألوسي: (إن الذين كذبوا بآياتنا) الدالة على أصول الدين وأحكام الشرع كالأدلة الدالة على وجود الصانع ووحدته، والدالة على النبوة والمعاد ونحو ذلك (واستكبروا عنها) أي بالغوا في احتقارها وعدم الاعتناء بها ولم يلتفتوا إليها وضموا أعينهم عنها ونبذوها وراء ظهورهم ولم يكتسبوا بحلل مقتضاها ولم يعملوا بها) (٢) اهـ.

(١) سورة الأعراف: آية (٤٠-٤١).

(٢) روح المعاني: ج ٣، الجزء السابع، ص ١١٨.

يخبر المولى عز وجل عن أولئك القوم الذين أعرضوا عن دين الله تعالى وكذبوا به فلم يمتثلوا ويأتمروا بذلك ومع التكذيب أخذتهم العزة بالإثم فتعالوا عنها أضلتهم شياطينهم وأخذت بهم أهواءهم ذات الشمال ورغبتهم فيما تملى به أنفسهم من الأماني الكاذبة السالكة مسلك الردى حتى أصبحت نهايتهم في الدنيا نهاية سوء والعياذ بالله .

عن البراء بن عازب قال خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتبهينا إلى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله وكأن على رؤوسنا الطير وفي يده عود ينكت في الأرض فرفع رأسه فقال استعينوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثاً ثم قال: "إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه وكأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مدّ البصر ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الطيبة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان قال فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيّ السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض قال فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الطيب فيقولون فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهوا بها إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل اكتبوا



كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول ربي الله فيقولون له ما دينك فيقول ديني الإسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هو رسول الله ﷺ فيقولان له وما علمك فيقول قرأت كتاب الله فأمّنت به وصدقت فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة قال فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له قبره مدّ بصره قال ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعده فيقول له من أنت فوجهك الوجه يحيى بالخير فيقول أنا عملك الصالح فيقول ربّ أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي قال وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مدّ البصر ثم يحيى ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله وغضب قال فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كائنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملاء من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الخبيث فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمّى بها في الدنيا حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ فيقول الله عز وجل اكتبوا كتابه في سجين

في الأرض السفلى فتطرح روحه طراحاً ثم قرأ ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ ﴿٣١﴾ فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لا أدري فيقولان له ما دينك فيقول هاه هاه لا أدري، فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هاه هاه لا أدري فينادي منادٍ من السماء أن كذب فافرشوا له من النار وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرّها وسمومها ويضيّق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب متنن الريح فيقول أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعده فيقول من أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر فيقول أنا عملك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة) (١).

وهكذا يكون جزاء الصالحين وعقاب الظلمة فلهم المزيد من العذاب والبعد عن الجنة، لهم فرش من النار ولحف من النار، هذا جزاء من كذب بآيات الله تعالى واستكبر عنها، هذا في الحياة البرزخية، فكيف بنعيمه للطائعين وعذابه للظالمين في الآخرة .

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ٤/ ٢٨٧-٢٨٨، والنسائي في كتاب الجنائز ٨١، وأبو داود في كتاب الجنائز ٦٤ . وقال الإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤-٤٥٨) عندما أورد هذا الحديث في كتابه إثبات عذاب القبر ص ٣٧-٣٩ هذا حديث كبير صحيح الإسناد رواه جماعة من الأئمة الثقات عن الأعمش وأخرجه أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني في كتاب السنن . وقال الدكتور شرف محمود القضاة في تحقيقه لهذا الكتاب: هذا الحديث أخرجه أبو داود ٢/ ٥٤٠ وسكت عليه، وأحمد في مسنده انظر الفتح الرباني ٧/ ٧٤، ورجاله رجال الصحيح انظر مجمع الزوائد ٣/ ٤٩، وصححه البيهقي كما ترى .

لقد بين الله غبطة أهل الجنة وما حصلوا عليه ونالوه من الكرامة وإعلانهم ذلك بإخبارهم لأهل النار كما قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١).

ثم بين تعالى ما كان من أهل النار وهم في عذابهم تلم بهم جميع الأحران ينادون أهل الجنة ويقولون كما أخبر المولى عنهم فقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٢).

ويقول تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٣).

السرادق: السور، بماء كالمهل: كالرصاص المذاب، أو كعكر الزيت من شدة حرارته.

(١) سورة الأعراف: آية (٤٤).

(٢) سورة الأعراف: آية (٥٠).

(٣) سورة الكهف: آية (٢٩).

قال الشوكاني : (ساعات مرتفقاً : (ساعات) النار (مرتفقاً) متكأ، يقال ارتفعت: أي اتكأت. وأصل الارتفاق نصب المرفق، ويقال ارتفق الرجل: إذا نام على مرفقه، وقال القيتبي: هو المجلس، وقيل المجتمع) (١).  
والمراد هو ذم محل أهل النار الذي يأوون إليه لأنهم على أي حالة كانت فهم في عذاب .

يقول المولى عز وجل لرسوله محمد ﷺ : أخبر الناس أن هذا الدين الذي جئت به من ربكم هو الحق لا غيره فمن أراد الخير والعقبى الصالحة فليؤمن بهذا الدين ويلتزم به، ومن أراد الخسارة فليكفر بهذا الدين وسيرى هذا الظالم ما أعد له من النار المحاطة بالأسوار التي تحتضنهم فلا يجدون مهرباً من ذلك قال تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۚ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ وهذا تهديد ووعد شديد من رب العزة والجلال لمن كفر بهذا الدين وأظهر الاستغناء عنه بتعذيبه أشد العذاب ولا يجدون في ذلك المكان من يغيثهم إذا استغاثوا من الظمأ لا حترق أفئدتهم إلا بزيادة عذاب على ما هم فيه وهو ماء كالرصاص أو كعكر الزيت يشوي الوجوه، فبئس من شراب هذا حاله، ونار محاطة أسوارها عليهم هي مأواهم ومستقرهم ، عذاب مستمر، وحالة سيئة . هذا لون من ألوان العذاب الذي أعدّه الله للظلمة الذين كذبوا بآيات الله المنزلة على رسوله محمد ﷺ والذي قد اختاره لهذه الأمة

(١) فتح القدير : ج ٣، ص ٢٨٢ .

وهو أفضل الرسل وكتابه القرآن الكريم أفضل الكتب . فقد جعل الله هذا الرسول ﷺ خاتم الرسل ورسالته خاتمة وعامة لجميع الخلق إنسهم وجنهم، وهذا الدين الذي جاء به محمد ﷺ ناسخ لكل الأديان السماوية، وقد جاء واضحاً جلياً فيه خير البشر جميعهم، وقد بلغه ﷺ حتى عمّ هذه المعمورة بفضل الله ورحمته، فبعد البلاغ قامت الحجة وانقطعت المحجة ولم يزل هذا الدين يتوارثه العلماء ويبلغونه للناس، حتى يرث الله الأرض ومن عليها فمن آمن ودخل في دين الله فقد فاز ونجح وهذا خير له، ومن كفر وحاد واتبع هواه ولم ينصع لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ فإن جزاؤه هو ما بينه الله تعالى في الآية الكريمة: ﴿فَأَرَا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ . وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَاً﴾ (١) .

أي : يسلم الله المتقين من النار ومن عذابها فلا تمسهم بسوء ولا تؤذيهم بأي أذى فهم يجوزون على الصراط إلى الجنة على حسب أعمالهم . وأما الظلمة المكذبون بالله ورسوله وكتبه والمنحرفون عن دينه فيجثون فيها خزايا مهانين .

(١) سورة مريم : آية (٧٢) .

قال أبو الفرج بن رجب : (لما ماتت النوار امرأة الفرزدق ودفنت وقف الفرزدق على قبرها وأنشد بحضور الحسن رحمه الله هذه الأبيات، قال :

أخاف وراء القبر إن لم يعافني	أشد من القبر التهاباً وأضيماً
إذا جاءني يوم القيامة قائد	عنيف وسواق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من	إلى النار مغلول القلادة أزرقا
يساق إلى نار الجحيم مسربلا	سرايل قطران لباساً محرقا
إذا اشربوا فيها الصيد	يذوبون من حر الصيد تمزقا
فبكى الحسن رحمه الله (١) .	

---

(١) التخويف من النار والتعريف بحال البوار: ص ٩٧ .

المبحث الثامن

القصاص من عدل الله تعالى

## المبحث الثامن

### القصاص من عدل الله تعالى

قال الله تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَيْكُمْ فِيهَا أَنْ أَنْفُسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنِ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١).

﴿ وَكُنْتُمْ عَلَيْكُمْ فِيهَا أَنْ أَنْفُسَ بِالنَّفْسِ ﴾ : أي فرضنا على اليهود في التوراة أن من قتل نفساً ظلماً قتل بها قصاصاً.

﴿ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ﴾ : ومن فقا عيناً فقئت عينه.

﴿ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ ﴾ : ومن جدد أنفاً جدد أنفه .

﴿ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ ﴾ : ومن قطع أذناً قطعت أذنه .

﴿ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ ﴾ : ومن قلع سنّاً قلعت سنّه .

﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ : ومن جرح غيره ظلماً، اقتص منه مثل الجرح.

﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾ : فمن عفا عن الجارح وتجاوز عن حقه فهو هدم لذنوب المجرورح.

(١) سورة المائدة : آية (٤٥) .



﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٥) : ومن ترك الحكم بما أنزل فهو ظالم جائر عن حكم الله .

قال ابن كثير : (هذه الآية مما وبّخت به اليهود وقرعوا عليه فإن عندهم في نص التوراة أن النفس بالنفس وهم يخالفون ذلك عمداً وعناداً ويقيدون النضري من القرطي ولا يقيدون القرطي من النضري بل يعدلون إلى الدية كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن وعدلوا إلى ما اصطالحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار ولهذا قال هناك : ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٥) لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم وعناداً وعمداً، وقال هاهنا : ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٥) لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر بالعدل والتسوية بين الجميع فيه فخالفوا وظلموا وتعدوا على بعضهم بعضاً، إلى أن قال : وقد استدل كثير ممن ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكي مقررّاً ولم ينسخ كما هو المشهور عن الجمهور... والحكم عندنا على وفقها في الجنايات عند جميع الأئمة...) (١) اهـ.

وفي الحديث عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً) (٢).

(١) تفسير القرآن العظيم : ج ٢، ص ٦١، ٦٢ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الديات حديث رقم ٦٨٦٢، ورقم ٦٨٦٣ .

وعنه أيضاً قال : (إنَّ من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حلّه) (١).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : (أول ما يقضى بين الناس في الدماء) (٢).

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض) (٣).

إن من عدل الله تعالى ورحمته بعباده أن شرع العقوبة الدنيوية فيما يحصل من تعديات، وذلك في القصاص من المعتدي ضرباً على الأيدي المعتدية وحفاظاً على الأنفس الآمنة، وكل شيء بحسبه كما وضحته الآية .

فالإنسان له كرامته، وكل عضو من أعضائه له مكانته، وله حقه في البقاء في جسد العبد، وهذا حماية من الله تعالى له من تعدي المعتدين وعبث العابثين، فبحصول القصاص من قتل أو قطع أو غيره، إنما هو إزالة أشياء فاسدة تضر بالمجتمع، فإذا نفذ ذلك حصل الأمن والاستقرار .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الديات ، حديث رقم ٦٨٦٢، ٦٨٦٣ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الديات ، حديث رقم ٦٨٦٤ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب الديات ، حديث رقم ٦٨٦٨ .

وقد بيّن تعالى أنه لا بد من نصرّة المقتول ظلماً، كما نهى عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ (١).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يحل دم امريء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة) (٢).

إن كتاب الله الكريم وسنة رسوله الأمين مملوءان بالنصوص الشرعية التي فيها حماية الأفراد والمجتمعات من الظلم والآثار المترتبة من جزاء وعقوبة في الدنيا وبعد الممات، فليكن لكل عبدٍ مسلم وقفة عند حدود الله تعالى وعدم تجاوزها حتى يسلم من العقوبة الدنيوية والأخروية.

هذا هو الحكم الربّاني الذي حمى العباد من الأيادي المتطاولّة من الأيادي القوية الباغية، فلا يفرّق بين شريف ولا وضيع بل القصاص على الجميع على حدّ سواء لتبقى المجتمعات في أمن وأمان وسلامة وإسلام، لا تجد ما ينغص عليها حياتها ولا تعرف شيئاً يسمى الظلم ما دامت الشريعة الغراء تنفذ أحكامها، فيسير الراكب في مناكب الأرض لا يخشى على نفسه إلا الله.

(١) سورة الإسراء: آية (٣٣).

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الديات، حديث رقم ٦٨٧٨، ورواه مسلم في صحيحه كتاب القسامة حديث رقم ١٦٧٦.

## **الباب الثاني**

### **شرع الله الحكيم وأثره في حماية المجتمع الإسلامي من الظلم**

وفيه فصول :

**الفصل الأول : تعظيم حرمة المسلمين وبيان حقوقهم .**

**الفصل الثاني : تحريم الظلم ووجوب رد المظالم .**

**الفصل الثالث : نصرة المظلوم وإجابة دعوته .**

**الفصل الرابع : التحذير من الركون إلى الظلمة ومخالطتهم وموالاتهم.**

## الفصل الأول

### تعظيم حرّات المسلمين وبيان حقوقهم

وفيه مباحث :

المبحث الأول: السخرية والتناز .

المبحث الثاني : المحافظة على حقوق المسلمين .

المبحث الأول

السخرية والتنايز

## المبحث الأول

### السخرية والتنازع

قال الله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا فَسَاءً مِّنْ فَسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١) .

يخاطب المولى تعالى عباده المؤمنين الذين صدقوا بالله ورسوله أن لا يهزأ مؤمن من مؤمن ولا يحتقره فلربما يكون المهزوء به خيراً من المستهزئ ، وكذا عطف -تعالى- بنهي النساء عن هذه الفعلة وهذا من أهمية هذا الأمر حتى يجتنبه الرجال والنساء على حد سواء. ونهى أيضاً عن عيب المؤمنين بعضهم بعضاً والطعن في أعراضهم. وأن لا يتداعوا بالألقاب التي يسوء الإنسان سماعها كأن يكون للإنسان أكثر من اسم فيدعى بما يسوؤه من هذه الأسماء وكان ذلك قبل الإسلام، ثم جاء الإسلام وأخبر الرسول ﷺ عن ذلك وأن البعض يغضب إذا دُعي بما يكره من هذه الأسماء، فنزلت هذه الآية ، وهذا عام فيمن يتنازعون بالألقاب في كل زمان وفي وقتنا الحاضر، فإنه كثيراً ما يحصل ذلك بين الناس فليحذر المؤمنون من هذا وليتوبوا ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون. أي : المتجاوزون الحد والدائبون على هذه الصفات الخسيسة التي فيها إيذاء للمؤمنين

(١) سورة الحجرات : آية (١١) .

بكسر معنوياتهم، وقد غيّر الرسول ﷺ أسماء وألقاباً كانت في الجاهلية لأصحابها لما فيها من وصف ذميم .

فعن أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول : (لا يرمي رجل رجلاً رجلاً بالفسوق، ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك) (١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: (لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا لعاناً ولا سبّاباً، كان يقول عند المعتبة: "ماله ترب جبينه") (٢).

قال ابن كثير : (قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل حدثنا داود بن أبي هند عن الشعبي قال حدثني أبو جيرة بن الضحاك قال فينا نزلت في بني سلمة (ولا تنابزوا بالألقاب) قال قدم رسول الله ﷺ بالمدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحد منهم باسم من تلك الأسماء قالوا يا رسول الله إنه يغضب من هذا فنزلت (ولا تنابزوا بالألقاب) ورواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل عن وهيب عن داود به) (٣).

وعن المعرور هو ابن سويد عن أبي ذر قال: رأيت عليه برداً وعلى غلامه بُردان فقلت: لو أخذت هذه فلبسته كانت حلة، وأعطيته ثوباً آخر، فقال: كان بيني وبين رجل كلام، وكانت أمه أعجمية، فنلت منها، فذكرني إلى النبي ﷺ فقال

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب ، حديث رقم ٦٠٤٥ .

(٢) نفس المرجع حديث رقم ٦٠٣١ .

(٣) تفسير القرآن العظيم: ج ٤، ص ٢١٢ .



لي أسابيت فلاناً؟ قلت: نعم. قال: أفنلت من أمه؟ قلت: نعم. قال: إنك امرؤ فيك جاهلية. قلت: على حين ساعتي هذه من كبر السن؟ قال: نعم، هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس ولا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه" (١).

قال ابن حجر: (وقد جاء الشرع بالتسوية بين المسلمين في معظم الأحكام وأن التفاضل الحقيقي بينهم إنما هو بالتقوى، فلا يفيد الشريف النسب نسبة إذا لم يكن من أهل التقوى ويتنفع الوضع النسب بالتقوى كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾ (٢).

قال سيد قطب: (إن المجتمع الفاضل الذي يقيمه الإسلام يهدي القرآن مجتمع له أدب رفيع ولكل فرد فيه كرامته التي لا تمس، وهي من كرامة المجموع، ولز أي فرد لمز لذات النفس؛ لأن الجماعة كلها واحدة والقرآن في هذه الآية يهتف للمؤمنين بذلك النداء الحبيب: (يا أيها الذين آمنوا)، وينهاهم أن يسخر قوم من قوم أي رجال برجال فلعلهم خير منهم عند الله، أو أن يسخر نساء من نساء فلعلهن خير منهن في ميزان الله،....، وفي التعبير إحياء خفي بأن القيم الظاهرة

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، حديث رقم ٦٠٥٠، وقال ابن حجر في الفتح ج ١، كتاب الإيمان حديث رقم ٣٠ ص ٨٦ غلام أبي ذر المذكور لم يسم ويحتمل أن يكون أبا مراوح مولى أبي ذر، وذكر مسلم في الكنى أن اسمه سعد، وسابب أبو ذر بلالاً بقوله: يا ابن السوداء وكانت أمه أعجمية.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ١٠، ص ٤٦٨، وقد ذكر أن الرجل الذي في الحديث هو بلال المؤذن واسم أمه حمامة.

التي يراها الرجال في أنفسهم ويراها النساء في أنفسهن ليست هي القيم الحقيقية التي يوزن بها الناس، فهناك قيم أخرى قد تكون خافية عليهم، يعلمها الله، ويزن بها العباد، وقد يسخر الرجل الغني من الرجل الفقير، والرجل القوي من الرجل الضعيف، والرجل السوي من الرجل الموءوف، وقد يسخر الذكي الماهر من الساذج الخام، وقد يسخر ذو الأولاد من العقيم، وذو العصبية من اليتيم... وقد تسخر الجميلة من القبيحة، والشابة من العجوز، والمعتدلة من المشوهة، والغنية من الفقيرة...<sup>(١)</sup> اهـ.

إن شرع الله الحكيم جاء بقيمه العالية ومبادئه البناءة، جاء ليبنى مجتمعاً تسوده الأخوة والوداد وتجمعه عواطف المحبة والإخاء، جاء عندما طغى الغناء على البشرية جمعاء وتلطخوا بوحل الدناءة والخسة، فلا حق يقام، ولا مظلوم ينصف، ولا فقير تقال عثرته ويواسى في محتته، ولا احترام للأعراض، ولا للأموال، ولا للدماء، لقد حمى الله الدماء والأعراض والأموال، من طمع الطامعين، ومن أيدي العابثين، فما كان من شيء فيه منقصة للإنسان إلا ووضعه الإسلام، وذم فاعله، وندد بذلك واستبعده، ووضع جزاء وعقوبة على أولئك المعتدين وجاء ذلك قرآناً يقرأ في كتاب الله تعالى وتوضيحاً توضحه سنة المصطفى ﷺ.

(١) في ظلال القرآن: ج ٦، ص ٣٣٤٤.

﴿وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلَاظٍ مَّهِينٍ﴾ (١٠) هَمَزَ مَشَاءَ بَنِيمٍ (١١) مَنَعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) (١)  
ويقول تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ  
أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) (٢).

ويقول تعالى في ذم المنافقين، والذي كان اللمز من صفاتهم الذميمة، ولم  
يسلم أحد من شرهم حتى رسول الله ﷺ: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا  
مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَاهُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ (٥٨) (٣).

ويقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي  
الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾  
(٧٩) (٤).

في هذه الآيات بيان عن حال الظلمة واعتدائهم بالسخرية والمنابذة  
بالألقاب المشينة للمؤمنين، وهذا يتنافى مع الشرع الحكيم الذي عظم حرمت  
لا مسلمين والمحافظة على حقوقهم، حتى بأقل الأشياء ولو من المسلمين أنفسهم  
على إخوانهم الآخرين. فالمسلم له حرمة وكرامته حيًّا وميتًا.

عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (المسلم من سلم  
المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) (٥).

(١) سورة القلم: آية (١٠-١٢).

(٢) سورة الهمزة: آية (٤-١).

(٣) سورة التوبة: آية (٥٨).

(٤) سورة التوبة: آية (٧٩).

(٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيثار حديث رقم (١٠).

## المبحث الثاني

### المحافظة على حقوق المسلمين

## المبحث الثاني

### المحافظة على حقوق المسلمين

عن البراء رضي الله عنه قال : (أمرنا النبي ﷺ بسبع ونهانا عن سبع، أمرنا باتباع الجنائز، وعيادة المريض وإجابة الداعي، ونصر المظلوم، وإبرار القسم، ورد السلام، وتشميت العاطس، ونهانا عن أئنة الفضة وخاتم الذهب والحرير والديباج والقسي والاستبرق)<sup>(١)</sup>.

وبيّن النبي ﷺ في هذا الحديث الشريف الأخلاق الطيبة التي يجب أن يتصف بها المسلم ، ونهى عما يجب اجتنابه لمخالفته للأخلاق الطيبة التي يجب أن يكون عليها المسلم .

فأمرنا باتباع الجنائز وبيّن ما في ذلك من الأجر والثوبة .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من شهد الجنازة حتى يصلى فله قيراط، ومن شهد حتى تدفن كان له قيراطان. قيل: وما القيراطان؟ قال: مثل الجبلين العظيمين)<sup>(٢)</sup>.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز، حديث رقم ١٢٣٩، وله أطراف ذكرت في فتح الباري بعد ذكر هذا الحديث . والسابعة من المنهيات [المثيرة الحمراء] ذكرت في كتاب اللباس حديث ٥٨٦٣ وهي نوع من الحرير .

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز ٥١، ٥٣، ٥٦، والنسائي كتاب الجنائز ٥٤، ٧٩، وابن ماجه كتاب الجنائز ٣٤، وأحمد في المسند ٤٠١ / ٢ .

عيادة المريض: وهي زيارته، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: (إن المسلم إذا عاد أخاه المسلم لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع) (١).

إجابة الداعي: أي إلى الوليمة من عرس وغيره.

فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (إذا دعي أحدكم إلى الوليمة فليأتها) (٢).

وعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: (فكّوا العاني وأجيبوا الداعي، وعودوا المريض) (٣).

(ونصر المظلوم): وهذا موضع بحثنا، فنصرة المظلوم حق على كل مسلم وهو أن ترد عنه المظلمة قبل وقوعها وترفع عنه إذا وقعت به، ويؤخذ له حقه، ويؤخذ على يد الظالم، ويُرد عن الاعتداء ولا يكون هناك مجاملة مع الظلمة مهما كانت مكانتهم ومقامهم من رئاسة أو ثروة أو غيرها أو المكانات التي لها نظر عند الناس حتى لا يظلم أحد أحداً لتستقيم الأمور وتكون الحياة البشرية على نسق منتظم لا عوج فيه ولابغي ولا طغيان، ويكون القوي والضعيف سواء يعيشون في أمن ورخاء وعدالة الإسلام الذي يحفظ لكل ذي حق حقه.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب البر ٤٠، ٤١، ٤٢، والترمذي كتاب الجنائز ٢، وأحمد في المسند ٧٧٧/٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب النكاح، حديث رقم ٥١٧٣.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح حديث رقم ٥١٧٤.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (انصر- اخاك ظالماً أو مظلوماً، قالوا: يا رسول الله هذا نصره مظلوماً، فكيف نصره ظالماً؟ قال: تأخذ فوق يده)<sup>(١)</sup>.

قال ابن حجر: (قوله: قال: فتأخذ فوق يده: كنى به عن كفه عن الظلم بالفعل إن لم يكف بالقول، وعبر بالفوقية إشارة إلى الأخذ بالاستعلاء والقوة، وفي رواية معاذ عن حميد عند الإسماعيلي فقال: "يكفه عن الظلم فذلك نصره إياه" ولمسلم في حديث جابر نحو الحديث وفيه: "إن كان ظالماً فلينهه فإنه له نصره" قال ابن بطال: النصر عند العرب الإعانة، وتفسيره لنصر الظالم بمنعه من الظلم من تسمية الشيء بما يؤول إليه، وهو من وجيز البلاغة. قال البيهقي: (معناه أن الظالم مظلوم في نفسه فيدخل فيه ردع المرء عن ظلمه لنفسه حساً ومعنى، فلو رأى إنساناً يريد أن يجب نفسه لظنه أن ذلك يزيد مفسدة طلبه الزنا مثلاً منعه من ذلك وكان ذلك نصراً له، واتحد في هذه الصورة الظالم والمظلوم)<sup>(٢)</sup> اهـ.

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: (أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه)<sup>(٣)</sup>.

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب المظالم حديث رقم ٢٤٤٤.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب المظالم ج ٥، ص ٩٨.

(٣) رواه الترمذي كتاب الفتن حديث رقم ٢١٦٨، وقال حديث صحيح، ورواه أبو داود كتاب الملاحم ١٧، وأحمد في المسند ١/٧.

وعن جابر بن عبد الله قال: اقتتل غلامان غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار. فنادى المهاجر أو المهاجرون يا للمهاجرين ! و نادى الأنصاري: يا للأنصار فخرج رسول الله ﷺ فقال : (ما هذا دعوى أهل الجاهلية؟ قالوا: لا . يا رسول الله! إلا أن غلامين اقتتلا فكسع أحدهما الآخر، قال: "فلا بأس ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً. إن كان ظالماً فلينهه فإنه له نصر. وإن كان مظلوماً فلينصره" (١).

فكسع: أي ضرب دبره وعجزيته بيد أو رجل أو سيف أو غيره (٢).

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً أفرأيت إذا كان ظالماً فكيف أنصره؟ قال: تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره" (٣).

وسياتي التفصيل إن شاء الله تعالى في مبحث خاص "نصرة المظلوم وإجابة دعوته" (ورد السلام): وهي تحية المسلمين بين بعضهم البعض ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب البر والصلة، حديث رقم ٢٥٨٤ .

(٢) شرح النووي على مسلم ج ١٦ ، ص ١٣٢ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب الإكراه حديث رقم ٦٩٥٢ .



عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا، ألا أدلكم على أمر إذا أنتم فعلتموه تحاببتم؟ افشوا السلام بينكم) <sup>(١)</sup>.

(تشميت العاطس): أي إذا عطس الرجل يحمد الله فيشتمته السامع أي يقول له: يرحمك الله .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله، وليقل له أخوه أو صاحبه يرحمك الله، فإذا قال له يرحمك الله، فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم) <sup>(٢)</sup>.

فهذه حق من حقوق المسلم على أخيه المسلم ، فيها تقوى رابطة الإخاء والمحبة بين المسلمين حتى يكونوا دائماً على صلة وثيقة ببعضهم، وتتجدد أواصر القرب بين المسلم وأخيه فيكونوا على لقاء مستمر من تبادل المشاعر الدينية التي تجعل منهم كتلة مترابطة شعورها واحد وهدفها واحد .

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الاستئذان ، حديث رقم ٢٦٨٨، وقال حسن صحيح.

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الأدب حديث رقم ٦٢٢٤ .

## الفصل الثاني

### تحریم الظلم ووجوب رد المظالم

وفیه مبحثان :

المبحث الأول : تحریم الظلم .

المبحث الثاني : رد المظالم .

المبحث الأول

تحريم الظلم

## المبحث الأول

### تحريم الظلم

الظلم مرتعه وخيم وعاقبته سيئة، ففيه خراب الديار، وعدم الأمن والاستقرار، فأخبثه وأعظمه الشرك بالله تعالى والذي هو أكبر الكبائر ومن مات على ذلك فمآله إلى النار وبئس القرار، خالداً مخلداً فيها ثم تأتي المظالم الأخرى، وكل مظلمة على قدرها. والله سبحانه توعده الظلمة فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (١).

وقد حرم الله تعالى الظلم على نفسه فقال تعالى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٢)، وقال تعالى في الحديث القدسي (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي- وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا...) (٣).

فأكل أموال الناس بالباطل ظلم، وبخس المكيال والميزان ظلم، والغصب والسرقة والاختلاس، والتغريب، والغيبة، والنميمة، وكل ما فيه حقوق للآخرين ظلم، لا يكفره صلاة ولا صدقة، ولا أي عمل من الأعمال الخيرية حتى ولا التوبة والاستغفار، إلا بالتحلل من أصحاب المظالم، لما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله

(١) سورة الكهف: آية (٢٩).

(٢) سورة فصلت: آية (٤٦).

(٣) رواه مسلم في صحيحه كتاب البر ٥٥، حديث رقم ٢٥٧٧.

ﷺ قال : (أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال :  
(إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا  
وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته  
وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى- ما عليه، أخذ من خطاياهم  
فطرح عليه ثم طرح في النار)<sup>(١)</sup>.

وهناك ظلم وهو تعدي العبد على محارم الله تعالى وما عنه نهى وزجر، فهذه  
تكفره التوبة والاستغفار والأعمال الصالحة .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : "الدواوين عند الله  
عز وجل ثلاثة : ديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وديوان لا يترك الله منه شيئاً، وديوان لا  
يغفره الله. فأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك بالله، قال الله عز وجل : ﴿مَنْ  
يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ ، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً فظلم  
العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم يتركه أو صلاة تركها فإن الله عز وجل يغفر  
ذلك ويتجاوز إن شاء ، وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً، فظلم العباد  
بعضهم بعضاً القصاص لا محالة" <sup>(٢)</sup>.

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب ٥٩ ، حديث رقم ٢٥٨١ .

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند ٦ / ٢٤٠ ، وضعفه الألباني في المشكاة ٥١٣٣ ، وقد ذكر حديث أنس مرفوعاً  
في سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٩٢٧ ، بلفظ "الظلم ثلاثة" وإسناده ضعيف وقد حسنه باعتبار حديث  
عائشة الذي معناه شاهداً له .

لقد شرع الله تعالى في هذا الدين الحنيف ما فيه الخير للعباد ورغبهم فيه وحضهم عليه، وأبان لهم ما فيه الشر ونهاهم عنه، وجاء ذلك واضحاً في كتابه تعالى وسنة نبيه ﷺ، فالمسلمون أخوة. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة" (٢).

فالمسلمون مكلفون جميعاً بما أوجب الله عليهم من الطاعة والالتزام بذلك، والابتعاد عما نهاهم الله عنه من المعاصي والحذر منها، والشرعية الغراء توضح وتفصل للإنسان دينه قولاً وفعلاً وتقريراً حتى لا يقع أحد في حرام ويظنه حلالاً ويقع في بدعة ويظنها سنة، أو في محذور ويظنه مسنوناً، فالبيان كان شافياً ووافياً وكافياً. فمن خرج على ذلك فهو الظالم، والمولى عز وجل يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته وأذاقه عذابه الشديد جزاء ظلمه وطغيانه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٣). وشرع الله الحكيم فيه تحريم الظلم ووجوب رد المظالم.

(١) سورة الحجرات: آية (١٠).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة ٥٨، حديث رقم ٢٥٨٠.

(٣) سورة يونس: آية (٤٤).

فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطي بها في الدنيا ويميزي بها في الآخرة. وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا قضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها" (١).

وفي رواية أنه ﷺ قال: "إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة من الدنيا. وأما المؤمن فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة ويعقبه رزقاً في الدنيا على طاعته" (٢).

قال النووي: (أجمع العلماء على أن الكافر الذي مات على كفره لا ثواب له في الآخرة ولا يجازى فيها بشيء من عمله في الدنيا متقرباً إلى الله تعالى. وصرح في هذا الحديث بأن يطعم في الدنيا بما عمله من الحسنات أي بما فعله متقرباً به إلى الله تعالى مما لا يفتقر صحته إلى النية كصلة الرحم والصدقة والعق والضيافة وتسهيل الخيرات ونحوها. وأما المؤمن فيدخر له حسناته وثواب أعماله إلى الآخرة ويميز بها مع ذلك أيضاً في الدنيا ولا مانع من جزائه بها في الدنيا والآخرة وقد ورد الشرع به فيجب اعتقاده) (٣).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب المنافقين ٥٦ حديث رقم ٢٨٠٨، وأحمد في المسند ١٢٣/٣.

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب المنافقين ٥٧.

(٣) صحيح مسلم شرح النووي كتاب صفة القيامة والجنة والنار المجلد التاسع الجزء السابع عشر- ص ١٥٠.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : اختصمت الجنة والنار إلى ربهما فقالت الجنة: يا رب مالها لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطتهم، وقالت النار: يعني أوثرت بالمتكبرين. فقال الله تعالى للجنة: "أنت رحمتي".

وقال للنار: أنت عذابي، أصيب بك من أشياء، ولكل واحدة منكم ملؤها، قال: فأما الجنة فإن الله لا يظلم من خلقه أحداً وإنه ينشئ للنار <sup>(١)</sup> من يشاء فيلقون فيها فتقول هل من مزيد ثلاثاً حتى يضع فيها قدمه فتمتلئ، ويرد بعضها إلى بعض وتقول قط قط قط <sup>(٢)</sup>.

في هذا الحديث بيان أن الله لا يظلم من خلقه أحداً فهو ينشئ للجنة خلقاً ويدخلهم إياها ويضع قدمه في النار فتمتلئ حيث يرد بعضها إلى بعض. وهذا من واسع رحمته بعباده وتحريمه الظلم على نفسه تعالى وجعله بين عباده محرماً. والمظالم إذا لم ترد إلى أصحابها في الدنيا أو يتحلل منهم كان القصاص يوم القيامة.

---

(١) ذكر في التعليق على هذا الحديث: "جزم ابن القيم بأن هذا غلط من الراوي، وصوابه ينشئ للجنة، كما تقدم برقم ٤٨٥٠ من طريق عبدالرزاق عن همام عن أبي هريرة، وكما في رقم ٧٣٨٤ من طريق قتادة عن أنس فتبين منها أن الراوي هنا سبق لفظه من الجنة إلى النار، ويسمونه في مصطلح الحديث المنقلب، فتح الباري ج ١٣، ص ٤٣٤.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب التوحيد ٢٥، حديث رقم ٧٤٤٩.



فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحللها منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم؛ من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرح عليه" <sup>(١)</sup>.

وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة. فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدي بمنزله في الجنة منه بمنزله في الدنيا" <sup>(٢)</sup>.

والقصاص هو من الحسنات حيث في ذلك الموقف لا دينار ولا درهم بل حفاة عراة فيؤخذ من حسنات الظالم ويعطي المظلوم، فإن فنيت حسناته أخذ من سيئات خصمائه ووضع عليه، وأول ما يقضي- الله تعالى في الدماء لأهميتها وعظم حرمتها عند الله تعالى لما ورد في الحديث عن عبد الله رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : "أول ما يقضى بين الناس في الدماء" <sup>(٣)</sup>.

من هذه الأحاديث يظهر لنا عظم حقوق المسلم وأن الله سبحانه وتعالى لا يترك منها شيئاً لا صغيراً ولا كبيراً فإذا لم يتخلص الإنسان من المظالم في الدنيا فلا بد من اقتصاصها منه يوم القيامة وهذا من عدل الله تعالى ورحمته بعباده حتى لا

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق ، حديث رقم ٦٥٣٤ ، ورواه أحمد في المسند ١٣/١٣ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق حديث رقم ٦٥٣٥ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق حديث رقم ٦٥٣٣ .

يطغى أحد على أحد في الدنيا فلا ملك ينفعه ملكه، ولا أمير تنفعه أمارته، ولا قاض تنفعه مكائته، ولا غني ينفعه غناه، لا أحد يجد ما يغني عنه من الله شيئاً إلا الأعمال الصالحة .

فالخسارة التي لا عوض لها هي أن يقدم العبد على ربه بحسنات مثل الجبال، ولكنه في الدنيا أكل أموال الناس، وسفك دماءهم، واعتدى عليهم بالضرب، وغير ذلك مما لا يحل له، فتؤخذ حسناته وتعطى لأولئك الذين اعتدى عليهم في الدنيا .

عن ابن هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع"، فقال : "إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فئت حسناته، قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرح عليه، ثم طرح في النار"<sup>(١)</sup>.

وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : "ثلاثة يحبهم الله، وثلاثة يبغضهم الله، فأما الذين يحبهم الله: فرجل أتى قوماً فسألهم بالله ولم يسألهم بقراءة بينه وبينهم، فمنعوه فتخلف رجل بأعقابهم فأعطاه سرّاً لا يعلم بعطيته إلا الله، والذي أعطاه، وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم ما يعدل به نزلوا فوضعوا

(١) رواه في صحيحه كتاب البر ٥٩ ، حديث رقم ٢٥٨١ ، والترمذي كتاب القيامة ٢ .

رؤوسهم، فقام أحدهم يتملّقني ويتلو آياتي. ورجل كان في سرّية فلقى العدو فهزموا وأقبل بصدّره حتى يقتل أو يفتح له. والثلاثة الذين يبغضهم الله : الشيخ الزاني، والفقير المختال، والغني الظلوم"<sup>(١)</sup>.

قال الإمام الحافظ أبو العلي المباركفوري :

("الشيخ الزاني" يحتمل أن يراد الشيخ الشبية ضد الشاب و"إن يراد به المحصن ضد البكر كما في الآية المنسوخة الشيخ والشيخة إذا زنيا فأرجوهما البتة نکالاً من الله والله عزيز حكيم. و"الفقير المختال" أي المتكبر، و"الغني الظلوم" أي كثير الظلم في المثل وغيره. وإنما خص الشيخ وأخواه بالذكر لأن هذه الخصال فيهم أشد مذمة وأكثر نكرة)<sup>(٢)</sup> اهـ.

---

(١) رواه الترمذي في كتابه صفة الجنة حديث رقم ٢٥٦٨ وقال حديث صحيح، ورواه النسائي كتاب الزكاة ٧٥، ورواه الإمام أحمد في المسند ١٥٣/٥ .

(٢) تحفة الأحمدي بشرح جامع الترمذي ج ٧، ص ٢٩٣ .

المبحث الثاني

رد المظالم

## المبحث الثاني

### رد المظالم

إن شريعتنا المطهرة عندما تحرم الظلم فإنها توجب رد المظالم حتى تطهر النفوس وتزكو: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (١٠) أي : يزكي نفسه بطاعة الله تعالى ويطهرها من الأخلاق الدنيئة والردائل.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء) (١).

وهذا يوم القيامة يوم الجزاء والحساب عندما يكون فصل القضاء حتى بين الحيوانات والكافر ينظر ذلك الأمر العظيم ويرى طريقه إلى النار، وبعد القصاص بين الحيوانات يقول لها الرب سبحانه كوني تراباً فتكون تراباً، فيود الكافر أنه يكون تراباً ليسلم من عذاب الله تعالى .

قال ابن كثير عند قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُنْظَرُ الْمُرءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾ (٢).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب البر ، حديث رقم ٢٥٨٢ ، والترمذي كتاب القيامة ٢ ، والإمام أحمد في المسند ٢/ ٢٣٥ .

(٢) سورة النبأ آية ٤٠ .

(يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا فيفصل بينها بحكمة العدل الذي لا يجوز حتى إنه ليقصص للشاة الجلهاء من القرناء فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها كوني تراباً فتصير تراباً فعند ذلك يقول: ﴿يَلَيِّنِي كُتُّ تُرَابًا﴾. أي كنت حيواناً فأرجع إلى التراب ، وقد ورد معنى هذا في حديث الصور المشهور (١).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : "من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين" (٢).

وعن سالم عن أبيه رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : "من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين" (٣).

إذا كان هذا جزاء من ظلم قدر شبر من الأرض فكيف من يظلمون المسافات الطويلة من الأرض ويأخذون حقوق الناس بالباطل بحكم السلطة أو القوة أو المكانة أو طلاقة اللسان في الحجة ؟

أما يعلمون أن المرجع والمصير إلى الله تعالى ملك الملوك والذي سيحاسب كلاً بعمله وبما قدم في حياته الدنيا ! وإن في هذين الحديثين لزجر ووعيد لمن ظلم الناس وأكل حقوقهم.

(١) تفسير القرآن الكريم ، ج ٤ ، ص ٤٦٦ ..

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب المظالم ١٣ ، حديث رقم ٢٤٥٣ ، ومسلم في صحيحه كتاب المساقاة ١٤٢ ، والدارمي كتاب البيوع ٦٤ ، والإمام أحمد في المسند ١ / ١٨٧ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب المظالم حديث رقم ٢٤٥٤ .

عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : "إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً بقوله فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها" (١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه" (٢).

قال ابن حجر : (قوله : "من عرضه شيء" أي من الأشياء، وهو من عطف العام على الخاص فيدخل فيه المال بأصنافه والجراحات حتى اللطمة ونحوها) (٣).

إن في الدنيا مهلة للعبد ما دام على قيد الحياة ليرجع عن غيّه وتعدياته وتماديهِ وترّهاته قبل أن يوافيه الأجل، والنفوس مرتّنة بحقوق الآخرين لظلمه لهم وأكل أموالهم بالباطل .

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الشهادات ٢٧، حديث رقم ٢٦٨٠، والأحكام ٢٠، والخيل ١٠، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الأقضية ٤، وأبو داود أقضية ٧، والترمذي أحكام ١١، والنسائي: قضاة ١٣، وابن ماجه: أحكام ٥، ومالك في الموطأ أقضية ١، وأحمد في المسند ٦/٢٠٣ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب المظالم، حديث رقم ٢٤٤٩ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري : ج ٥، ص ١٠١ .

عن أبي قتادة الحارث بن ربعي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قام فيهم فذكر لهم :  
 "أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال"، فقام رجل فقال: يا رسول  
 الله! أرأيت إن قتلت في سبيل الله يكفر عن خطيائي؟ فقال له رسول الله ﷺ :  
 "نعم. إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر"، ثم قال رسول  
 الله ﷺ : "كيف قتلت؟" قال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر خطيائي؟ فقال  
 رسول الله ﷺ : "نعم. وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر إلا الدين . فإن جبريل  
 عليه السلام قال لي ذلك" <sup>(١)</sup> .

فالدين حق من حق الآدميين، والعبد مطالب بالحقوق ولا يعفى منها لا  
 بتوبة ولا بموت فلا بد من إرجاع الحقوق لأصحابها أو التحلل من ذلك.

عن عائذ بن عمرو المزني أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال  
 في نفر. فقالوا: والله! ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها قال: فقال  
 أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبي ﷺ فأخبره . فقال : "يا  
 أبا بكر! لعلك أغضبتهم. لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك" <sup>(٢)</sup> . فأتاهم أبو  
 بكر فقال: يا إخوتاه! أغضبتكم؟ قالوا: لا . يغفر الله لك يا أخي .

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة ١٢٧، حديث رقم ١٨٨٥، والترمذي كتاب الجهاد ٣٣،  
 والنسائي كتاب الجهاد ٣٢، ومالك في الموطأ جهاد ٣١ .

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة ١٧٠، حديث رقم ٢٥٠٤، والإمام أحمد في المسند  
 ٦٤/٥ .



هؤلاء الرجال الذين اختارهم الله لصحبة رسوله ﷺ يراعون حقوق الآخرين ويردون ما يرون أنه حق غيرهم عندما يعرفون ذلك أو يخبرون به. فأبو بكر ﷺ تكلم مع سلمان وصهيب وبلال بكلام ليس فيه شيء من التعدي أو هضم الحقوق، ولكن نبى هذه الأمة محمداً ﷺ كان دقيقاً وحريصاً وبالمؤمنين رؤوف رحيم، فخشي أن يكون أبو بكر في مقالته أغضب هؤلاء النفس وهذا مما لا يرضاه، ومن ناحية أخرى يخشى على أبي بكر أن يكون قد وقع في أمر يغضب عليه ربه، وهو لا يرضى هذا لأبي بكر ﷺ .

فلننظر إذا كان الأمر يصل هذه الدقة في المحاسبة والمحافظة على حقوق الآخرين، وإرجاعها لهم إن وجدت أي إذا وقع في شيء من ذلك فكيف بالتعدييات الظاهرة والغمط والغضب واستعمال القوة واغتنام فرصة السلطة؟ الشريعة الإسلامية الخالدة لم تترك الضعيف فريسة للقوي بل عظمت أمره، ونددت بالاعتداء عليه، بل رغبت في الإحسان إليه ولو أن يلقي المسلم أخاه بوجه طليق .

عن أبي ذر ﷺ قال: قال لي النبي ﷺ: "لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق" (١).

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة ١٤٤ ، حديث رقم ٢٦٢٦ .

كما أن العبد إذا نطق بشهادة الحق حرم دمه وماله وعرضه، وأصبح له مكانته بين إخوانه المسلمين .

عن عطاء بن يزيد أن عبيد الله بن عدي حدثه أن المقداد بن عمرو الكندي حليف بني زهرة حدثه وكان شهد بدماء مع النبي ﷺ أنه قال: يا رسول الله إن لقيت كافراً فاقتلنا فضر بيدي بالسيف فقطعها ثم لاذ بشجرة وقال: أسلمت لله أقتله بعد أن قالها؟ قال رسول الله ﷺ: لا تقتله فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال<sup>(١)</sup>.

قال ابن حجر: (قال الخطابي: معناه أن الكافر مباح الدم بحكم الدين قبل أن يسلم، فإذا أسلم صار مصان الدم كالمسلم، فإن قتلته المسلم بعد ذلك صار دمه مباحاً بحق القصاص كالكافر بحق الدين، وليس المراد إلحاقه في الكفر كما تقوله الخوارج من تكفير المسلم بالكبيرة، وحاصل اتحاد المنزلتين مع اختلاف المأخذ، فالأولة مثلك في صون الدم، والثاني أنك مثله في الهدر)<sup>(٢)</sup> اهـ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطلب دم امرئ بغير حق ليهرق دمه<sup>(٣)</sup>.

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الديات حديث رقم ٦٨٦٥ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري : ج ١٢ ، ص ١٨٩ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الديات ، حديث رقم ٦٨٨٢ .

لقد صان الإسلام الدماء المسلمة وحمى الأموال من الاعتداء، ونزّه الأعراض من التشويه والتدنيس، هكذا مسلك الشريعة وهدفها الباني الذي يجعل المسلمين كالبنيان المرصوص، أخوة متحابين، تعاطف وصفاء، لا رفعة لحاكم على محكومين، ولا ميزة لأحد على أحد إلا بالتقوى، أكرمهم عند الله أتقاهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾<sup>(١)</sup> إن هذا يكون بإرجاع النفس عن اعتدائها إذا هي بغت على الآخرين، ورد الحقوق، والتوبة إلى الله عز وجل .

بهذا يصبح المؤمنون على هدى من الله تعالى من أمورهم لا يطغى أحد على أحد ولا يظلم أحد أحداً يهتدون بكتاب الله تعالى ويستنون بسنة محمد ﷺ .

---

(١) سورة الحجرات: آية (١٠) .

## الفصل الثالث

### نصرة المظلوم وإجابة دعوته

وفيه مباحث :

المبحث الأول : إعلان المظلوم ظلامته .

المبحث الثاني : الفرار بالدين من جور الظلم .

المبحث الثالث : نصرة المظلوم .

المبحث الرابع : استجابة دعوة المظلوم .

المبحث الأول

إعلان المظلوم وظلامته

## المبحث الأول

### إعلان المظلوم ظلامته

يقول الله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (١).

ذكر ابن جرير اختلاف القراء في قراءة (إلا من ظلم) فقال: (قرأته عامة قراء الأمصار بضم الظاء، وقرأ بعضهم بفتحها، وكذا اختلف في المعنى).

فبعد ذكر أقوال الجميع واختلافاتهم قال رحمه الله تعالى: (وأولى القراءتين بالصواب في ذلك قراءة من قرأ (إلا من ظلم) بضم الظاء لإجماع الحجة من القراءتين بالصواب، فالصواب في تأويل ذلك، لا يحب الله أيها الناس أن يجهر أحد لأحد بالسوء من القول (إلا من ظلم) بمعنى: إلا من ظلم فلا حرج عليه أن يخبر بما أسىء إليه، وإذا كان ذلك معناه: دخل فيه إخبار من لم يقرأ أو أسىء قراه، أو نيل بظلم في نفسه أو ماله عنوة من سائر الناس وكذلك دعاؤه على من ناله بظلم أن ينصره الله عليه؛ لأن في دعائه عليه إعلاماً منه لمن سمع دعاءه عليه بالسوء له....) (٢) اهـ.

---

(١) سورة النساء: آية (١٤٨).

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج٦، ص ٤، الطبعة الثالثة للحلبي.

فالمولى عز وجل لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء فقد أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً، ما يلفظ العبد من قول إلا لديه رقيب عتيد يسجل ما يصدر منه طيباً أو خبيثاً، قولاً أو فعلاً. ومع هذا فقد بين لنا تعالى بأنه لا يحب الجهر بالسوء من القول: أي يبغيه ويمقتة ويعاقب عليه وذلك من الأقوال السيئة كالشتم والقذف والسب ونحو ذلك إلا من ظلم فله أن يبين ما وقع به من مظلمة ويجهر بذلك حتى تدفع عنه تلك المظلمة وإن صبر كان خيراً له كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ (١).

وفي الحديث عن أبي كبشة الأنماري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه، قال: ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزاً، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر أو كلمة نحوها..." (٢).

والله سميع بما يصدر من عباده من أقوال، عليم بأحوالهم وحركاتهم وسكناتهم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات عند الله يوم القيامة، وإياكم والفحش، فإن الله لا يحب الفحش ولا التحفش، وإياكم والشح فإنه دعا من قبلكم فاستحلوا محارمهم وسفكوا دماءهم وقطعوا أرحامهم" (٣).

(١) سورة الشورى: آية (٤٠).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الزهد، حديث رقم ٢٣٢٥، وقال حسن صحيح.

(٣) الفتح الرباني للساعاتي ج ٩، ص ١٣٥، وقال سنده جيد.

لهذا فقد كره سبحانه للجماعة المسلمة أن تشيع فيها حالة السوء والجهل  
بذلك وأن يقتصر الجهر على من وقع به الظلم ليدفع عنه ما وقع به. وفي الحديث  
تشنيع على الظالم ووصف حاله يوم القيامة، وتحذير من الفحش والتفحش لأن  
ذلك مدعاة للظلم، وكذا الشح، وقد بيّن الشارع عاقبته وهو استحلال ما حرم الله  
على ابن آدم ومقاطعة الأرحام.



## المبحث الثاني

الفرار بالدين من جور الظلم

## المبحث الثاني

### الفرار بالدين من جور الظلم

يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا نَبِّئْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١) (١).

في هذه الآية الكريمة نصرة للمظلوم من الله تعالى ووعد له بالجزاء الحسن، وهذا ما سيتبين لنا من أقوال المفسرين التي سنوضحها إن شاء الله تعالى .

لقد حصل للسلف الصالح من صحابة رسول الله ﷺ الكثير من اعتداءات كفار قريش بسبب إيمانهم بالله تعالى بدخولهم في دينه فأذاقوهم سوء العذاب، وأنواعه وأشكاله المتعددة، حتى أجبروهم على الفرار بدينهم وذلك بالهجرة في سبيل الله تعالى وتركوا ديارهم وقد حالوا بينهم وبين الأهل والولد والمال، وقد فارقوا ذلك رضي الله عنهم وقلوبهم تحنّ، وأشواقهم تتوق إلى بلادهم وعلى رأسهم نبي هذه الأمة عليه أفضل الصلاة والسلام، فلاقى أعظم مما لاقاه غيره من صحابته وأشد وأنكى .

فمن صحابته من هاجر إلى الحبشة فارّاً بدينه، ومنهم من بقي بمكة يوالي ويناصر محمداً ﷺ، ومنهم من يُعَذَّب ليل نهار وخاصة الذين يرزحون تحت سموم الرقّ، وليس لهم ردّ على أعدائهم أعداء الإسلام إلاّ كلمة أحد أحد أي الله واحد

---

(١) سورة النحل: آية (٤١) .

أحد حتى مات منهم من مات شهيداً في سبيل الله، ومنهم من سلم ولحق بمحمد ﷺ وصحبه الكرام، فصارت العاقبة الطيبة لهم بالنصر والتأييد والتمكين في الأرض، وظهورهم على أعدائهم، أمّا في الآخرة فهو النعيم المقيم في جنات رب العالمين.

قال تعالى: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١).

قال ابن كثير: (ينخر - تعالى - عن جزائه للمهاجرين الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان والذين هاجروا إلى الحبشة عند اشتداد الأذى بهم بمكة، ومن أشرفهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول، وأبو سلمة بن عبد الأسد في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة صديق وصديقة رضي الله عنهم وأرضاهم وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿لَنُؤْتِيَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾).

قال ابن عباس والشعبي وقتادة: المدينة - يعني هجرتهم إليها - وقيل الرزق الطيب قاله قتادة ولا منافاة بين القولين، وقد وقع فإنهم مكّن الله لهم في البلاد وحكّمهم على رقاب العباد وصاروا أمراء حكّاماً، وكل منهم للمتقين

(١) سورة التوبة: آية (١٠٠).

إماماً، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا (لو كانوا يعلمون) أي : لو كان المختلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادّخر لمن أطاعه واتبع رسوله، ولهذا قال هشيم بن العوام عمّن حدثه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول: خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ادّخر لك في الآخرة أفضل" (١).

قال القرطبي : عند قوله تعالى : ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ :

في الحسنة ستة أقوال :

الأول : نزول المدينة. قاله ابن عباس والحسن والشعبي وقتادة.

والثاني : الرزق الحسن. قاله مجاهد .

والثالث : النصر على عدوهم ، قاله الضحاك .

والرابع : أنه لسان صدق . حكاه ابن جريج .

والخامس : ما استولوا عليه من فتوح البلاد وصار لهم فيها من الولايات.

والسادس : ما بقي لهم في الدنيا من الشاء ، وما صار فيه لأولادهم من الشرف.

وكل ذلك اجتمع لهم بفضل الله والحمد لله (٢).

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج ٢، باختصار بسيط ص ٥٧٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ١٠ ، ص ١٠٧ .

المبحث الثالث

نصرة المظلوم

## المبحث الثالث

### نصرة المظلوم

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ  
الْأَشْهَادُ﴾ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) (١).

قال ابن جرير: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قيل في  
هذا وجهين كلاهما صحيح. معناه:

أحدهما: أن يكون معناه: إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا إما  
بإعلائنا لهم على من كذبنا وإظفارنا بهم، حتى يقهروهم غلبة، ويدلوهم بالظفر  
ذلة، كالذي فعل من ذلك بداود وسليمان، فأعطاهما من الملك والسلطان ما قهرا  
به كل كافر، وكالذي فعل بمحمد ﷺ بإظهاره على من كذبه من قومه.

ثانيهما: وإما بانتقامنا ممن حادهم وشاقهم بإهلاكهم وإنجاء الرسل ممن  
كذبهم وعاداهم، كالذي فعل - تعالى ذكره - بنوح وقومه، من تفريق قومه  
وإنجائه منهم، وكالذي فعل بموسى وفرعون وقومه، إذ أهلكهم غرقاً، ونجى  
موسى ومن آمن به من بني إسرائيل وغيرهم ونحو ذلك، أو بانتقامنا في الحياة  
الدنيا من مكذبيهم بعد وفاة رسولنا من بعد مهلكهم، كالذي فعلنا من نصرتنا  
شعياً بعد مهلكه بتسليطنا على قتلته من سلطنا حتى انتصرنا بهم من قتلته،  
وكفعلنا بقتلة يحيى من تسليطنا بختنصر عليهم حتى انتصرنا به من قتلته له،  
وكانتصارنا لعيسى من مريدي قتله بالروم حتى أهلكناهم به" (٢).

(١) سورة غافر: آية (٥١-٥٢).

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ٢١ ص ٧٤-٧٥ الطبعة الحلبية.

وقال ابن كثير : (ولهذا أهلك - عز وجل - قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط وأهل مدين وأشباهم وأضراهم ممن كذب الرسل وخالف الحق، وأنجى الله تعالى من بينهم المؤمنين فلم يهلك منهم أحداً، وعذب الكافرين فلم يفلت منهم أحداً) <sup>(١)</sup> اهـ.

قوله : (يوم يقوم الإلهاد) أي : في الآخرة بالحكم ، ولاتباعهم بالثواب، ولمن حاربهم بشدة العذاب .

(يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم) أي : في ذلك اليوم لا ينفع أهل الشرك اعتذارهم؛ لأنه قد أعذر إليهم في الدنيا بتبليغهم من قبل وسلهم فلا حجة لهم في الآخرة .

(ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) أي : لهم الطرد والبعد من رحمة الله تعالى فنزلهم النار وبئس القرار .

إن الظلم مهما كان نوعه لا بد أن يردى صاحبه ويضيع حسناته ويكسد تجارتها.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "رحم الله عبداً كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال، فجاءه فاستحلها قبل أن يؤخذ وليس ثم دينار ولا درهم فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته، وإن لم تكن له حسنات حملوه عليه من سيئاتهم" <sup>(٢)</sup>.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٨٣ .

(٢) رواه الترمذي كتاب القيامة حديث رقم ٢٤١٩ وقال حديث حسن صحيح .

فالشريعة الغراء تحضّ أبناءها ليكونوا جيلاً متراس البنيان لا تزعزعه الأقاويل الباطلة ولا تدخله الأيدي المخربة الضارّة بالمجتمع، فالمسلم يؤثر أخاه على نفسه فضلاً عن أن يلحق به أذى، أو يضره بما ينغص عليه حياته. كذا إذا وقع على أحد أذى بتعدّد من الغير فسرعان ما يزال ذلك الأذى ويعود الجرح ليلتئم ويصبح سليماً كما كان .

والله سبحانه وتعالى يقص علينا في القرآن الكريم حال السلف الصالح صحابة رسول الله ﷺ في أروع مثل يجب أن يتحلّى به المسلم الحق الذي يرجو ما عند الله تعالى والدار الآخرة فيقول : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (١) .

عندما ظلم من أسلم مع رسول الله ﷺ في مكة اضطهرهم المشركون إلى الخروج من وطنهم وأموالهم فخرجوا نصرّة لدين الله تعالى واتجهوا إلى المدينة دار الهجرة فاستقبلهم إخوانهم الأنصار ونصروهم بمواساتهم بالمال والزوجات ووقفهم صفّاً إلى جنبهم من نحور الأعداء الظلمة ، قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢) .

(١) سورة الحشر : آية (٨) .

(٢) سورة الحشر : آية (٩) .



ثم لا تزال أواصر المحبة في الدين تزداد ويتقارب المتحابون ويظهر عير ذلك بدعاء بعضهم لبعض ، قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١) .

نعم إنه الإيمان الذي تمكّن في القلوب فلم يكن غلّ لأحد ولا حسد بل جماعة متماسكة يشد بعضهم بعضاً متناصرين على الحق . حتى خرجوا من الدنيا وقد رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون . ويقول الله تعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٢) .

لا زلنا في ذكر بعض الآيات التي يظهر فيها نصر الله لعباده الذين ظلموا في الأرض من قبل الكفرة المكذبين بدينه تعالى ، من أجل أنهم يقولون : لا إله إلا الله ، فيشردون من أوطانهم ويمنعون من أموالهم وأولادهم ، ويقتلون بسبب ذلك ، ففي هذه الآية الكريمة يبين المولى عز وجل بأنه ناصر عباده المؤمنين على الظلمة المكذبين ، فأذن لهم بالجهاد ومقاتلة المشركين ، وقد أظهرهم الله تعالى على أعدائهم وكتب لهم النصر والرفعة والسؤدد في الدنيا حتى قرّت أعينهم بذلك وأعقب لهم النعيم في الآخرة .

(١) سورة الحشر : آية (١٠) .

(٢) سورة الحج : آية (٣٩) .

قال البغوي : (قال المفسرون: كان مشركوا أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ فلا يزالون من بين مضروب ومشجوج، ويشكون ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فيقول لهم : "اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال"، حتى هاجر رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل هذه الآية وهي أول آية أذن الله فيها بالقتال فنزلت هذه الآية بالمدينة)<sup>(١)</sup>.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم ليهلكن فأنزل الله ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾<sup>(٣١)</sup> الآية . فقال أبو بكر : لقد علمت أنه سيكون قتال"<sup>(٢)</sup>.

لقد حقق الله النصر لعباده المؤمنين عندما أذن لهم بالقتال وخاضوا المعارك مع أعدائهم فثبت أقدامهم وأنزل السكينة عليهم وأمدهم بجنود من عنده حتى تحقق نصرهم، وصارت الدولة على أعدائهم، ومكّن الله لهم في الأرض.

إن المظلوم له واجب على إخوانه القادرين في نصرته ممن ظلمه، فعن جابر ﷺ قال : اقتتل غلامان، غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار ، فنادى المهاجر أو المهاجرون ياللمهاجرين، ونادى الأنصار: يالأنصار فخرج رسول الله ﷺ فقال: (ما هذا دعوى أهل الجاهلية؟ قالوا: لا يا رسول الله! إلا أن غلامين اقتتلا فكسع أحدهما الآخر، قال : فلا بأس . ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً، إن كان ظالماً فلينه فيه فإنه له نصر، وإن كان مظلوماً فلينصره"<sup>(٣)</sup>.

(١) تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل : ج ٣ ، ص ٢٨٩ .

(٢) رواه الترمذي، كتاب التفسير حديث رقم ٣١٧١ وقال حديث حسن .

(٣) رواه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة حديث رقم ٢٥٨٤ .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: أمرنا النبي ﷺ بسبع ونهانا عن سبع<sup>(١)</sup>.  
وقد ذكر ﷺ ما أمرنا به "نصرة المظلوم".

قال ابن حجر: (هو فرض كفاية، وهو عام في المظلومين، وكذلك في الناصرين بناء على أن فرض الكفاية مخاطب به الجميع وهو الراجح، ويتعين أحياناً على من له القدرة عليه وحده إذا لم يترتب على إنكاره مفسدة أشد من مفسدة المنكر، فلو علم أو غلب على ظنه أنه لا يفيد سقط الوجوب وبقي أصل الاستحباب بالشرط المذكور، فلو تساوت المفسدتان تخير، وشرط الناصر أن يكون عالماً بكون الفعل ظلماً. ويقع النصر مع وقوع الظلم وهو حينئذ حقيقة، وقد يقع قبل وقوعه كمن أنقذ إنساناً من يد إنسان طالبه بهال ظلماً وهدده إن لم يبذله، وقد وقع بعد وهو كثير)<sup>(٢)</sup>.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قالوا: يا رسول الله هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً؟ قال: تأخذون فوق يديه)<sup>(٣)</sup>.

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز حديث رقم ١٢٣٩ وقد مرّ معناه في مبحث تعظيم حرّمات المسلمين وبيان حقوقهم.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب المظالم: ج ٥، ص ٩٨.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، حديث رقم ٢٤٤٤.

قال ابن حجر : ("لطيفة" ذكر المفضل الضبي في كتابه الفاخر أن أول من قال: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم، وأراد بذلك ظاهره وهو ما اعتادوه من حمية الجاهلية لا على ما فسره النبي ﷺ وفي ذلك يقول شاعرهم :

إذا أنا لم أنصر أخي وهو ظالم      على القوم لم أنصر أخي حين يظلم<sup>(١)</sup> اهـ

فالمظلوم هو الإنسان الذي تسلط عليه من هو أقوى منه في الجسم أو الكثرة أو السلطان في نفسه أو ماله أو عرضه ولم يستطع الدفاع عن ذلك. وهذا يتحتم على الآخرين نصرته برفع ما وقع عليه من ظلم أو دفع ذلك قبل أن يقع إذا علم ولا يعذر أحد إلا من لم يستطع فهذا ربما يكون في منزلة المظلوم إن عمل شيئاً، والله سبحانه وتعالى ذو القوة التي لا تقهر، لا بد أن يصب على الظالم سوط عذابه، إذا لم يرجع ويتب ويرد المظالم لأصحابها، وقد ذكرنا قبل قليل الحكم في رفع الظلم.

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب المظالم ج ٥ ، ص ٩٨ .

## المبحث الرابع

### استجابة دعوة المظلوم

## المبحث الرابع

### استجابة دعوة المظلوم

في الحقيقة أن العباد ليس لهم مرجع حقيقي إلا إلى الله تعالى خالقهم وعالم سرهم وعلايتهم فهو الذي يسدل عليهم النعم ، ويرفع عنهم النقم ، لا أحد غيره ، لكن العبد ظلوم جهول كما أخبر المولى عز وجل فقال : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (١) .

ومع هذا فالمولى عز وجل قد حفظ حقوق عباده ، ولا يرضى الظلم لأحد ؛ لأنه تعالى حرّم ذلك على نفسه وجعله بين عباده محرّماً ، فهو يسمع دعوة المظلوم وينصره ممن ظلمه ، ودعوة المظلوم لا ترد .

فعن أبي معبد عن ابن عباس عن معاذ بن جبل . قال أبو بكر: ربما قال وكيع: عن ابن عباس أنّ معاذاً قال: بعثني رسول الله ﷺ قال: "إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب. فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك، فاعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فاعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة،

---

(١) سورة الأحزاب : آية (٧٢) .

فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أنا الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنائهم فترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب" (١).

وعن زيد بن أسلم عن أبيه : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل مولى له يدعى هنيئاً على الحمى فقال: يا هنيئ أضمم جناحك عن المسلمين، واتق دعوة المسلمين فإن دعوة المظلوم مستجابة، وأدخل ربّ الصريمة، وربّ الغنيمة، وإيائي ونعم ابن عوف، ونعم بن عفان، فإنهما إن تهلك ماشيتهما يرجعا إلى نخل وزرع، وإن ربّ الصريمة وربّ الغنيمة إن تهلك ماشيتهما يأتني ببينه فيقول: يا أمير المؤمنين. أفتاركهم أنا لا أبالك؟ فالماء والكلاء أيسر عليّ من الذهب والورق، وأيم الله إنهم

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الزكاة ٦٣، جهاد ١٨٠، مظالم ٥، مغازي ٦، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان حديث رقم ١٩، واللفظ له، وأبو داود زكاة: ٥، والترمذي، زكاة ١، ٤٦، وابن ماجه: زكاة ١، والدارمي: زكاة ١، ومالك في الموطأ: دعوة المظلوم ١، وأحمد في المسند: ٢٣٣/١.

قال النووي: (قوله عن أبي معبد عن ابن عباس عن معاذ قال أبو بكر وربما قال وكيع عن ابن عباس أن معاذاً قال) هذا الذي فعله مسلم رحمه الله نهاية التحقيق والاحتياط والتدقيق فإن الرواية الأولى قال فيها معاذ . والثانية أن معاذاً وبين أن وَعَنْ فرق، فإن الجماهير قالوا أن كَعَنْ فيحمل على الاتصال. وقال جماعة: لا تلحق أن بعن بل تحمل أن على الانقطاع ويكون مرسلاً. ولكنه هنا يكون مرسل صحابي له حكم المتصل على المشهور من مذاهب العلماء. وفيه قول الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني الذي قدمناه في الفصول أنه لا يحتج به فاحتاط مسلم رحمه الله وبيّن اللفظين والله أعلم" اهـ. شرح النووي على مسلم المجلد الأول الجزء الأول ص ١٩٧ .

ليرون أنّي قد ظلمتهم، إنّها لبلادهم، فقاتلوا عليها في الجاهلية وأسلموا عليها في الإسلام، والذي نفسي بيده لولا المال الذي أحمل عليه في سبيل الله ما حميت عليهم من بلادهم شبراً" (١).

وقوله :

"اضمم جناحك عن المسلمين" : أي أكفف يدك عن ظلمهم .

"واتق دعوة المظلوم" : أي اجتنب الظلم لئلا يدعو عليك من تظلمه .

"وأدخل" أي : في المرعى .

"الصريمة" أي : القطعة القليلة من الإبل نحو الثلاثين. وقيل من عشرين إلى أربعين .

"والغنيمة" : تصغير غنم. قيل أنها أربعون. والمراد القليل منها كما دلّ عليه التصغير.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الجهاد ١٨٠، حديث رقم ٣٠٥٩، ومالك في الموطأ دعوة المظلوم، ج ٢، ص ١٠٠٣، دار إحياء التراث العربي "وهني" : قال ابن حجر : بالنون مصغرٌ بغير همز وقد يهمز، وهذا مولى لم أر من ذكره في الصحابة مع إدراكه، وقد وجدت له رواية عن أبي بكر وعمر وعمر بن العاص، روى عنه ابنه عمير وشيخ من الأنصار وغيرهما، شهد صفين مع معاوية ثم تحول إلى علي لما قتل عمّار، ثم وجدت في كتاب مكة لعمر بن شبة أن آل هنيّ يتسبون في همدان وهم موالي آل عمر، انتهى. ولولا أنه كان من الفضلاء النبهاء الموثوق بهم لما استعمله عمر) الفتح كتاب الجهاد، ص ١٧٦ .



"وإيائي ونعم ابن عوف ونعم بن عفان" : قال الحافظ : خصهما بالذكر على طريق المثال، لكثرة نعمهما؛ لأنهما كان من مياسير الصحابة ولم يرد منعهما البتة. وإنما أراد أنه إذا لم يسمح لرعي نعم أحد الفريقين، فنعم المقلدين أولى، فنهى عن إثارهما على غيرهما، أو تقديمهما قبل غيرهما.

"لا أبا لك" : أصله لا أب لك، وظاهره الدعاء عليه، لكنه على مجازه، لا على حقيقة .

فالماء والكلاء أيسر عليّ من الذهب والورق أي : أهون من إنفاقهما لهم.  
"المال الذي أحمل عليه" أي : الإبل والخيول التي كان يحمل عليها من لا يجد ما يركب (١).

قال الشيخ سليمان بن حمدان رحمه الله تعالى : (احذر دعوة المظلوم واجعل بينك وبينها وقاية بالعدل وترك الظلم. وفيه التحذير من الظلم مطلقاً واتقاء دعوة المظلوم والإخبار بأنها لا تحجب) (٢).

وقال الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب : (وفيه تنبيه على المنع من جميع أنواع الظلم، والنكتة في ذكره عقب المنع من أخذ الكرائم إشارة إلى أن أخذها ظلم، ذكره الحافظ.

---

(١) موطأ مالك كتاب دعوة المظلوم المجلد الثاني ص ١٠٣ .

(٢) الدر النضيد على أبواب التوحيد ص ٥٢ .

قوله : فإنه أي الشأن ليس بينها وبين الله حجاب. أي : لا تحجب عن الله تعالى، بل ترفع إليه فيقبلها وإن كان عاصياً كما في حديث أبي هريرة عند أحمد مرفوعاً : "دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه" وإسناده حسن. قاله الحافظ. وقال أبو بكر بن العربي : هذا وإن كان مطلقاً فهو مقيد بالحديث الآخر أن الداعي على ثلاث مراتب: أما أن يعجل ما طلب، وإما أن يدخر له أفضل منه، وإما أن يدفع عنه السوء مثله. وهذا كما قيد مطلق قوله : ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾<sup>(١)</sup> بقوله تعالى : ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾<sup>(٢)</sup> (٣) اهـ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "ثلاث دعوات مستجابات: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده"<sup>(٤)</sup>.

قال العلامة أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي : (ثلاث دعوات) مبتدأ خبره (مستجابات لاشك فيهن) أي : في استجابتهن وهو أكد من حديث "ثلاثة لا ترد دعوتهم" وإنما أكد به لالتجاء هؤلاء الثلاثة إلى الله تعالى بصدق الطلب ورقة القلب وانكسار الخاطر (دعوة الوالد) أي لولده أو عليه ولم يذكر الوالدة لأن حقها أكثر فدعاؤها أولى بالإجابة. (دعوة المسافر) يحتمل أن تكون دعوته لمن أحسن إليه وبالشر لمن آذاه وأساء إليه لأن دعاءه لا يخلو عن الرقة.

(١) سورة النحل : آية (٦٣) .

(٢) سورة الأنعام: آية (٤٢) .

(٣) تيسير العزيز الحميد ص ١٣٠ "المكتب الإسلامي ١٤٠٠هـ" .

(٤) رواه الترمذي في كتاب الدعوات حديث رقم ٣٤٤٨، وكتاب البر والصلة ١٩٠٥، وقال حديث حسن، ورواه أبو داود كتاب الوتر ٢٩، وابن ماجه كتاب الدعاء ١١، وأحمد في المسند ٢/ ٢٥٨ .

(ودعوة المظلوم) أي : لمن يعينه وينصره أو يسلبه ويهون عليه أو على من ظلمه بأي نوع من أنواع الظلم كذا في المرقاة<sup>(١)</sup> اهـ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (كان رجل من بني إسرائيل يقال له جريج يصلي فجاءته أمه فدعته، فأبى أن يجيبها، فقال: أجيها أو أصلي؟، ثم أتت فقالت: اللهم لا تمته حتى تربه وجوه المومسات، وكان جريج في صومعته، فقالت امرأة: لأفتنن جريجاً فتعرضت له فكلمته، فأبى فأتت راعياً فأمكنته من نفسها فولدت غلاماً فقالت: هو من جريج، فأتوه فكسروا صومعته، وأنزلوه وسبوه، فتوضأ وصلى، ثم أتى الغلام فقال: من أبوك يا غلام؟ قال: الراعي، قالوا: نبني صومعتك من ذهب؟ قال: لا . إلا من طين"<sup>(٢)</sup> .

نأخذ من هذا الحديث استجابة الله تعالى لعبده إذا علم إخلاصه وصدق نيته فينصره على ظالميه وقد يؤيده بالمعجزات القاهرة لخصومه كما في هذا الحديث ، وقصة أصحاب الأخدود وغيرها خاصة إذا هيأ نفسه للدعاء الصادق وذلك بالقيام بعبادة ربه ومناجاته ثم يعقب ذلك بالدعاء الخالص مع الإيقان بالإجابة وعدم اليأس وإن تأخرت الإجابة .

وفي هذا الحديث نرى قدرة الباري جل ثناؤه عندما خلّص عبده المظلوم المتهم بالكذب والفجور، فانطلق صبيّاً في المهد وأخبر من حوله أن أباه راعي

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود المجلد الرابع ص ٣٩٥ دار الفكر .

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب المظالم حديث رقم ٢٤٨٢ ، وكتاب الأنبياء ٣٤٣٦ واللفظ له ، ومسلم في صحيحه كتاب البر والصلة ٢٥٥٠ ، وأحمد في المسند ٢ / ٣٠٧ ، ٣٨٥ ، ٤٣٣ .

الغنم، وليس جريجاً، إنها معجزة عظيمة يقف الخصوم أمامها حيارى ويبهتون، ثم إلى الحق يرجعون. أن ما أصاب هذا العابد بهذه المصيبة العظيمة هو بسبب عدم إجابته لأمه ظناً منه أنه على حق في إقباله على صلاته وعدم إجابتها، فتقبل الله دعاءها وأصابه ما أصابه .

لهذا يقف العبد أمام الحقائق عارفاً لها ويسلم بها فيعطى كل ذي حق حقه، ويتجنب الظلم ويتقي دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب، ثم أنه لا يهدأ للعبد بال، ولا تصلح له أحوال، ما دام عن الحق مجتنباً، ولحقوق العباد منتهكاً. منقطعاً إلى الدنيا وشهواتها يرتكب المظالم من أجلها. بخلاف من على الحق يسير ويرى الدنيا أمامه مضاءة بنور الله تعالى : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْكَوٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴿٣٥﴾﴾ (١) .

يمشي على بصيرة من أمره، ويهتدي بهدي ربه، لا تضله الأهواء، ولا يزيغ عن طريق الهدى، القرآن الكريم منهاجه، وسنة سيد المرسلين ملتزمه واعتقاده. فالسنة عندما ترشد العباد إلى أفضل الأعمال، تحذر من دعوة المظلومين وتبين أنها مستجابة .

(١) سورة النور : آية (٣٥) .

فعن عبدالله بن سرجس قال: "كان النبي ﷺ إذا سافر يتعوذ من وعشاء السفر وكآبة المنقلب، والخور بعد الكون، ودعوة المظلوم، وسوء المنظر في الأهل والمال" (١).

قال الترمذي: حديث حسن صحيح، ويروى الخور بعد الكور أيضاً ومعنى قوله الخور بعد الكون أو الكور وكلاهما له وجه، يقال: إنما هو الرجوع من الإيمان إلى الكفر أو من الطاعة إلى المعصية إنما يعني من رجوع شيء إلى شيء من الشر.

قال المباركفوري: (قالوا ورواية الرء مأخوذة من تكوير العمامة وهو لفها وجمعها، ورواية النون مأخوذة من الكون والمصدر كان يكون كوناً إذا وجد واستقر أي أعوذ بك من النقص بعد الوجود والثبات. قال المازري: في رواية الرء أيضاً أن معناه: أعوذ بك من الرجوع عن الجماعة بعد أن كنا فيها، يقال: كار عمامته إذا لفها وحرها إذا نقضها. وقيل: نعوذ بك من أن تفسد أمورنا بعد صلاحها كفساد العمامة بعد استقامتها على الرأس. وعلى رواية النون قال أبو عبيد: سئل عاصم عن معناه فقال ألم تسمع قولهم حار بعد ما كان أي كان على حالة جميلة فرجع عنها. انتهى. وقال: (ومن دعوة المظلوم) أي أعوذ بك من الظلم فإنه يترتب عليه دعاء المظلوم ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب ففيه التحذير من الظلم ومن التعرض لأسبابه. قال الطيبي: "فإن قلت دعوة

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الحج حديث رقم ١٣٤٣، والترمذي كتاب الدعوات حديث رقم ٣٤٣٩، والنسائي كتاب الاستعاذة ٤١، وابن ماجه كتاب الدعاء ٢٠، والدارمي كتاب الاستئذان ٤٢، وأحمد في المسند ٨٢/٥، ٨٣.

المظلوم يحترز عنها سواء كانت في الحضر أو السفر، قلت: كذلك الحور بعد الكور لكن السفر مظنة البلايا والمصائب والمشقة فيه أكثر فخصت به. انتهى" (١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاثة لا ترد دعوتهم الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين" (٢).

إن الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة فيها البيان الواضح على نصرة المظلوم وإجابة دعوته، والأخذ به من مهاوي الظلم وجوره إلى شرف العدل وعزته، والترفع بالأمّة جمعاء عن التدنّس بهذه الرذيلة التي لا يلجأ إليها إلا من انحطّ هممه وتحلّفت مداركه، وهوت به الشقاوة، وانحرف عن طريق الجماعة الملتزمة بأوامر الله تعالى والمحتسبة للعقبى الطيبة إلى ما فيه بعده وهلاكه، فليكن للعبد عن ذلك سبيلاً، وليكن له منه مخرجاً ليسعد بالعز في الدنيا والخلود في نعيم الآخرة.

إننا لم نسمع بظالم رفعه ظلمه، أو ازداد بذلك شرفاً وعزاً! بل مهابة وذلاً وانحطاطاً وانكساراً، وخسّة وسفلاً.

لم يعرف من أصحاب العقول الزاكية، والقلوب الفطنة، والهمم التّواقة إلا النظر إلى شرف المكان، والترفع عن الظلم والعدوان، فهم يحبون ويوالون أولياء الرحمن، ويبغضون ويهجرون أولياء الشيطان.

(١) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي: ج ٩ ص ٣٩٩-٤٠٠.

(٢) رواه الترمذي كتاب الدعوات حديث رقم ٣٥٩٨ وقال حديث حسن. وأحمد في المسند ٢/ ٣٠٥.

## الفصل الرابع

### التحذير من الركون إلى الظلمة ومخالطتهم وموالاتهم

وفيه مباحث :

المبحث الأول : تحريم موالة اليهود والنصارى .

المبحث الثاني : موالة الأقارب الكفرة .

المبحث الثالث : الركون إلى الظلمة موجب للعذاب .

## المبحث الأول

تحريم موالاة اليهود والنصارى



## المبحث الأول

### تحريم موالاة اليهود والنصارى

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥١) (١).

في هذه الآية الكريمة نهى المولى عز وجل عن اتخاذ اليهود والنصارى أعواناً وأنصاراً وحلفاء على أهل الإيمان، ومن يتخذهم أنصاراً وأعواناً فقد صار منهم لأنه رضي بموالاة أعداء الله تعالى فلا يوفق للخير من وضع الولاية في غير موضعها، فإن موالاتهم تنافي الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، كما أنها سبب للفتنة والفساد في الأرض، فمن كان مع الشيطان وحزبه فإنه مستوجب لسخط الله تعالى وأليم عقابه .

قال الشيخ سليمان بن عبدالله بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب : (نهى سبحانه المؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء وأخبر أن من تولاهم من المؤمنين فهو منهم وهكذا حكم من تولّى الكفار من المجوس وعباد الأوثان فهو منهم فإن جادل مجادل في أن عبادة القباب ودعاء الأموات ليس بشرك وأن أهلها ليسوا بمشركين بان أمره، واتضح عناده وكفره، ولم يفرق تبارك وتعالى بين الخائف وغيره بل أخبر تعالى أن الذين في قلوبهم مرض يفعلون ذلك خوفاً من الدوائر وهكذا حال هؤلاء المرتدين خافوا من الدوائر لما في قلوبهم من عدم الإيمان بوعد الله الصادق بالنصر لأهل التوحيد فبادروا أو سارعوا إلى أهل الشرك

(١) سورة المائدة : آية (٥١) .

خوفاً أن تصيبهم دائرة قال الله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ أَلَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ (١) (٢).

قال ابن جرير: (والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: "إن الله تعالى نهى المؤمنين جميعاً أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصاراً وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله، وأخبر أن من اتخذهم نصيراً وحليفاً وولياً من دون الله ورسوله والمؤمنين فإنه منهم في التحزب على الله وعلى رسوله والمؤمنين، وأن الله ورسوله منه بريثان، وقد يجوز أن تكون الآية نزلت في شأن عبادة بن الصامت وعبدالله بن أبي بن سلول وحلفائهما اليهود، ويجوز أن تكون نزلت في أبي لبابة بسبب فعله في بني قريظة، ويجوز أن تكون نزلت في شأن الرجلين الذين ذكر السُّدِّي أن أحدهما هم بالحق بدهلك اليهودي والآخر نصراني بالشام، ولم يصح بواحد من هذه الأقوال الثلاثة خبر يثبت حجة فيسلم لصحته القول بأنه كما قيل، فإذا كان كذلك فالصواب أن يحكم لظاهر التنزيل بالعموم على ما عَم، ويجوز ما قاله أهل التأويل فيه من القول الذي لا علم عندنا بخلافه، غير أنه لا شك أن الآية نزلت في منافق كان يوالي يهود أو نصارى، خوفاً على نفسه من دوائر الدهر؛ لأن الآية التي بعد هذه تدل على ذلك وذلك قوله: [فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة] الآية (٣).

(١) سورة المائدة: آية (٥٢).

(٢) مجموعة التوحيد النجدية ص ١٩٧ مطبعة المنار بمصر الطبعة الأولى سنة ١٣٤٦ هـ.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ٦، ص ٢٧٦، الطبعة الثالثة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.

قال الخازن : (بعضهم أولياء بعض) يعني أن بعض اليهود أنصار لبعض على المؤمنين وأن النصارى كذلك يد واحدة على من خالفهم في دينهم وملتهم، (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) يعني ومن يتول اليهود والنصارى دون المؤمنين فينصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم وملتهم لأنه لا يتولّى مولى أحد إلا وهو راض به وبدينه وإذا رضيه ورضي دينه صار منهم، وهذا تعليم من الله تعالى وتشديد عظيم في مجانبة اليهود والنصارى وكل من خالف دين الإسلام (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) يعني أن الله لا يوفق من وضع الولاية في غير موضعها فتول اليهود والنصارى مع علمه بعداوتهم له ولرسوله وللمؤمنين<sup>(١)</sup>.

إن شرع الله الحكيم لم يأمرنا بشيء إلا وفيه الخير كله من سعادة وسؤدد ورفعة وعزة، ولم ينهنا عن شيء إلا وفيه الشر كله من ركون وتخلف وجمود ومذلة وبعد عن الله تعالى وقرب إلى الشيطان .

فالله عز وجل خلق الإنسان وجعل له عينين ولساناً وشفيتين وهداه النجدين طريق الخير وطريق الشر فكيف يجدر بالإنسان العاقل أن يجعل بينه وبين أعداء الله، أعداء هذه الشريعة مودة وصلة وموالاتة وقرباً وهم يحادّون الله ورسوله، أيريد منهم عزّاً وقد أذلّهم الله، أو إكراماً وقد أهانهم الله، أما يعلم أن السلف الصالح باعدوا القريب الذي لم يكن على شاكلتهم ولم ينهج نهجهم، ولم يلتزم ويسلك مسلكهم، لم تأخذهم في الله تعالى لومة لائم لم يوالوا أباً ولا ابناً، ولا

(١) تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل ، ج ٦ ، ص ٦٢ .

أخاً، ولا عشيرة، لم يكن على دين الله تعالى، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، عاهدوه على السمع والطاعة والانقياد والامتثال لأمره تعالى، وأمر رسوله ﷺ في المكروه والمنشط، اشتروا الجنة بأموالهم وأنفسهم، أمضوا حياتهم بالعض على دين الله تعالى وعدم الخروج عنه قيد شبر، أحبوا في الله وأبغضوا فيه، لم يجعلوا لعدو عليهم سلطاناً ولا ولاية، ولم يستعملوه في أعمالهم.

إنه مهما أعدت القوة من الأسلحة الفتاكة والرجال المدربين من أجل النصر على أعداء الله تعالى فإنه لا يجدي ولا ينفع وأعداء الله يقربون، ومن الأعمال يمكنون، وفي المجالس يقدمون، ولهم يلان الجانب، ويظهر لهم السرور، وتقدم كلمتهم، وتسمع مقالتهم، ويداولون الحديث، ويواكلون على الموائد.

المبحث الثاني

موالاة الأقارب الكفرة

## المبحث الثاني

### موالاة الأقارب الكفرة

قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١).

قال ابن جرير: (يقول الله تعالى للمؤمنين به وبرسوله: لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم بطانة وأصدقاء تفشون إليهم أسراركم وتطلعونهم على عورة الإسلام وأهله، وتؤثرون المكث بين أظهرهم على الهجرة إلى دار الإسلام (إن استحبوا الكفر على الإيمان) يقول: إن اختاروا الكفر بالله على التصديق به، والإقرار بتوحيده: (ومن يتولهم منكم) يقول: ومن يتخذهم منكم بطانة من دون المؤمنين، ويؤثر المقام معهم على الهجرة إلى رسول الله ودار الإسلام (فاولئك هم الظالمون) يقول: فالذين يفعلون ذلك منكم هم الذين خالفوا أمر الله، فوضعوا الولاية في غير موضعها، وعصوا الله في أمره وقيل: إن ذلك نزل نهياً من الله للمؤمنين عن موالاة أقربائهم الذين لم يهاجروا من أرض الشرك إلى دار الإسلام) (٢) اهـ.

إن ولاية الله تعالى وولاية رسوله ﷺ لا تحصل إلا بوصول الإيمان في القلوب، فإذا تغلغل الإيمان في قلب العبد رأيت يوالي في الله ويغضب في الله تعالى فلا صلة لقربة تجعله يركن إلى أب أو ابن أو أخ أو عشيرة أو أيّاً من كانت صلته إلا إذا كان ذلك في الله ومن أجله تعالى .

(١) سورة التوبة: آية (٢٣) .

(٢) تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ١٠، ص ٩٨ الطبعة الثالثة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .

نعم إن هذا هو الحق المبين، فلا خير في قريب أو بعيد يشذ عن دين الله فيعصي ربه تعالى وهو الذي خلقه من العدم ورباه بجميع أنواع النعم، ولا خير فيمن يدعي محبة الله تعالى ومحبة رسوله، ثم يوالي من عاداهم بارتكاب ما قد حرم الله عليه، قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١).

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب بعد ذكره لآية المجادلة: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وآية التوبة: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ (في هاتين الآيتين البيان الواضح أنه لا عذر لأحد في الموافقة على الكفر خوفاً على الأموال والآباء والأبناء والأزواج والعشائر ونحو ذلك مما يتعذر به كثير من الناس إذا كان لم يرخص لأحد في موادتهم واتخاذهم أولياء بأنفسهم خوفاً منهم وإيثاراً لمرضايتهم فكيف بمن اتخذ الكفار الأبعد أولياء وأصحاباً وأظهر لهم الموافقة على دينهم خوفاً على بعض هذه الأمور ومحبة لها، ومن العجب استحسانهم لذلك واستحلالهم له فجمعوا مع الردة استحلال الحرام) (٢).

(١) سورة المجادلة: آية (٢٢).

(٢) مجموعة التوحيد النجدية الرسالة السابعة الطبعة الأولى سنة ١٣٤٦ هـ مطبعة المنار بمصر ص ٢٠٧.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٤) (١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد بعث الله عبده ورسوله محمداً ﷺ بالحكمة التي هي سنته وهي الشريعة والمنهاج الذي شرعه الله. فكان من هذه الحكمة أن شرع من الأعمال والأقوال ما يبين سبيل المغضوب عليهم والضالين، وأمر بمخالفتهم في الهدى والظاهر وإن لم يظهر للكثير من الخلق في ذلك مفسدة لأمر: منها أن المشاركة في الهدى والظاهر تورث تناسباً وتشاكلاً بين المتشابهين يقود الموافقة في الأخلاق والأعمال وهذا أمر محسوس فإن اللابس لثياب أهل العلم مثلاً يجد من نفسه نوع انضمام إليهم، واللابس لثياب الجند المقاتلة مثلاً يجد في نفسه نوع تخلق بأخلاقهم، ويصير طبعه مقتضياً لذلك إلا أن يمنعه من ذلك مانع. ومنها أن المخالفة في الهدى والظاهر توجب مباينة، ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب وأسباب الضلال والانعطاف إلى أهل الهدى والرضوان وتحقق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين. ومنها أن مشاركتهم في الهدى والظاهر توجب الاختلاط بالظاهر، حتى يرتفع التمييز ظاهراً بين المهديين المرضيين وبين المغضوب عليهم والضالين) (٢). اهـ.

(١) سورة التوبة: آية (٢٤).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ص ١٣-١٤ نشر أنصار السنة المحمدية لاهور.



إن من ركن إلى الظلمة أعداء الله تعالى لقاربة تصل بينهم من الآباء والأبناء والاحوان والأرحام وغيرهم وهم يحادون الله ورسوله فإنه يخشى عليهم أن ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿ تَكْرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثَبِّتَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (٨٠) (١).

فذكر الله تعالى أن مجرد موالاته الكفار موجبة لسخط الله والخلود في العذاب لأنه لا يوالي المشركين ويوادهم ويرضى بفعلهم إلا المنافقون والذين نزلت فيهم هذه الآية والآية التي تليها وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴾ (٨١) (٢) ذكر هذا ابن كثير عن مجاهد قال: يعني بذلك المنافقين .

قد يحتج معترض بعاطفة الأبوة أو البنوة أو القرابة، أو الارتباط في السكن أو العمل أو ما شابه هذا .

نقول : كيف يجدر بالمسلم الذي ذاق حلاوة الإيمان أن يرق قلبه لأب أو ولد أو صديق أ، قريب وهم محادون لله ورسوله ؟

أليس لنا في سلفنا الصالح أسوة حسنة ؟ فهذا خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام يخبر الله تعالى عنه بقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) (٣) .

(١) سورة المائدة : آية (٨٠) .

(٢) سورة المائدة : آية (٨١) .

(٣) سورة الزخرف : آية (٢٦-٢٨) .

وهذه البراءة حصلت من إبراهيم عليه السلام بعد أن بلغ البلاغ ونصح وحذر. وقد قدّمنا مجادلته مع أبيه ودعوته إلى الله تعالى فلما أصر على الشرك بالله تبرأ منه كما يظهر لنا في هذه الآيات. فهل أخذته عليه السلام عاطفة النبوة على أبيه عندما أصر على شركه بالله تعالى؟ أو أخذته عاطفة القرابة لقومه كذلك عندما تمادوا في شركهم؟ إن مواقفهم عليه السلام معروفة، قد بينها الله تعالى في القرآن العظيم. وهكذا جميع أنبياء الله ورسله عليهم السلام. قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١).

ولقد كان من صحابة رسول الله ﷺ المثل الأعلى في الصدق مع الله تعالى ومع رسوله ﷺ لناخذ مثلاً من ذلك وهو قصة كعب بن مالك وصاحبيه (٢).

عند تخلفهم عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وهو ما حصل من ملك غسان حيث أرسل إلى كعب بن مالك كتاباً يقول فيه: (أما بعد) فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضیعة فالحق بنا نواسك . فقال كعب بن مالك حين قرأ الكتاب وهذا أيضاً من البلاء فتيمم بالكتاب التنوير فسجّره فيه .

(١) سورة المؤمنین: آية (١٠١) .

(٢) أ - مرارة بن الربیع العمري . ب - هلال بن أمية الواقفي .

من هنا يظهر لنا عدم موالاة كل من حاد عن أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ قيد شبر لأن في ذلك الهلاك .

وكعب بن مالك عندما أتته رسالة ملك غسان الذي يدعوه فيها باللحوق به رأى أن هذه هي المهلكة أي الردة عن الإسلام فسارع بالكتاب ورماه في التنور لتأكله النار، ولم يطع شيطانه باللحوق بأعداء الله من الكفرة وصبر حتى قيض الله له بالفرج وتاب عليه هو وصاحبيه ورجع إليه إخوانه المسلمون يكلمهم ويكلمونه ويواليهم ويوالونه . هكذا تكون الموالاة والمعاداة في الله ومن أجل الله<sup>(١)</sup> .

---

(١) حديث كعب بن مالك رواه البخاري في صحيحه كتاب المغازي حديث رقم ٤٤١٨، ومسلم في صحيحه كتاب التوبة حديث رقم ٢٧٦٩، والنسائي كتاب المساجد ٣٨، وأحمد في المسند ١/٢٥٦ .

## المبحث الثالث

الركون إلى الظلمة موجب للعذاب

## المبحث الثالث

### الركون إلى الظلمة موجب للعذاب

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (١).

قال السعدي : (( ولا تركنوا إلى الذين ظلموا) فإنكم إذا ملتكم إليهم، ووافقتموهم على ظلمهم أو رضيتهم ما هم عليه من الظلم (فتمسكم النار) إن فعلتم ذلك (وما لكم من دون الله من أولياء) يمنعونكم من عذاب الله ولا يحصلون لكم شيئاً، من ثواب الله، (ثم لا تنصرون) أي لا يدفع عنكم العذاب إذا مسكم . ففي هذه الآية : التحذير من الركون إلى كل ظالم. والمراد بالركون، الميل والانضمام إليه بظلمه، وموافقته على ذلك، والرضا بما هو عليه من الظلم) (٢).

فالظلم هنا شامل سواء كان شركاً أو غيره فلا يستعان بالظلمة فيكون بذلك كأنه رضي بأعمالهم ، وهل يرجى من وراء الظلمة عز بنصر أو رفعة أو طلب خير؟! إن الذي يحصل اليوم من بعض ضعاف العقول -ممن يدعي الإسلام - هو إظهار المودة لهم ومحبتهم وأنهم الأصدقاء المحبوبون، وأولئك الظلمة بعكس ذلك فهم يبدون بالستتهم ما ليس في قلوبهم ويدسون السم بالدم، ومع هذا يُعطون العهد والأمان، وتُعلن لهم المحبة والسلام. سبحانه الله العظيم !

(١) سورة هود: آية (١١٣) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : ج ٣، ص ٤٦٤ - ٤٦٥ .

كيف ينبذ أمر الله تعالى ويترك ظهرياً وهو ينهى عن هذا ثم يتجرى مجترئ فيعمد ويخالف أمر الله تعالى ويتبع هواه وما تسوّل به نفسه فيركن إلى أعداء الله الظلمة يقول تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُّوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَقْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ٨﴾ أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا فِي دِينِكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفِصِلْ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ١١﴾ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَنَلُوا آيَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ١٢﴾ (١).

هذا ما كان في عهد رسول الله ﷺ وبيان حكمته تعالى في البراءة من المشركين وأنهم لا عهد لهم ولا أمان ولا يتركون على ما هم عليه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله ، فليس لهم إلا السيف المرهف، وهذه الآيات الكريمة تبين ما كان بين الرسول ﷺ وبين المشركين من عهود بترك الحرب لمدة معهودة وذلك كان لغرض أسنى ومستقبل أبهى وهو الفتح الإسلامي ودخول الناس في دين الله أفواجاً وقد حقق الله ذلك . وقد حرّض تعالى المؤمنين على معاداة المشركين والتبرئ منهم وأن لا يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسوله ﷺ .

(١) سورة التوبة : آية (٧-١٢) .

عن جرير بن عبدالله قال: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى خثعم فاعتصم ناس منهم بالسجود فأسرع فيهم القتل قال فبلغ ذلك النبي ﷺ فأمر لهم بنصف العقل وقال : (أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين) قالوا: يا رسول الله لم؟ قال: (لا تراءى ناراهما) <sup>(١)</sup>.

قال أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم أبادي: (إلى "خثعم" قبيلة "فأمر لهم بنصف العقل" أي بنصف الدية. قال : في فتح الودود: لأنهم أعانوا على أنفسهم بمقامهم بين الكفرة، فكانوا كمن هلك بفعل نفسه وفعل غيره فسقط حصّة جنايته "بين أظهر المشركين" أي بينهم ولفظ أظهر مقحم <sup>(٢)</sup> . (لا تراءى ناراهما) كذا كتب في بعض النسخ وفي بعضها لا تراءى. قال في النهاية: أي يلزم السلم ويجب عليه أن يتباعد منزله عن منزل المشرك، ولا ينزل بالموضع الذي إن أوقدت فيه ناره تلوح وتظهر للمشرك إذا أوقدها في منزله، ولكنه ينزل مع المسلمين، وهو حث على الهجرة والتراخي تفاعل من الرؤية، يقال: تراءى القوم إذا رأى بعضهم بعضاً، وتراءى الشيء أي ظهر حتى رأيت، وإسناد الترائي إلى النار

(١) رواه أبو داود كتاب الجهاد ج٣، حديث رقم ٢٦٤٥، والترمذي كتاب السيرة ج٤، حديث رقم ١٦٠٤، والنسائي قسامة، ٢٧، قال الألباني حديث حسن أنظر صحيح الجامع الصغير ١٦/٢-١٧، حديث رقم ١٤٧٤.

(٢) قول أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم أبادي عند قوله ﷺ: (بين أظهر المشركين) أي بينهم ولفظ أظهر مقحم. قال في المعجم الوسيط: (مقحمة) لفظة زائدة لا تناسب السياق (المعجم الوسيط ٧١٧/٢). وهذا يشعر من أبي الطيب أبادي بالتقليل من البلاغة النبوية، ولعل كلمة أظهر تعبير عن شدة التقارب بين المقيم ومن أقام معهم لأن قول القائل أنا مقيم بين أظهر بني فلان أشد من التعبير عن القرب من قوله أنا مقيم معهم إذ يحتمل أنه من بلادهم وإن لم يكن قريباً منهم.

مجاز من قولهم داري تنظر من دار فلان أي تقابلها، يقول: ناراهاما تحتلفان هذه تدعو إلى الله وهذه تدعو إلى الشيطان فكيف يتفقان. والأصل في تراءى تتراءى فحذف إحدى التائين تخفيفاً، وقال الخطابي: في معناه ثلاثة وجوه، قيل: معناه: لا يستوي حكمهما، وقيل معناه: أن الله فرق بين داري الإسلام والكفر فلا يجوز لمسلم أن يساكن الكفار في بلادهم حتى إذا أوقدت ناراً كان منهم بحيث يراها. وقيل معناه: لا يتسم المسلم بسمة المشرك ولا يتشبه به في هذه وشكله. كذا في مرقاة الصعود<sup>(١)</sup> اهـ.

ومما يدل على شرعية البراءة من أعداء الله ومفاصلتهم ما جاء في نهى الرسول ﷺ عند بدئهم بالسلام وإظهار البغض لهم حتى في الطرقات .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا تبدؤا اليهود ولا النصارى بالسلام فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه)<sup>(٢)</sup>.

ونهى ﷺ عن مجامعتهم والسكن معهم وأن من فعل ذلك وركن إليهم فهو مثلهم. فعن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ : (من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله)<sup>(٣)</sup>.

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود ج ٣ حديث رقم ٢٦٢٨، ص ٣٠٣-٣٠٥.

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب السلام ج ٤ حديث رقم ٢١٦٧، والترمذي كتاب السير ج ٤، حديث رقم ١٦٠٢.

(٣) رواه أبو داود كتاب الجهاد ج ٣، حديث رقم ٢٧٨٧، والترمذي كتاب المسير ج ٤، حديث رقم ١٦٠٥، قال الألباني: حديث حسن أنظر: صحيح الجامع الصغير ج ٦، حديث رقم ٦٠٦٢.



وعن سمرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ( لا تساكنوا اليهود ولا تجامعوهم فمن ساكنهم أو جامعهم فليس منا ) <sup>(١)</sup> .

إن مصير الإنسان في الآخرة مرتبط مع من أحب في الدنيا. والركون إلى الظالمين دليل على محبتهم.

عن عبدالله عن النبي ﷺ أنه قال : ( المرء مع من أحب ) <sup>(٢)</sup> .

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ : (المرء مع من أحب) <sup>(٣)</sup> .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) قال ابن عباس: ولا تركنوا، قال: لا تميلوا. وقال عكرمة: أن تطيعوهم، أو تودّوهم، أو تصطنعوهم، ومعنى تصطنعوهم: أي تولوهم الأعمال كمن يولي الفسّاق والفجّار، وقال الثوري: ومن لاق لهم دواة، أو برى لهم قلماً، أو ناوهم قرطاساً دخل في هذا. قال بعض المفسرين في الآية النهي: متناول للانحطاط في

---

(١) رواه الحاكم في المستدرک ٢/ ١٤١، وقال صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي .

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب ج ١٠، حديث رقم ٦١٦٨، ومسلم في صحيحه كتاب البر حديث رقم ٢٦٤٠ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب ج ١٠، حديث رقم ٦١٦٩ .

هواهم، والانقطاع إليهم، ومصاحبتهم، ومجالستهم، وزيارتهم، ومداهنتهم، والرضى بأعمالهم، والتشبه بهم، والتزيي بزيهم، ومدّ العين إلى زهرتهم، وذكره بما في تعظيم لهم<sup>(١)</sup> اهـ.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٩) .<sup>(٢)</sup>

في هذه الآية الكريمة نهي من المولى عز وجل للمؤمنين عن موالة الكافرين الذين خرجوا على دينهم وكفروا به وقتلوا أوليائه الذين انقادوا لدينه تعالى واستجابوا لذلك وآمنوا به وأخرجوهم من ديارهم، بعد أن قتلوا وعذبوا وعملوا من الظلم ما الله به عليم، وساعدوا أيضاً غيرهم في الاعتداء على المؤمنين. فلا يجوز لمؤمن ولا مؤمنة أن يوالي هؤلاء الظلمة الذين كان هذا صنيعهم ولم يكن إلا محاربة لله تعالى ورسوله ﷺ ومن أجل القضاء على دينه، فالذي يناصرهم أو يوادهم فقد أصبح من الظالمين؛ لأنه لا يوالي أعداء الله تعالى وأعداء رسوله ﷺ وأعداء عباده المؤمنين ويضع ولا يتهم في غير موضعها إلا من كان في قلبه محبة لأولئك، كما في الحديث الذي مر معنا قريباً: (المرء مع من أحب).

(١) مجموعة التوحيد وتحتوي على ست عشرة رسالة لشيخ الإسلام ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب ونخبة من علماء المسلمين. المكتب السلفية بالمدينة المنورة. أوثق عرى الإيمان، ص ١٦٢-١٦٣.

(٢) سورة الممتحنة آية (٩) .

قال الشوكاني : ("ومن يتوهم فأولئك هم الظالمون" أي الكاملون في الظلم لأنهم تولّوا من يستحق العداوة لكونه عدوّاً لله ولرسوله ولكتابه وجعلوهم أولياء لهم) <sup>(١)</sup>.

وقد بيّن سبحانه نهيّه الشديد عن اتخاذ أعداء الله أولياء فقال تعالى : ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝﴾ <sup>(٢)</sup>.

إن بلاغة القرآن العظيم أبعد من الحوادث الخاصة ليعم الحكم ويشمل، فالآية عامة، وإن كان سبب نزولها هو الكتاب الذي بعث به حاطب بن بلتعنه لكفار قريش بمكة يخبرهم خبر رسول الله ﷺ وتجهيزه لغزوهم عندما خافوا ونقضوا عهد الحديبية، والقصة مبسطة في كتب التفاسير، والذي نحن بصددّه هو عدم موالاته أعداء الله تعالى من الكفرة وموادتهم والإسرار لهم، والله جل و علا لا تخفى عليه خافية فهو يعلم ما يخفي وما يعلن العباد من الخير والشر .

(١) فتح القدير : ج ٥ ص ٢١٣ .

(٢) سورة الممتحنة : آية (١) .

قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن : (ولا ينجو المؤمن إلا بالاعتصام بحبل الله وتجريد التوحيد والتحيز إلى أولياء الله وعباده المؤمنين والبراءة كل البراءة ممن أشرك بالله وعدل به غيره ولم ينزهه عما انتحلته المشركون وافتراء المكذبون، وأفضل القرب إلى الله مقت أعدائه المشركين وبغضهم وعداوتهم وجهادهم، وبهذا ينجو العبد من توليهم من دون المؤمنين. وإن لم يفعل ذلك فله من ولايتهم بحسب ما أحلّ به وتركه من ذلك فلهذا الحذر ممن يهدم الإسلام و يقلع أساسه. يقول تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ ءَاتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ ءُولِيَاءَ ؕ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مَّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾<sup>(١)</sup>، وانتفاء الشرط يدل على انتفاء الإيثار بحصول الموالاة<sup>(٢)</sup> اهـ.

والآيات في هذا كثيرة جداً. قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكَفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾<sup>(٣)</sup>.

وقال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ ءُولِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) سورة المائدة: آية (٥٧) .

(٢) الدرر السنية ج ٧ ، كتاب الجهاد ص ٢٤٨ ، الطبعة الثانية ١٣٨٥ هـ .

(٣) سورة الممتحنة: آية (١٣) .

(٤) سورة الأعراف: آية (٣) .

وقال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨).

وقال تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا أَنْزَلْ إِلَيْهِ مَا آتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَنْخِذُوا بِطَانَةٍ مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١١٨) (٣).

وقال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنْخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٨٩) (٤).

(١) سورة آل عمران : آية (٢٨).

(٢) سورة المائدة : آية (٨٠-٨١).

(٣) سورة آل عمران : آية (١١٨).

(٤) سورة النساء : آية (٨٩).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ  
الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ (٢).

هذا طرف من الآيات التي تندد بأعداء الله تعالى وتنهاي عن موالاتهم، وتبين  
حال من وادهم واتخذ منهم أولاء ونصراء. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ  
كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝﴾ (٣).

---

(١) سورة النساء: آية (١١٥).

(٢) سورة الجاثية: آية (١٩).

(٣) سورة ق: آية (٣٧).

## **الباب الثالث**

### **أنواع الظلم**

وفيه فصول :

**الفصل الأول : ظلم العبد لنفسه .**

**الفصل الثاني : ظلم العبد لغيره .**

## الفصل الأول

### ظلم العبد لنفسه

وفيه مباحث:

المبحث الأول : الشرك بالله تعالى ويدخل فيه الشرك في الإتياع  
بتحكيم غير ما أنزل الله .

المبحث الثاني : الوقوع في المعاصي .



## المبحث الأول

الشرك بالله تعالى ويدخل فيه الشرك في الاتباع  
بتحكيم غير ما أنزل الله

## المبحث الأول

### الشرك بالله تعالى ويدخل فيه الشرك

#### في الاتباع بتحكيم غير ما أنزل الله

ليس من شك أن المؤمن الذي يؤمن بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً يخاف المعاصي ما صغر منها أو ما كبر لأن في ارتكابها غضباً للرب سبحانه وتعالى والشرك أعظم ذنب عصي الله به، وكان يخافه كل مؤمن حتى أنبياء الله ورسله عليهم صلوات الله وسلامه، فالله جل وعلا يقول على لسان الخليل عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۚ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ﴾ (١) الآية .

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن : (فإنه الواقع في كل زمان : فإذا عرف الإنسان أن كثيراً وقعوا في الشرك الأكبر وضلوا بعبادة الأصنام: أوجب ذلك خوفه من أن يقع فيما وقع فيه الكثير من الشرك الذي لا يغفره الله .

قال إبراهيم التيمي: ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟ رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. فلا يأمن الوقوع في الشرع إلا من هو جاهل به وبما يخلصه منه: من العلم بالله وبما بعث به رسوله من توحيده، والنهي عن الشرك به) (٢).

---

(١) سورة إبراهيم: آية (٣٥-٣٦) .

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد تحقيق وتخريج عبدالقادر الأرناؤوط ص ٨١.

وقال تعالى عن الخليل عليه السلام : ﴿قَالَ يَنْقُومِ إِلَهِي بِرِيءٍ مِّمَّا تَشْرِكُونَ﴾<sup>(١)</sup> ، وقال : ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾<sup>(٢)</sup> ، وقال : ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَبْنِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾<sup>(٣)</sup> وكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ<sup>(٤)</sup> الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ<sup>(٥)</sup>﴾<sup>(٣)</sup> .

وقد فسر الرسول ﷺ الظلم لأصحابه بأنه الشرك .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها ولم تستحب الشريعة ذلك فهو من المنكرات وبعضه أشد من بعض سواء كانت البقعة شجرة أو غيرها أو قناة جارية، أو جبلاً، أو مغارة، وسواء قصدتها ليصلي عندها أو ليدعو عندها أو ليقرأ عندها، أو ليذكر الله سبحانه عندها، أو لينسك عندها بحيث يخص البقعة بنوع من العبادة التي لم يشرع تخصيص تلك البقعة به عينا ولا نوعاً)<sup>(٤)</sup> .

وخوف الصحابة رضي الله عنهم كان واضحاً عند نزول قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾<sup>(٥)</sup> فكانوا يخافون ما

(١) سورة الأنعام: آية (٧٨) .

(٢) سورة الأنعام: آية (٧٩) .

(٣) سورة الأنعام: آية (٨٠-٨٢) .

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٣١٤، نشر أنصار السنة المحمدية .

دون الشرك فكيف بالشرك الذي هو أكبر الكبائر وشق عليهم ذلك حتى سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك وأخبرهم أنه الشرك .

قال الشيخ سليمان بن حمدان رحمه الله تعالى : (قال شيخ الإسلام ابن تيمية :  
 "والذين شق عليهم ظنوا أنّ الظلم المشروط هو ظلم العبد نفسه، وأنه لا أمن ولا  
 اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه فبين لهم النبي ﷺ ما دلهم على أن الشرك ظلم في كتاب  
 الله فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم فمن سلم من  
 أجناس الظلم الثلاثة يعني: الظلم الذي هو الشرك، وظلم العباد، وظلمه لنفسه  
 بما دون الشرك، كان له الأمن التام والاهتداء التام، ومن لم يسلم من ظلم نفسه  
 كان له الأمن والاهتداء التام، ومن لم يسلم من ظلم نفسه كان له الأمن والاهتداء  
 مطلقاً ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه  
 لنفسه، قال: وليس مراد النبي ﷺ "إنما هو الشرك" أن من لم يشرك الشرك الأكبر  
 يكون له الأمن التام والاهتداء التام فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين  
 أن أهل الكبائر معرضون للخوف لم يحصل لهم الأمن التام والاهتداء التام فالأمن  
 أمنان : أمن مطلق، وأمن مقيد. فالأول هو الأمن من العذاب وهو لمن مات على  
 التوحيد ولم يصّر- على الكبائر. الثاني: لمن مات على التوحيد مع الإصرار على  
 الكبائر فله الأمن من الخلود في النار ففرق بين الأمن المطلق ومطلق  
 الأمن) (١) اهـ.

(١) الدر النضيد على أبواب التوحيد : ص ٢٢-٢٣ .

وهنا لفظة نظر للمسلمين وهو عظم أمر التوحيد الذي هو أفراد الله تعالى بالعبادة التي لا ينبغي أن تصرف إلا لله تعالى الذي هو أهل لها، فالخلق خلقه، والأمر أمره، فكيف يليق بعبد يخلقه الله تعالى ويرزقه ثم يعبد غيره، وما أسفها من عقول تحيد عن الخالق ثم تلجأ إلى مخلوقين مثلها محتاجين إلى رحمة الله وعطفه، فيعبدونهم أو يتقربون إليهم بشيء من الوسائل ليقربوهم إلى الله تعالى فإن كان من يعبد حياً فهو محتاج إلى الله، وإن كان ميتاً فقد انقطع عن الدنيا وأصبح رمية محتاج إلى الله أكثر وأشد، وإن كان غير ذلك من الجهادات فما أسفه العقل الذي يلجأ إلى مثل هذا ويترك رب هذه المخلوقات رب كل شيء ومليكه .

قال الله تعالى على لسان نبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦٦) ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾ (٣٦) ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ تَأْمُرُوتِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (٦٤) ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦٦) . (١) . (٢) . (٣) . (٤) .

وقال تعالى على لسان نبيه ورسوله إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتَبَتْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ (٤٤) . (٥) .

(١) سورة الأنعام: آية (٥٦) .

(٢) سورة الرعد: آية (٣٦) .

(٣) سورة الزمر: آية (٦٤) .

(٤) سورة غافر: آية (٦٦) .

(٥) سورة مريم: آية (٤٢) .

﴿يَأْتِي لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ (١).

والآيات في كتاب الله تعالى كثيرة جداً وما من نبي ولا رسول إلا دعا قومه إلى توحيد الله تعالى وحذرهم من الشرك به تعالى وسأبين إن شاء الله تعالى أقسام الشرك وبعض متعلقاته وعاقبته دون التطويل للحذر من ذلك .

#### أقسام الشرك :

أ - شرك في الربوبية .

ب - شرك في الأسماء والصفات .

ج - شرك في الألوهية .

أ - الشرك في الربوبية :

الله سبحانه وتعالى هو الخالق الرازق المحيي المميت، المالك المدبر، المعطي المانع الضار النافع، الخافض الرافع، المعز المذل، المتصرف في جميع مخلوقاته، لا شريك له في ملكه فمن اعتقد وجود متصرف مع الله فيما لا يقدر عليه إلا الله تبارك وتعالى فقد أشرك في ربوبية الله تعالى .

وقد ضرب العلماء رحمهم الله تعالى أمثلة على من أشرك في هذا النوع من توحيد الرب تبارك وتعالى .

---

(١) سورة مريم : آية (٤٤) .

قال الشيخ سليمان بن محمد بن عبد الوهاب : الشرك في الربوبية نوعان :

#### ١ - شرك التعطيل :

وهو أقبح أنواع الشرك، كشرك فرعون إذ قال: وما رب العالمين؟ ومن هذا شرك الفلاسفة القائلين بقدم العالم وأبديته، وأنه لم يكن معدوماً أصلاً، بل لم يزل ولا يزال، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائل اقتضت إيجادها: يسمونها العقول، والنفوس، ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود كابن عربي، وابن سبعين، والعفيف التلمساني، وابن الفارض، ونحوهم من الملاحدة الذين كسوا الإلحاد حلية الإسلام، ومزجوه بشيء من الحق، حتى راج أمرهم على خفافيش البصائر ومن هذا شرك من عطل أسماء الرب وأوصافه من غلاة الجهمية، والقرامطة .

#### ٢ - شرك من جعل معه إلهاً آخر ولم يعطل أساءه وصفاته وربوبيته:

كشرك النصاري الذين جعلوه ثالث ثلاثة، وشرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور وحوادث الشر إلى الظلمة. ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات ويجعلها مدبرة لأمر هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات ويجعلها مدبرة لأمر هذا العالم، كما هو مذهب مشركي الصابئة وغيرهم<sup>(١)</sup>.

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد : ص ٤٣، ٤٤ ، المكتب الإسلامي ، الطبعة السادسة.

فكل من اعتقد أن هناك شيئاً من المخلوقات أيّاً كانت لها تدبير أو تصرف في هذا الكون فقد أشرك في ربوبية الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ وَمِنْ إِلَهِ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢) .

وعن زيد بن خالد الجهني أنه قال : "صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال : "هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر: فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي وكافر بالكواكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكواكب" (٣) .

قال ابن القيم رحمه الله :

(ومن هذا شرك القدريّة: القائلين بأن الحيوان هو الذي يخلق أفعال نفسه وأنها تحدث بدون مشيئة الله وقدرته ولهذا كانوا أشباه المجوس. ومن هذا شرك

(١) سورة سبأ: آية (٢٢) .

(٢) سورة المائدة: آية (٧٣) .

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأذان حديث رقم ٨٤٦، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان ١٢٥ .



الذي حاج إبراهيم في ربه: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ (١).

ومن هذا شرك عباد الشمس وعباد النار، ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده هو الإله على الحقيقة، ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة، ومنهم من يزعم أن إلهه من جعله الآلهة وأنه إذا خصّه بعبادته والتبتّل إليه والانقطاع إليه أقبل عليه واعتنى به، ومنهم من يزعم أن معبوده الأدنى يقربه إلى المعبود الذي فوقه والفوقاني يقربه إلى من هو فوقه حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله سبحانه وتعالى فتارة تكثر (الآلهة) والوسائط وتارة تقل (٢).

ومنه شرك الدهريين . قال تعالى مخبراً عنهم ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ (٣) الآية .

ب - الشرك في الأسماء والصفات :

إن لله جلا وعلا أسماءاً وصفاتاً بينها في كتابه العزيز، وذكرها رسوله الأمين ﷺ في سنته المطهرة، فهي أسماء وصفات لائقة بجلاله وعظمته وعزته وكبريائه. فلا يشبه الخالق بالمخلوق، ولا يشق أسماء لآلهة أخرى باطلة من أسماء الإله الحق. فقد قال وهو أصدق القائلين . [ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون] (٤).

(١) سورة البقرة: آية (٢٥٨) .

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص ١٤٠ .

(٣) سورة الجاثية: آية (٢٤) .

(٤) سورة الأعراف: آية (١٨٠) .

قال ابن كثير : (قال ابن عباس : "قال إلحاد الملحدين أن دعوا اللات في أسماء الله . وقال ابن جريج عن مجاهد قال : اشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز" <sup>(١)</sup> . فتشبيه الخالق بال مخلوق شرك وهو كمن يقول يد كيدي، وسمع كسمعي، وبصر- كبصري، واستواء كاستوائي وهكذا في بقية الصفات . ووقوع الشرك في الأسماء مثلما أسلفنا كاشتقاق أسماء الآلهة من أسماء الله تعالى، مثل: اللات من الله، والعزى من العزيز، وما شابه هذا .

إذا علم هذا، فلا بد أن يكون العبد على بصيرة من دينه، وأن يكون عارفاً بكتاب الله تعالى وبسنة رسوله ﷺ، وخاصة أمور العقيدة، فلا يلحد في أسماء الله وصفاته، ولا يؤول بل يكون على منهج السلف الصالح الذين استقوا من المنبع الصافي واستناروا بنوره - كتاب الله وسنة رسوله ﷺ - فلم يحرفوا ولم يبدلوا ولم يضلهم الشيطان أولئك هم الفرقة الناجية .

يقول الإمام مالك رحمه الله تعالى عندما جاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله (الرحمن على العرش استوى) كيف استوى؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرخصاء ! ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلى مبتدعاً، ثم أمر به أن يخرج .

(١) تفسير القرآن العظيم : ج ٢ ، ص ٢٦٩ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (القول الكامل في الصفات : "أن يوصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله وبما وصفه به السابقون الأولون لا يتجاوزون القرآن والحديث، قال الإمام أحمد رحمته الله : لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلوات الله عليه ولا يتجاوز القرآن والحديث، ومذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكيف وتمثيل، فهو سبحانه ليس كمثله شيء لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته ولا في أفعاله، فكما نتيقن أن الله سبحانه له ذات حقيقية، وله أفعال حقيقية، فكذلك له صفات حقيقية. وهو ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ومذهب السلف بين التعطيل والتمثيل فلا يمثلون ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله فيعطلون أسمائه وصفاته العليا ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويلحدون في أسماء الله وآياته) <sup>(١)</sup> اهـ.

قال الشيخ ناصر بن معمر رحمه الله تعالى : (وكثير من الناس يتوهم في كثير من الصفات أو أكثرها أو كلها بأنها تماثل صفات المخلوقين ثم يريد أن ينفي ذلك الذي فهمه فيقع في محاذير منها :

١ - أنه مثل ما فهم من النصوص بصفات المخلوقين وظن أن مدلول النصوص هو التمثيل .

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : ج ٥، ص ٢٦، ٢٧ .

٢- أن ينفي الصفات عن الله بلا علم فيكون معطلاً لما يستحقه الرب من صفات الكمال ونعوت الجلال فيكون قد عطل ما أثبتته الله ورسوله من صفات الإلهية اللائق بجلال الله وعظمته .

٣- أن يصف الرب بنقيض تلك الصفات من صفات الجمادات وصفات المعدومات فيكون قد عطل صفات الكمال التي يستحقها الرب ومثله بالمنقوصات، والمعدومات، وعطل النصوص على ما دلت عليه من الصفات وجعل له مدلولها هو التمثيل بال مخلوق فجمع في الله وفي كلام الله من التعطيل والتمثيل فيكون ملحداً في أسمائه وآياته... الخ<sup>(١)</sup>.

وعن أبي شريح أنه كان يسمى أبا الحكم فقال له النبي ﷺ: "إن الله هو الحكم وإليه الحكم فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين فقال: "ما أحسن هذا فما لك من الولد؟ فقلت: شريح، ومسلم، وعبدالله. قال: فمن أكبرهم؟ قلت: شريح، قال: أنت أبو شريح"<sup>(٢)</sup>. قال الله تعالى: (والله يحكم لا معقب لحكمه) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك. لا مالك إلا الله"<sup>(٣)</sup>.

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية المجلد الثاني الجزء الثالث ص ٢١٦ .

(٢) رواه أبو داود كتاب الأدب ج ١٠، حديث رقم ٤٩٥٥، والنسائي آداب القضاء ٨/ ٢٢٦، وإسناده جيد قاله عبد القادر الأرناؤوط فتح المجيد، ص ٥١٧ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب حديث رقم ٦٢٠٥، ٦٢٠٦ . ومسلم في صحيحه كتاب الآداب ٢١٤٣، وأبو داود في كتاب الأدب رقم ٤٩٦١، والترمذي كتاب الأدب رقم ٢٨٣٩ .

قال الشيخ حافظ بن أحمد حكي : (وإذا عرفت أن توحيد الأسماء هو أن يدعى الله تعالى بما سمي به نفسه ويوصف بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله محمد ﷺ وينفي التشبيه والتمثيل، فضد ذلك شيئان ويعمهما اسم الإلحاد : أحدهما: نفي ذلك عن الله عز وجل وتعطيله عن صفات كماله ونعوت جلاله الثابتة بالكتاب والسنة .

وثانيهما : تشبيه صفات الله تعالى بصفات خلقه وقد قال تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١)، وقال تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ (٢) ﴿عَلَمًا﴾ (٣) .

(١) سورة الشورى : آية (١١) .

(٢) سورة طه : آية (١١٠) .

(٣) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد ج ١، ص ٤١٨ .

التحريف : تغيير النص لفظاً أو معنى .

التعطيل : عدم إثبات الصفات، أو إثبات بعضها ونفي الباقي .

التكييف : السؤال بصيغة - كيف - ؟

التمثيل : إثبات المثل للشيء مساوياً من كل الوجوه .

التشبيه : إثبات المثل للشيء مشابهاً له من بعض الوجوه .

الإلحاد : الميل عن الحق والانحراف عنه . ويدخل فيه : التحريف والتعطيل والتكييف والتمثيل والتشبيه (العقيدة الوسطية ص ١٥) لشيخ الإسلام ابن تيمية يقدمها للعالم مصطفى العالم، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان .

### ج - الشرك في الألوهية :

هو أن يجعل لله ندّاً في أنواع العبادة أو بعضها، وقد يكون الشرك هنا أكبر أو أصغر.

#### الشرك الأكبر :

هو أن يجعل العبد ندّاً لله تعالى يدعوه كما يدعو الله ويحبه كما يحب الله ويستغيث به كما يستغيث بالله ويستعين به كما يستعين بالله، ويتوكل عليه كما يتوكل على الله، أو يذبح له من دون الله، أو يخافه كما يخاف الله، وهكذا في جميع أنواع العبادة يعبد الله، سواء من دعاء أو استغاثة أو استعانة، أو توكل، أو إنابة، أو رجاء، أو رغبة أو رهبة، أو خشية، أو خوف، أو محبة، أو سجود، أو طاوف، أو نذر، أو استعاذة، أو ذبح، أو خشوع، أو غير ذلك .

قال الله تعالى : ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ <sup>(١)</sup> .

وقال تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتُمُوتُ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ <sup>(٢)</sup> .

(١) سورة النساء : آية (٣٦) .

(٢) سورة يونس : آية (١٩) .

وقال تعالى حكاية عن المشركين في توحيد الألوهية: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (٣).

قال ابن القيم :

(فأي ظلم أقبح من هذا؟ وأي حكم أشد جوراً منه؟ حيث عدل من لا عدل له بخلقه، فعدل المشرك من خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، فيا له من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه!!) (٤) اهـ.

قال الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي : (وإذا عرفت أن توحيد الإلهية هو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة ونفي العبادة عن كل ما سوى الله تبارك وتعالى ففصد ذلك هو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله عز وجل وهذا هو الغالب على عامة المشركين وفيه الخصومة بين جميع الرسل وأممها) (٥) اهـ.

(١) سورة الزمر : آية (٣) .

(٢) سورة الأنعام: آية (٣٧) .

(٣) سورة الأنعام : آية (١) .

(٤) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص ١٤٣ ، دار الندوة الجديدة بيروت ، لبنان.

(٥) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول الجزء الأول ص ٤١٨ .

## الشرك الأصغر :

كل وسيلة يمكن أن تؤدي إلى الشرك الأكبر ولم تبلغ رتبة العبادة ولا يخرج فاعله من الإسلام ولكنه من الكبائر. وكان الرسول ﷺ أخوف ما يخاف على أمته الشرك الأصغر لأنه خفي على العبد فقد يقع فيه وهو لا يعلم، أو قد يتهاون به لفظاً أو فعلاً فيقع في ذلك .

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝﴾ (١).

وعن محمود بن لبيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر فسئل عنه فقال: الرياء" (٢).

والرياء : هو ما يحصل من العبد من تزيين وتحسين شيء من أنواع العبادة المراد بها الله من أجل الناس ليمدحوه ويذكروه بها .

فإذا كان الشرك الأصغر مخوفاً على أصحاب رسول الله ﷺ مع قوة علمهم وإيمانهم فكيف لا يخافه وما فوقه من دونهم في العلم والإيمان بمراتب . وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝﴾ (٣).

(١) سورة الكهف: آية (١١٠) .

(٢) رواه أحمد في المسند : ٤٢٨/٥ ، ٤٢٩ ، والبغوي في شرح السنة، والطبراني في الكبير وهو حديث صحيح صححه الأرناؤوط في فتح المجيد ، ص ٨١ .

(٣) سورة البقرة : آية (٢٢) .



قال ابن كثير : (قال ابن عباس: الأنداد: هو الشرك أخفى من ديب النمل على صفة سوداء في ظلمة الليل وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان وحياتي ويقول لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة ولولا البط في الدار لأتى اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلان هذا كله به شرك) <sup>(١)</sup>.

فالصحابة رضي الله عنهم يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر بأنها تعم الأصغر، وهذا لعظم الشرك والخوف منه أكبر كان أم أصغر، ويكفي فيه أن اسمه شرك .

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت فقال له النبي ﷺ: "أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحسده" <sup>(٢)</sup>.

ولابن ماجه عن الطفيل - أخي عائشة لأمها - قال: "رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: عزيز ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد. ثم مررت بنفر من النصرارى فقلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله، قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، قال: هل أخبرت بها أحداً؟ قلت: نعم. قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "أما بعد، فإن طفيلاً رأى رؤيا

(١) تفسير القرآن العظيم: ج ١، ص ٥٧-٥٨.

(٢) رواه أحمد في المسند: ١/ ٢١٤، ٢٨٣، ٣٤٧، والبخاري في الأدب المفرد رقم ٧٨٣، وابن ماجه رقم ٢١١٧، وهو عند النسائي في الكبرى. قاله عبدالقادر الأرناؤوط في فتح المجيد ص ٨٤، حديث صحيح.

أخبر بها من أخبر منكم وإنكم قلتكم كلمة كان يمنعني كذا وكذا<sup>(١)</sup> أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده<sup>(٢)</sup>.

وعن سعد بن عبيدة أن ابن عمر سمع رجلاً يقول: لا والكعبة.

فقال ابن عمر: لا يحلف بغير الله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من حذف بغير الله فقد كفر أو أشرك"<sup>(٣)</sup>.

(١) (كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم): قال الشيخ محمد حامد فقي: لعل الذي كان يمنعه ﷺ أنه لم يكن الله أوحى إليه شيئاً، فلما أوحى إليه بلّغه. أما الحياء في تبليغ الأوامر والنواهي فهذا لا يليق برسول الله ﷺ والله أعلم.

قال سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز: قوله: أما الحياء في تبليغ الأوامر والنواهي (الخ. أقول: هذا كلام جيد، والجواب عن الجواب التي ذكرها الشارح وهي قوله: (ورد في بعض الطرق أنه كان يمنعه الحياء منهم) أن يقال: إن صحت هذه الرواية فمعنى ذلك أنه كان عليه الصلاة والسلام يستحي منهم أن ينهاهم عن شيء لم يوحى إليه أن ينهى عنه، وإن كان يستحسن تركه، فلما جاءه الوحي بالنهي عنه بسبب الرؤيا المذكورة نهاهم عن ذلك...) انظر فتح المجيد التعليق على الحاشية ص ٤٣٣، دار الفكر (مراجعة وتصحيح وتعليق سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز).

(٢) رواه ابن ماجه رقم ٢١١٨ في الكفارات، باب النهي أن يقال ما شاء الله وشئت، من حديث الطفيل بن سخرية أخي عائشة لأُمها، ومن حديث ربعي بن حراش عن حذيفة بن اليمان ؓ أن رجلاً من المسلمين رأى في النوم أنه يلقي رجلاً من أهل الكتاب فقال: نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون، تقولون ما شاء الله وشاء محمد، وذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: "أما والله إن كنت لأعرفها لكم، قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد" ورواه أيضاً أحمد في المسند: ٧٢/٥ من حديث الطفيل بن سخرية أخي عائشة لأُمها... وأحمد: ٣٩٣/٥ من حديث حذيفة ؓ والدارمي: ٢٩٥/٢ من حديث الطفيل بن سخرية أخي عائشة لأُمها، وهو حديث حسن، قاله الأرنؤوط في تحقيقه وتخريجه لأحاديث فتح المجيد ص ٥٠٦.

(٣) رواه الترمذي كتاب النذور والإيمان حديث رقم ١٥٣٥ وقال حديث حسن، ورواه أيضاً أحمد في المسند: ٦٩/٢، ٨٧، ١٢٥، ورواه الحاكم وغيره من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما. وقال الأرنؤوط في تحقيقه وتخريجه أحاديث فتح المجيد: حديث صحيح انظر ص ٤٩٦.

وهناك ألفاظ من الشرك الأصغر مثل : أنا متوكل على الله وعليك، وأنا في حسب الله وحسبك، ومالي إلى الله وأنت، وهذا من الله ومنك ، وهذا من بركات الله وبركاتك، أو يقول والله وحياة فلان، وحياتك، وحياة النبي، والنبي، أو يقول نذراً لله ولفلان، أو أنا تائب لله ولفلان، وأرجو الله ولفلان، والكعبة، والأمانة، وما شابه هذه الألفاظ التي فيها مساواة بين الخالق والمخلوق هذه كلها شرك بالله تعالى في الألفاظ .

فالعقيدة هي الأساس الذي يجب أن يعرفه العبد ويعمل به ويدعو إليه ويصبر على الأذى في سبيل ذلك، فإن من حقق توحيد الله تعالى وعمل به نجا وأفلح في الدنيا والآخرة، وما من نبي ولا رسول إلا وأول ما يقرع به آذان قومه الدعوة إلى توحيد الله تعالى .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۚ ﴾ (٢) .

فنوح عليه السلام قال لقومه : ﴿ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۚ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۚ ﴾ (٣) .

(١) سورة النحل : آية (٣٦) .

(٢) سورة الأنبياء : آية (٢٥) .

(٣) سورة الأعراف : آية (٥٩) .

وهود عليه الصلاة والسلام قال لقومه ﴿قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْقُوتُونَ﴾ (١).

وصالح عليه الصلاة والسلام قال لقومه: ﴿يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (٢).

وشعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ (٣).

وإبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ (٤).

وذا النون عليه الصلاة والسلام إذ نادى ربه في الظلمات قائلاً: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥).

ويوسف عليه الصلاة والسلام قال: ﴿يَصْدِحِّي السِّجْنَاءُ أَزْوَاجٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٣٩) ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما

(١) سورة الأعراف: آية (٦٥).

(٢) سورة الأعراف: آية (٧٣).

(٣) سورة هود: آية (٨٤).

(٤) سورة الأنبياء: آية (٦٧).

(٥) سورة الأنبياء: آية (٨٧).

أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ (١).

وعيسى عليه الصلاة والسلام قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ (٢).

وموسى عليه الصلاة والسلام قال لقومه: ﴿وَجُوزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَنَطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ (٣).

ويعقوب عليه الصلاة والسلام أخبرنا الله عنه في قوله عز وجل: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَابَاؤُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ (٤).

وخاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ يخاطب اليهود والنصارى بما أمره به ربه: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾ (٥).

(١) سورة يوسف: آية (٣٩-٤٠).

(٢) سورة آل عمران: آية (٥١).

(٣) سورة الأعراف: آية (١٤٠).

(٤) سورة البقرة: آية (١٣٢).

(٥) سورة آل عمران: آية (٦٤).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٥١) (١).

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخَذُولًا﴾ (٢٢) (٢).

هذا ما يريده رب العزة والجلال من عباده لا عبادة غيره جل وعلا وإشراك معه غيره مما لا ينبغي إلا له عز وجل ولا يستقيم أمر لعبد أشرك مع الله غيره وهو المستحق لذلك دون سواه .

---

(١) سورة الذاريات : آية (٥١) .

(٢) سورة الإسراء : آية (٢٢) .

## ١ - طاعة الغير فيما حرم الله تعالى شرك

بعد أن تبيّنّا على بطلان كل حكم غير حكم الله تعالى وحكم رسوله ﷺ فإنه يتضح لنا أن طاعة من أمر بأمر فيه مخالفة لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ شرك بالله تعالى وهذا ما أخبر الله تعالى به فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخِذَ إِلَىٰ أُولِيَآئِهِمْ لِيُجْدِلُوَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (١).

قال ابن كثير: ("وإن أطعتموهم إنكم لمشركون" أي: حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره فقد متم عليه غيره فهذا هو الشرك كقوله تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ (٢)، وقد روى الترمذي في تفسيرها عن عدي بن حاتم أنه قال: يا رسول الله ما عبدوهم؟ فقال: "بلى إنهم أحلّوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إيّاهم" (٣) اهـ.

فالعدول عن أمر الله تعالى والطاعة في المعصية شرك بالله تعالى؛ لأنه ترك لما به تصلح البشرية وتستقيم عليه الأمور، وطاعة فيما يحصل به الخراب والدمار.

قال الفخر الرازي: (قال الزجاج: "وفيه دليل على أن كل من أحلّ شيئاً مما حرم الله تعالى، أو حرّم شيئاً مما أحلّ الله تعالى فهو مشرك، وإنما سُمّي مشركاً لأنه أثبت حاكماً سوى الله تعالى وهذا هو الشرك") (٤) اهـ.

(١) سورة الأنعام: آية (١٢١).

(٢) سورة التوبة: آية (٣١).

(٣) تفسير القرآن العظيم: ج ٢، ص ١٧١.

(٤) تفسير الفخر الرازي: ج ٣، جزء ١٣، ص ١٧٩ دار الفكر.

قال الله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُهُ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢١) (١).

وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ تلا هذه الآية على عدي بن حاتم الطائي، فقال: يا رسول الله، لسنا نعبدهم، قال: "أليس يملكون ما حرم الله عليكم فتحلونه ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ قال: بلى. قال النبي ﷺ: "فتلك عبادتهم" (٢).

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن آل شيخ: (قال السدي: استنصحو الرجال ونبدوا كتاب الله وراء ظهورهم. ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُهُ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢١) فإن الحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله والدين ما شرعه الله).

(١) سورة التوبة: آية (٣١).

(٢) قال الشيخ عبدالقادر الأرناؤوط: رواه الترمذي رقم (٣٠٩٤) في التفسير، باب ومن سورة براءة، وأخرجه ابن جرير رقم (١٦٦٣١) و(١٦٦٣٢) و(١٦٦٣٣) وأورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٢٣٠، وزاد نسبه لابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في سننه.

وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالسلام بن حرب وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث.

أقول: لكن في الباب عن حذيفة موقوفاً أخرجه الطبراني رقم (١٦٦٣٤) وبه يقوى.

وقال ابن كثير: رواه أحمد والترمذي وابن جرير عن عدي بن حاتم رضي الله عنه. انظر فتح المجيد، ص ١٠٧، تحقيق و تخريج عبدالقادر الأرناؤوط.



فظهر بهذا أن الآية دلّت على أن من أطاع غيره الله ورسوله، وأعرض عن الأخذ بالكتاب والسنة في تحليل ما حرّم الله، أو تحريم ما أحلّ الله، وأطاعه في معصية الله، واتبعه فيما لم يأذن به الله، فقد اتخذهُ ربّاً ومعبوداً وجعله الله شريكاً، وذلك ينافي التوحيد الذي هو دين الله الذي دلّت عليه كلمة الإخلاص (لا إله إلا الله) فإن الإله هو المعبود، وقد سمّى الله تعالى طاعتهم عبادة لهم، وسمّاهم أرباباً .  
كما قال تعالى : ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾

أي : شركاء لله تعالى في العبادة ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ <sup>(١)</sup>، وهذا هو الشرك فكل معبود رب، وكل مطاع ومتبع على غير ما شرعه الله ورسوله فقد اتخذهُ المطيع المتبع ربّاً ومعبوداً، كما قال تعالى في آية الأنعام : وهذا هو وجه مطابقة الآية للترجمة، ويشبه هذه الآية في المعنى قوله تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ <sup>(٢)</sup> والله أعلم .

(١) سورة آل عمران : آية (٨٠) .

(٢) سورة الشورى : آية (٢١) .

قال شيخ الإسلام في معنى قوله : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ (وهؤلاء الذين اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أرباباً حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين:

**أحدهما** : أن يعلموا أنهم بدلّوا دين الله فيتبعوهم على هذا التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحلّ الله، اتباعاً لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل. فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركاً، وإن لم يكونوا يصلّون لهم ويسجدون لهم. فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه إنه خلاف للدين، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله، مشركاً مثل هؤلاء .

**الثاني** : أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتاً، لكنهم أطاعوهم في معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاص، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب، كما قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : "إنما الطاعة في المعروف" (١). اهـ

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد تصحيح وتعليق سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز أنظر ص ١١٠-١١١ دار الفكر .

## ٢- تحكيم غير ما أنزل الله تعالى

المولى عز وجل هو الحكم في الدنيا والآخرة فحكمه في الدنيا بإنزال أحكامه على رسله بوحيه المنزل بواسطة جبريل عليه السلام ففي تلك الأحكام (التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى والقرآن العظيم) وغيرها من الكتب السماوية التي تضبط كل أمة من الأمم بأحكام الله الفاضلة والصالحة لما تستقيم عليه حياة البشر، فهو الخالق لعباده من العدم إلى هذا الوجود، والعالم بما يصلح شأنهم، وما فيه خراب أحوالهم. فكل ما أنزل من أحكام فاضلة هي مهيمنة على ما سواها بل ما سواها باطل، فأحكام القوانين السارية في بعض بلدان العالم العربي والإسلامي كلها ما أنزل الله بها من سلطان بل خارجة على أحكام الله تعالى التي ارتضاها لعباده جميعاً على وجه هذه المعمورة .

قال تعالى : ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾ (٥٧) (١) .

فالحكم في الدنيا لا بد أن يكون بأمر الله ونهيه وكذا يوم القيامة الحكم حكمه بالمجازاة على الأعمال .

وقال تعالى : ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (٦٢) (٢) .

وقال تعالى : ﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ (١٠) (٣) .

(١) سورة الأنعام : آية (٥٧) .

(٢) سورة الأنعام : آية (٦٢) .

(٣) سورة الشورى : آية (١٠) .

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (١).

فالحكم إلى الله: أي إلى كتابه. والحكم إلى رسوله: أي إليه في حياته وإلى سنته بعد وفاته. فلا حكم اليوم إلا بكتاب الله تعالى القرآن وبسنة رسوله ﷺ فكل نظام أو ما يدعى بالدستور أو القوانين الخارجة عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ باطلة. وإن حُكمت فلا تستقيم عليها الأمم ولا يصلح عليها الأفراد.

وكيف لا يكون ذلك وهو من صنع البشر فلا بد من الفوضى والإباحية لأفراده، ولمجتمعه التفكك والانحطاط، ونهايته للزوال والدمار.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢).

يقول ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ومن لم يحكم بما أنزل في التوراة من قود النفس القاتلة قصاصاً بالنفس المقتولة ظلماً ولم يفتأ عين الفاقئ بعين المفقوء ظلماً قصاصاً ممن أمره الله به بذلك في كتابه، ولكن أقاد من بعض ولم يقد من بعض، أو قتل من بعض اثنين بواحد، وإن من يفعل ذلك من الظالمين، يعني ممن جار على حكم الله، ووضع فعله ما فعل من ذلك في غير موضعه الذي جعله الله له موضعاً) (٣) اهـ.

(١) سورة النساء: آية (٥٩).

(٢) سورة المائدة: آية (٤٥).

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ج ٦، ص ٢٦٤.

وقد سبق ذكر الآية كاملة في المبحث الثاني وهو "عقوبة الظلمة"، في موضوع القصاص، وهنا نذكرها لمناسبة موضوعنا وهو تحكيم القوانين .

قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٦٥) (١).

قال السيوطي عند هذه الآية : (قلت: "أخرج قصتها ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي الأسود قال : (اختصم رجلان إلى النبي ﷺ فقاضى بينهما فقال الذي قضى عليه ردنا إلى عمر بن الخطاب فأتيا إليه فقال الرجل : قضى لي رسول الله ﷺ على هذا فقال: ردنا إلى عمر فقال: أكذاك، قال : نعم، فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما. فخرج إليهما مشتملاً على سيفه فضرب الذي قال: "ردنا إلى عمر" فقتله، وأدبر الآخر فقال: يا رسول الله، قتل عمر والله -صاحبي- ، فقال: ما كنت أظن أن يجترئ عمر على قتل مؤمن فأنزل الله ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الآية، فأهدر دم الرجل و برئ عمر من قتله وله شاهد موصول أورده في التفسير المسند) (٢).

قال الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله : (وقد نفى الله سبحانه وتعالى الإيمان عمّن لم يحكّموا النبي ﷺ فيما شجر بينهم نفياً مؤكداً بتكرار أداة النفي وبالقسم، ولم يكتف تعالى وتقدس منهم بمجرد التحكيم للرسول ﷺ حتى يضيفوا إلى ذلك

(١) سورة النساء : آية (٦٥) .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ١١٦ ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

عدم وجود شيء من الحرج في نفوسهم بقوله جلّ شأنه ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت. والحرج: الضيق، بل لا بد من اتساع صدورهم وسلامتها من القلق والاضطراب ولم يكتف تعالى أيضاً هنا بهذين الأمرين حتى يضمّوا إليهما التسليم وهو كمال الانقياد لحكمه ﷺ بحيث يتخلون هاهنا من أي تعلق للنفس بهذا الشيء ويسلموا ذلك إلى الحكم الحق أي أتم التسليم ولهذا أكد ذلك بالمصدر المؤكد وهو قوله جلّ شأنه : (تسليماً) المبيّن أنه لا يكتفى هنا بالتسليم.... بل لا بد من التسليم المطلق (١) اهـ.

إذا علم هذا مع ما سيرد إن شاء الله من الأدلة، فكيف بمن يعمدون إلى القوانين الوضعية وخاصة ما هو متخذ وجار عند من ينطقون بالشهادتين ويدينون بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً؟ هل يرضى العبد أن يبدل بالإسلام كفراً؟ أو بالرخاء شدة؟ أو بالأمن والعزة خوفاً وخسراناً؟

إن هذا ما نراه فيمن حاد عن أحكام الله تعالى واستبدل بها القوانين الوضعية المستمدة من أعداء الإسلام الكفرة، أما من لا يزالون يحكمون كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فهم في أمن واستقرار ورغد من العيش وطمأنينة على الأنفس والأموال والأعراض بعكس من حاد عن ذلك .

(١) تحكيم القوانين ص ١، مطابع دار الثقافة بمكة غرة رجب، ١٣٨٠ هـ .

- قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ <sup>(١)</sup> .  
 وقال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ <sup>(٢)</sup> .  
 وقال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ <sup>(٣)</sup> .

فيا له من حكم عظيم أصدره المولى القدير مرة بالكفر وأخرى بالظلم وثالثة بالفسق على من لم يحكم بما أنزل الله تعالى .

إن ما تتمعر له الوجوه هو ما يتخذه من يدعي الإسلام من اللجوء على القوانين الوضعية دون حكم الله تعالى ورسوله ﷺ وهذا ميول إلى ما قد اتخذ أعداء الإسلام الكفرة سواء في البلاد الأوروبية أو غيرها من البلدان الكافرة الأخرى في بقاع الأرض المختلفة: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ <sup>(٤)</sup> خاب وخسر من حاد عن حكم الله تعالى وحكم رسوله ﷺ .

إن ما يتخذ من أنظمة جنائية ومدنية وتجارية وغير ذلك لا يتلائم وحياة الأفراد واستقرارهم والحفاظ على حقوقهم، إن في ذلك تمزيقاً للجماعات وضياعاً للحقوق وتفككاً في المجتمعات ومما ينذر بسقوط الحكومات وحصول النزاع والفوضى في الشعوب . فلا والله ما تركت حكومة من الحكومات أحكام الله تعالى

(١) سورة المائدة: آية (٤٤) .

(٢) سورة المائدة: آية (٤٥) .

(٣) سورة المائدة: آية (٤٧) .

(٤) سورة آل عمران: آية (٨٥) .

إلا أصيبت بالبلايا وخاصة الخوف والرعب الذي يزلزلها زلزالاً شديداً ورأت العقوبات في الدنيا خلاف ما هو مؤجل لهم في الآخرة، وما ضيَّعت بعض الأحكام وتركت إلا عوقب من ضيَّعها بمثل ما ترك وأهمل .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "التبعن سنن من كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضبّ تبعتموهم . قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟" <sup>(١)</sup> .

فلا غرابة في هذا فقد بدأت غربة الإسلام حيث قست القلوب لطول الأمد، وهذا ما أخبر عنه المولى عز وجل : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

إن حكم الله قائم مهما نشأت الحوادث عن تطور الأزمان، وتغيرت الأحوال، فلا يصدر عنه ويرضى بغيره إلا من استحوذ عليه الشيطان وعميت بصيرته وضلَّ عن هدي الله إلى أحكام ساقطة، وأفكار ضالة، لم تغن عن أصحابها شيئاً من التعاسة والسقوط في الدنيا وحصول غضب الرحمن وعذابه في الآخرة.

(١) روه البخاري، كتاب الاعتصام ١٤، ومسلم كتاب العلم ٦، وابن ماجه كتاب الفتن ١٧، وأحمد في المسند: ٣٢٧/٢ .

(٢) سورة الحديد : آية (١٦) .



قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١).

قال ابن كثير: (هذا الإنكار من الله عز وجل على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله كما ذكر في سبب نزول هذه الآية أنها في رجل من الأنصار، ورجل من اليهود تخاصما فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد، وذاك يقول بيني وبينك كعب بن الأشرف. وقال: في جماعة من المنافقين، ممن أظهروا الإسلام أرادوا أن يتحاكموا إلى أحكام الجاهلية. وقيل غير ذلك، والآية أعم من ذلك كله فإنها دامة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواها من الباطل وهو المراد بالطاغوت هنا) (٢).

(فإن قوله عز وجل (يزعمون) تكذيب لهم فيما ادعوه من الإيمان فإنه لا يجتمع التحاكم إلى غير ما جاء به النبي ﷺ مع الإيمان في قلب عبد أصلاً بل أحدهما ينافي الآخر والطاغوت مشتق من الطغيان وهو مجاوزة الحد فكل من حكم بغير ما جاء به الرسول ﷺ أو حاكم إلى غير ما جاء به النبي ﷺ فقد حكم بالطاغوت وحاكم إليه. وذلك أنه من حق كل أحد أن يكون حاكماً بما جاء به النبي ﷺ فقط لا

(١) سورة النساء: آية (٦٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم: ج ١، ص ٥١٩.

بخلافه. كما أن من حق كل أحد أن يحاكم إلى ما جاء به النبي ﷺ فمن حاكم بخلافه أو حاكم إلى خلافه فقد طغى وجاوز حده حكماً أو تحكياً فصار بذلك طاغوتاً لتجاوزه حده<sup>(١)</sup> اهـ.

إن هؤلاء الجهلة الذين تركوا الكتاب والسنة. ولجأوا إلى أحكام خلاف ذلك قد أهلكوا أنفسهم وضيّعوا غيرهم حيث أوقعوهم بما أوقعوا فيه أنفسهم.

قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُواكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (٣)، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٤).

هذه الآيات وأمثالها كثير يحذر فيها المولى عز وجل من اللجوء إلى حكم غير الله تعالى، ويندب بكل من يخالف ذلك ويأمر أن يكون الحكم هو حكمه وحكم رسوله ﷺ المنزل عليه منه جل وعلا ويحذر تعالى من أولئك المخالفين وفتنتهم، وأن يكون العبد طائعاً ومستسلماً لأمر الله تعالى .

(١) تحكيم القوانين : ص ٣ .

(٢) سورة المائدة : آية (٥٠) .

(٣) سورة المائدة : آية (٤٩) .

(٤) سورة المائدة : آية (٤٢) .

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥١) (٢).

وما أحسن ما قاله الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله تعالى: (.... فيا معاشر العقلاء ويا جماعات الأذكياء أولي النهى كيف ترضون أن تجرى عليكم أحكام أمثالكم وأفكار أشباهكم أو من دونكم ممن يجوز عليهم الخطأ بل خطؤهم أكثر من صوابهم بكثير بل لا صواب في حكمهم إلا ما هو مستمد من حكم الله ورسوله نصّاً أو استنباطاً تدعونهم يحكمون في أنفسكم ودمائكم وأبشاركم وأعراضكم وفي أهليكم من أزواجكم وذرائعكم وفي أموالكم وسائر حقوقكم ويرفضون أن يحكموا فيكم بحكم الله ورسوله الذي لا يتطرق إليه الخطأ ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. وخضوع الناس ورضوخهم لحكم ربهم خضوع ورضوخ لحكم من خلقهم تعالى ليعبدوه. فكما لا يسجد الخلق إلا لله ولا يعبدون إلا إياه، ولا يعبدون المخلوق فكذلك يجب أن لا يرضخوا ولا يخضعوا أو ينقادوا إلا لحكم الحكيم العليم الحميد الرؤوف الرحيم

(١) سورة النور: آية (٤٧-٥٠).

(٢) سورة النور: آية (٥١).

دون حكم المخلوق الظلوم الجهول الذي أهلكته الشكوك والشبهات واستولت عليهم قلوبهم الفظة والقسوة والظلمات فيجب على العقلاء أن يربأوا بنفوسهم عنه لما فيه من الاستعباد لهم والتحكم فيهم بالأهواء والأغراض والأغلاط والأخطاء فضلاً عن كونه كفراً بنص قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (١).

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (١٣٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٣٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي (١٣٦) ﴿٢﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ نَدَعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴿٥٨﴾ ﴿٣﴾.

قال ابن أبي العز: (إن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفراً ينقل عن الملة وقد يكون معصية: كبيرة أو صغيرة، ويكون كفراً: أمّا مجازياً، وأمّا كفراً أصغر على القولين المذكورين، وذلك بحسب حال الحاكم. فإنه أن اعتقد أن الحكم بما أنزل

(١) تحكيم القوانين : ص ٧-٨ .

(٢) سورة طه : آية (١٢٤-١٢٦) .

(٣) سورة الكهف : آية (٥٧-٥٨) .

الله غير واجب، وأنه مخير فيه أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله فهذا كفر أكبر<sup>(١)</sup>. وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله ، وعلمه في هذه الواقعة وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا عاص. ويسمى كافراً كفوفاً مجازياً، أو كفراً أصغر. وإن جهل حكم الله فيها مع بذل جهده واستفراغ وسعه في معرفة الحكم وأخطأه فهذا مخطئ له أجر على اجتهاده وخطأه مغفور<sup>(٢)</sup>.

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر : (وهذا مثل ما ابتلى به الذين درسوا القوانين الأوروبية من رجال الأمم الإسلامية ونسائها، أيضاً الذين أشربوا في قلوبهم حبها والشغف بها، والذب عنها، وحكموا بها، وأذاعوها، بما ربوا من تربية أساسها صنع المبشرين الهدامين أعداء الإسلام، ومنهم من يصرح ، ومنهم من يتوارى، ويكادون يكونون سواء . فإنه لله وإنا إليه راجعون .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية حققها جماعة من العلماء وخرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني ص ٣٢٣-٣٢٤.

### ٣- عاقبة الشرك

الشرك بالله تعالى هو الذنب الأعظم الذي يقطع الصلة بين الله تعالى وبين العباد. وقد حذر منه المولى عز وجل في مواضع كثيرة في كتابه العزيز، وندد بمرتكبه، وطرده وأبعده من رحمته، وأوعده بعذابه وخلوده الأبدي، في نار لا تنفى وعذاب لا يبيد، فليس لمرتكبه أمل في مغفرة من الله بعد أن يفارق الدنيا وهو على ذلك .

قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١١٦) . وقال : ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٧٢) . وقال : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١١٠) . (٢) . وقال : ﴿لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْطَبَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٦٥) . (٤) .

وفي هذه الآية خطاب لسيد المرسلين محمد ﷺ فكيف بغيره؟ وقال تعالى : ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (٢٣) . (٥) .

(١) سورة النساء : آية (١١٦) .

(٢) سورة المائدة : آية (٧٢) .

(٣) سورة الكهف : آية (١١٠) .

(٤) سورة الزمر : آية (٦٥) .

(٥) سورة الفرقان : آية (٢٣) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه" (١).

وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: "أكبر الكبائر الإشراف بالله وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، وشهادة الزور (ثلاثاً) وقول الزور، فما زالها يكررها حتى قلنا ليته سكت" (٢).

وعن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار، وقلت أنا: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة" (٣).

وعن عبدالله قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أين لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: "ليس هو كما تظنون. إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾" (٤).

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الزهد ٤٦، وابن ماجه الزهد ٢١، وأحمد في المسند: ٣٠١ / ٢.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الاستتابة ١.

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز حديث رقم ١٢٣٨، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان ١٥٠، والنسائي كتاب الإيمان ٢-٤، ٦، وأحمد في المسند: ١١ / ٤.

(٤) رواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان حديث رقم ١٢٤، والترمذي تفسير سورة ٦، ٤.

قال محمد خليل الهراس تحت عنوان آثار الشرك ومفاسده : (أعجبني كلمة لبعض الباحثين في هذا الصدد أثبتتها هنا بنصها يقول : "إن أكبر الكبائر الإشراك بالله تعالى: ذلك لأن الشرك ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض، وحجب متلاطمة لا يقر لها قرار، فهو يجعل الإنسان عبداً للمخلوق وهو لا يعبد المخلوق إلا جلباً لفائدة أو دفعاً لضرر، فهو في الواقع عبد لمصلحته، وبالتالي هو عبد لنفسه، وعبادة النفس معناها أن الشخص غير صالح ليكون عضواً كريماً عاملاً على الرقي بالجماعة الإنسانية محققاً لسعادتها . بل على الضد من ذلك يكون عدواً للإنسانية هادماً لأركانها ساعياً في شقائها دون أن يدري إذ أن الشرك يقلب الأوضاع، فيجعل الحق باطلاً والباطل حقاً، والخالق مخلوقاً والمخلوق خالقاً، وعلى هذا الأساس لا يمكن أن تبنى قواعد الجماعات على أسس سليمة ذلك أن العلاقات الإنسانية تكون مبنية على مستلزمات الشرك وهي الجشع والتربص والحقد والكذب وسفك الدماء والعدوان والاستعباد والإذلال . كل ذلك يؤدي إلى انفراط نظام العقد الإنساني الذي يتحول إلى فوضى ولا ضابط لها ولا رابط، يسودها الخوف ويخيم عليها القلق، ويتخللها الحروب التي لا تنتهي والتي تسببها الأطماع التي لا تنتهي، وحينئذ تصبح الحياة شقاء لا سعادة فيه وجحيماً لا يطاق يعذب فيه البشر بعضهم بعضاً) <sup>(١)</sup>.

---

(١) دعوة التوحيد للدكتور/ محمد خليل الهراس ، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٧٥-٧٦ .



المبحث الثاني

الوقوع في المعاصي

## المبحث الثاني

### الوقوع في المعاصي

المعاصي شرها مستطير وخطرها عظيم وبسبب معصية واحدة ومخالفة أمر رب العزة والجلال أخرج آدم عليه السلام وحواء من الجنة، ولا يزال الشيطان بآدم وذريته ﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦) ثُمَّ لَا تَجِدُ لَهُمْ قُوَّةً يَنْصِرُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْهَبًا وَمَا مَدْحُورًا لَمَنْ خَلْفَهُمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٨﴾ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٩﴾ (١).

فأخذ في اجتيال العباد وصددهم عن دين الله تعالى، والمولى قد حذر منه ومن اتباعه وتوعد العصاة بعذابه .

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١٤) ، وقال: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (٣٦) ، وقال: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارًا جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ (٢٣) ، ومحمد ﷺ يخاف يوم القيامة لو عصاه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٥) . وفي موضع آخر يقول

(١) سورة الأعراف: آية (١٦-١٨) .

(٢) سورة النساء: آية (١٤) .

(٣) سورة الأحزاب: آية (٣٦) .

(٤) سورة الجن: آية (٢٣) .

(٥) سورة الأنعام: آية (١٥) .

تعالى حكاية عن محمد ﷺ: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٥) ،  
ويقول في موضع آخر ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٣) . (٢)

فما دام محمد ﷺ يخاف عذاب الله لو عصاه فكيف بمن يعصون الله تعالى؟  
والمعاصي منها ما يكون كفراً، ومنها ما هو دون ذلك، وكلها خطر على العبد لأن  
في ذلك غضب الرب تبارك وتعالى .

قال ابن القيم : (الذنوب نوعان: ترك مأمور، وفعل محظور، وهما الذنبان  
اللذان ابتلى الله سبحانه بهما أبوي الجن والإنس، وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلى :  
ظاهر على الجوارح ، وباطن في القلوب، إلى أن قال: ثم هذه الذنوب تنقسم إلى  
أربعة أقسام: ملكية، وشيطانية، وسبعية، وبهيمية، ولا تخرج عن ذلك .

#### ١ - الذنوب الملكية :

أن يتعاطى ما لا يصلح له من صفات الربوبية - كالعظمة والكبرياء  
والجبروت والقهر والعلو واستعباد الخلق ونحو ذلك. ويدخل في هذا الشرك بالله  
تعالى ... إلى أن قال : وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب. ويدخل فيه القول على  
الله بلا علم في خلقه وأمره، فمن كان من أهل هذه الذنوب فقد نازع الله سبحانه  
في ربوبيته وملكه وجعل له ندّاً وهذا أعظم الذنوب عند الله ولا ينفع معه عمل.

(١) سورة يونس: آية (١٥) .

(٢) سورة الزمر: آية (١٣) .

## ٢ - الذنوب الشيطانية :

وهي التشبه بالشيطان في الحسد، والبغي، والغش، والغل، والخداع، والمكر، والأمر بمعاصي الله وتحسينها، والنهي عن طاعته وتهجينها، والابتداع في دينه، والدعوة إلى البدع والضلال .

## ٣ - الذنوب السبعية :

وهي ذنوب العدوان، والغضب، وسفك الدماء، والتوثب على الضعفاء والعاجزين، ويتولد منها أنواع أذى النوع الإنساني والجرأة على الظلم والعدوان.

## ٤ - الذنوب البهيمية :

وهي مثل الشره، والحرص على قضاء شهوة البطو والفرج، ومنها يتولد الزنا، والسرقه، وأكل أموال اليتامى، والبخل، والشح، والجبن، والهلع، والجزع، وغير ذلك. وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام فهو يجبرهم إليها بالزمام فيدخلون منه إلى الذنوب السبعية ثم الشيطانية ثم إلى منازعة الربوبية والشرك في الوجدانية<sup>(١)</sup> اهـ.

إذا علم هذا فيكن للعبد مندوحة عن هذه الطرق المهلكة، ويحذر من الوقوع في شيء منها لئلا يهلك نفسه ويضيع دينه فيحصل له غضب الرحمن، فيبوء بالندامة والخسران .

وسأتناول في هذا المبحث شيئاً من المعاصي سواء ما كان كفراً أو ما دون الكفر.

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص ١٣٣ - ١٣٤ دار الندوة الجديدة، بيروت.

## ١- الكذب على الله من أظلم الظلم

فرية الكذب على الله تعالى من أظلم الظلم فإذا جعل العبد لله شركاء أو ولدًا أو ادعى أن الله أرسله ولم يرسله أو ادعى أن الله أوحى إليه ولم يوح إليه، أو ادعى أنه سينزل مثلما أنزل الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١).

قال ابن كثير: (الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه في جسده وتعصي وتأبى الخروج فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي اليوم تهانون غاية الإهانة كما كنتم تكذبون على الله وتستكبرون على اتباع آياته والانقياد لرسوله) (٢) اهـ.

(١) سورة الأنعام: آية (٩٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم: ج ٢، ص ١٥٧.

ومن أظلم الظلم التكذيب بآيات الله وحججه وبراهينه ودلالاته: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٢).

في هذه الآية الكريمة يبين لنا المولى عز وجل أن الذين يفترون على الله الكذب يفضحهم في الدار الآخرة حيث يبين ما قد اقترفوه من الافتراء على الله تعالى وذلك على رؤوس الخلائق من الملائكة والرسل والأنبياء وجميع البشر - والجان، وهذا البيان ليأخذ العبد حذره ما دام في سعة في حياته الدنيا .

ويقول تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنَّا آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ (٣).

وهنا يبين تعالى حال الذين يكذبون بآياته ويعرضون عنها وحججها ودلالاتها.

قال القرطبي (٤): (قال ابن الرقاع :

إذا ذكرن حديثاً قلن أحسنه      وهنّ عن كل سوء يتقى صدق

(١) سورة الأنعام: آية (٢١) .

(٢) سورة هود: آية (١٨) .

(٣) سورة الأنعام: آية (١٥٧) .

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ج ٦، ص ٤٢٨ .

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ (٨٨) (١).

ثم يأتي في موضع آخر بيان ظلم المفترين على الله الكذب أو التكذيب بآياته ودعوة غيره تعالى وبيان حالهم عند الموت، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۖ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوهُمْ قَالُوا أَإِنَّا مَآ كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (٣٧) (٢).

قال ابن جرير :

(فمن أخطأ فعلاً، وأجهل قولاً، وأبعد ذهاباً عن الحق والصواب (ممن) افتري على الله كذباً) يقول: ممن اختلق عليّ زوراً من القول، فقال إذا فعل فاحشة: إن الله أمرنا بها (أو كذب بآياته) يقول: أو كذب بأدلته وأعلامها الدالة على وحدانيته ونبوة أنبيائه فجحد حقيقتها ودافع صحتها (أولئك) يقول: من فعل ذلك فافتري على الله الكذب، وكذب بآياته (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) يقول: يصل إليهم حظهم مما كتب الله لهم في اللوح المحفوظ) (٣) اهـ.

فالمفترون على الله الكذب و المكذبون بآياته يصل إليهم حظهم الذي كتبه الله لهم في الحياة الدنيا من رزق وعمل وأجل وخير وشر حتى تأتيهم رسل الله -

(١) سورة النحل: آية (٨٨) .

(٢) سورة الأعراف: آية (٣٧) .

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ج ٨ ، ص ١٦٨ الطبعة الحلبية الثالثة .

ملك الموت وأعوانه - لقبض أرواحهم ثم يعرفونهم ما هم عليه من الضلال من دعاء غير الله تعالى ، وأن من كانوا يدعون لا يدفعون عنهم ما قد نزل بهم، ولا يمنعونهم مما هم إليه صائرون من عذاب الله تعالى فتكون إجابة المجرمين هو شهادتهم على أنفسهم بالكفر وأن من كانوا يدعونهم ضلّوا عنهم فلا عادوا ينفعونهم بشيء وعرفوا الحق حينئذٍ وهيئات ينفعهم ذلك حيث رفعت الأقلام وجفت الصحف .

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿فَمِنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾<sup>(١)</sup> .

قال ابن كثير : (إن من الظلمة من بني إسرائيل من كذب على الله وادعى أنه شرع لهم السبت والتمسك بالتوراة دائماً وأنه لم يبعث نبياً آخر يدعو إلى الله تعالى بالبراهين والحجج بعد هذا الذي بيناه من وقوع النسخ وظهور ما ذكرنا)<sup>(٢)</sup> اهـ.

ثم كان العرب قبل الإسلام يحرمون من الأنعام ويجعلونها أجزاء وأنواعاً والله سبحانه وتعالى قد أحلّ لهم ذلك فمن أشد ظلماً لنفسه ممن تقول على الله الكذب ليصدّ الناس عن دين الله بجهله وسفهه .

(١) سورة آل عمران : آية (٩٤) .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ج ١ ، ص ٣٨٢ .



قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٠٣) (١).

قال البخاري: (حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا إبراهيم بن سعد بن صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة: التي يمنع درّها للطواغيت فلا يجلبها أحد من الناس، والسائبة: كانوا يسيّبونها لأهتتهم فلا يحمل عليها شيء. قال: وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: "رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجرّ قصبه في النار، كان أول من سيّب السوائب، والوصيلة: الناقة البكر تبكر أول إنتاج الإبل بأنثى، ثم تشي بعد بأنثى، وكانوا يسيّبونهم للطواغيت إن وصلت إحداها بالأخرى ليس بينهما ذكر. والحام: فحل الإبل يضرب الضراب المعدود، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شيء، وسمّوه الحامي. وقال لي أبو اليمان: أخبرنا شعيب عن الزهري سمعت سعيداً يخبره بهذا قال: وقال أبو هريرة سمعت النبي ﷺ نحوه، ورواه ابن الهاد عن ابن شهاب عن سعيد عن أبي هريرة ﷺ سمعت النبي ﷺ) (٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "قال رسول الله ﷺ: رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً، ورأيت عمراً يجرّ قصبه، وهو أول من سيّب السوائب" (٣).

(١) سورة المائدة: آية (١٠٣).

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير حديث رقم ٤٦٢٣.

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير حديث رقم ٢٦٢٤.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

ثم يندد تعالى بحال المفترين عليه الكذب والمكذبين بآياته فيقول تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٢).

يقول ابن كثير: (يقول تعالى لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراماً (ممن) افتري على الله كذباً) وتقول على الله وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك فليس أحد أكبر جرماً ولا أعظم ظلماً من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء فكيف يشبه حال هذا بالأنبياء؟ فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدها أظهر من الفرق بين وقت الضحى وبين نصف الليل في حندس الظلماء، فإن من شيم كل منهما وأفعاله وكلامه يستدل من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب وسجاح والأسود العنسي... الخ، ثم قال: وأما مسيلمة فمن شاهده من ذوي البصائر علم أمره لا محالة بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحة، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة، وكم من فرق بين قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ الآية، وبين قول

(١) سورة الأنعام: آية (١١٤٤).

(٢) سورة يونس: آية (١٧).

مسيلمه قَبَّحه الله ولعنه: يا ضفدع بنت ضفدعين، نَقَى كم تنقّين ، لا الماء تدركين، ولا الشارب تمنعين. وقوله قَبَّحه الله: لقد أنعم الله على الحبل، إذ أخرج منهما نسمة تسعى، من بين صفقات وحشا. وقوله خلده الله في نار جهنم: وقد فعل الفيل ، وما أدراك ما الفيل، له خرطوم طويل. وقوله أبعد الله عن رحمته: والعاجنات عجننا، والخابزات خبزاً، واللاقمات لقماً، إهالة وسمنا، إن قريش قوم يعتدون... الخ) <sup>(١)</sup> اهـ.

يا لها من وقاحة وسفالة وخروج من عبد ضعيف ذليل اجترأ على ربه فادعى ما لم يكن له أهلاً وتقوّل أقاويل على رب العزة والجلال كلها باطلة وساقطة فأراه الله حتفه حيث مزّقه على أيدي جنده الموحدين الذين تصدوا له ولغيره من الكفرة المارقين وأذاقوهم مرارة الموت، وإخماد شبههم وادعاءاتهم وإذلال أعوانهم ومناصريهم بالموت والتوبة والرجوع إلى دين الله القويم وصراطه المستقيم.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ <sup>(٢)</sup>.

(١) تفسير القرآن العظيم: ج ٢، ص ٤١٠، ٤١١ .

(٢) سورة الزمر: آية (٣٢) .

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي : (يقول تعالى، محذراً ومخبراً: إنه لا أظلم وأشد ظلماً (ممن كذب على الله) إما بنسبته إلى ما لا يليق بجلاله، أو بادعاء النبوة، والاختبار بأن الله تعالى قال كذا أو أخبر بكذا وهو كاذب. فهذا دخل في قوله تعالى: (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) إن كان جاهلاً، وإلا فهو أشنع وأشنع، (وكذب بالصدق لما جاءه) أي: ما أظلم ممن جاءه الحق المؤيد بالبينات، فكذبه، فتكذيبه ظلم عظيم منه، لأنه رد الحق بعد ما تبين له، فإن كان جامعاً بين الكذب على الله، والتكذيب بالصدق كان ظلماً على ظلم ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَوْتَى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٦٨) يحصل بها الاستشفاء منهم وأخذ حق الله من كل ظالم وكافر ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) (١).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٧) (٢).

ومن أظلم الظلم أن يدعى غير الله تعالى ممن لا يستحق العبادة ويترك توحيد رب العالمين والإخلاص له، وأنبياء الله ورسله يوضحون ويبينون الحق من الضلال.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : ج ٦ ص ٤٧٠ .

(٢) سورة الصف : آية (٧) .

جميع الآيات التي مرّت بنا يحذر فيها المولى من كل عمل يخالف أمره، ويخبر أن لا أحد أظلم من الذين يفترون عليه الكذب ويكذبون بآياته ويجعلون له أنداداً وشركاء. والحق يظهر أمامهم مثل الشمس في رابعة النهار حيث يدعون إلى التوحيد والإخلاص فيرفضون ذلك ويلجؤون إلى الأباطيل إلى ما لا ينفعهم في الدنيا ولا في الآخرة، فهذا من عمى البصيرة بأن استحوذ الشيطان على قلوبهم وأضلهم ضلالاً بعيداً، والمولى عز وجل بيّن لنا حالهم عند الموت وكيف تقفل أبواب السماء دون أرواحهم لا تصعد إلى الله مثلما يفتح لأرواح المؤمنين، ثم ترمى أرواحهم من السماء كما أخبر تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (٣١). (١)

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (٤٠) لهم من جهنم مهادٌ ومن فوقهم غواشٍ وكذلك نجزي الظالمين ﴿ (٢) .

(١) سورة الحج : آية (٣١) .

(٢) سورة الأعراف : آية (٤٠-٤١) .

٢- ظلم النفس بالكفر بأنعم الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (١).

إنَّ نعم الله تعالى على العباد لا تعد ولا تحصى، فمن ذلك نعمة البصر ونعمة السمع والشم والذوق واللمس والسير على الأقدام ولذة المنام والتصرف بجميع التصرفات بين هؤلاء الأنام وهناك أجهزة كثيرة بالإنسان نفسه يصرفها رب العزة والجلال، وقد جعل الله الإنسان خليفة في هذه الأرض يأكل من خيراتها ويتلذذ بلذاتها ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٨) فالواجب على الإنسان هو تسخير وتصريف هذه النعم في طاعة الله تعالى الذي هو مسد لها ومنعمها، ثم شكره تعالى عليها وعدم التبذير فيها والكفر بها، فكل نعمة من نعم الله تعالى سواء ما كان في الإنسان نفسه أو ما أعطى من الخيرات الأخرى، يجب أن ينتفع بها الإنسان في حدودها لا يتجاوز ذلك؛ لأن العبد مسئول عن كل ما يصدر منه، قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣٦).

(وفي هذه الآية الكريمة يبيِّن لنا المولى عز وجل ما أنعم به على سبأ ملوكاً وأهلاً من النعم العظيمة وكانت بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام والتبابعة من جملة لهم من الغبطة في بلادهم وعيشتهم واتساع أرزاقهم وثمارهم الشيء الكثير، فأرسل الله إليهم الرسل يأمرهم بتوحيد الله وشكر نعمه وإقامه أوامره واجتناب

(١) سورة سبأ: آية (١٩).

(٢) سورة الإسراء: آية (٣٦).

نواهيهم فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا فعوقبوا بإرسال السيل عليهم الذي فيه عقابهم وتغيير حالهم. قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ فتفرقوا في البلاد بعدما كانوا في غبطة وعيش هنيئ رغيد، وبلاد مرضية، وأماكن آمنة، وقرى متواصلة متقاربة بعضها من بعض مع كثرة أشجارها وزرعها وثمارها بحيث أن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمرًا ويقبل في قرية ويبيت في أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم، والأمن كذلك، فلما كانوا على هذه الحالة والنعيم المقيم بطروا هذه النعمة ففرق الله شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيئ، تفرقوا في البلاد، هاهنا وهاهنا. ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: أيدي وأيدي سبأ وتفرقوا شذر مذر<sup>(١)</sup>.

إذا تدبرنا قصة سبأ وجدنا في ذلك عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وكذا ما يحصل في حاضرتنا من الزلازل والفيضانات وما يؤوله المغالطون بالأسباب الطبيعية من غير أن يربطوا ذلك بقدره الخالق جل وعلا الذي خلق الأسباب والمسببات ومن غير نظر إلى سبب نقمة الله جل وعلا على عباده الذي هو وقوعهم في المعاصي والكفر بأنعمه. قال تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٣١﴾﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

(١) تفسير القرآن العظيم: ج ٣، ص ٥٣٣-٥٣٤.

(٢) سورة البقرة: آية (٢١١).

(٣) سورة الأنفال: آية (٥٣).

- وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (١).
- وقال تعالى: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٢).
- وقال تعالى: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ (٣).
- وقال تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ عِبَادَهُ تَعْبُدُونَ﴾ (٤).
- وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (٥).
- وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ (٦).
- وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (٧).

(١) سورة إبراهيم: آية (٢٨).

(٢) سورة النحل: آية (٧٢).

(٣) سورة العنكبوت: آية (٦٧).

(٤) سورة النحل: آية (١١٤).

(٥) سورة الضحى، آية (١١).

(٦) سورة الأحقاف: آية (١٥).

(٧) سورة النحل: آية (١١٢).



وما أخبر به تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ ٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٦ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ (٢).

قال ابن كثير :

(أولم يسيروا في الأرض) أي : بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماعهم وأخبار الماضين ولهذا قال : (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة) أي : كانت الأمم الماضية والقرون السابقة أشد منكم قوة أيها المبعوث إليهم محمداً ﷺ وأكثر أموالاً وأولاداً، وما أوتيتم معشار ما أوتوا ومكثوا في الدنيا تمكيناً لم يبلغوا إليه وعمروا فيها أعماراً طويلاً فعمروها أكثر منكم، واستغلوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا فلما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا أخذهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق ، ولا حالت أموالهم وأولادهم بينهم وبين بأس الله ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل

(١) سورة البقرة : آية (٥٥-٥٧) .

(٢) سورة الروم : آية (٩) .

بهم من العذاب والنكال (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أي إنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله واستهزءوا بها وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم<sup>(١)</sup> اهـ.

وما كان من صاحب الجنة الذي قصّ الله تعالى خبره فقال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾<sup>(٢)</sup> ، أي: بكفره وإنكاره المعاد وغروره بما قد أعطاه الله من الزرع والشمار الذي ظن أنها لا تفنى ولا تبید وذلك لتمكن الشيطان منه واستحوازه على قلبه حتى أنساه المعاد والحساب فكفر بذلك، وسوء قوله أقبح من فعله، قال تعالى مخبراً عنه: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾<sup>(٣)</sup> .

(١) تفسير القرآن العظيم: ج ٣، ص ٤٢٧ .

(٢) سورة الكهف: آية (٣٥) .

(٣) سورة الكهف: آية (٣٦) .

### ٣- القتل

قال الله تعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِذَى إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ ۖ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۖ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١) .

قال ابن كثير :

(يقول تعالى مبيناً و خيمة عاقبه البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه في قول الجمهور وهما قابيل وهابيل : كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله بغياً وحسداً فيما وهبه الله من النعمة وتقبل القربان الذي أخلص فيه الله عز وجل ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول في الجنة وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين فقال تعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾ أي : اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر ابني آدم وهما هابيل وقابيل فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف . وقوله : (بالحق) أي : على الجلية والأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب ولا وهم ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ ،

(١) سورة المائدة : آية (٢٧-٣٠) .

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ وكان من خبرها فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف، أن الله تعالى شرع لآدم عليه السلام أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال، ولكن قالوا كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر وكانت أخت هابيل دميمة وأخت قابيل وضيئة فأراد أن يستأثر بها على أخيه فأبى آدم ذلك إلا أن يقربا قرباناً فمن يتقبل منه فهي له فتقبل من هابيل ولم يتقبل من قابيل فكان من أمرهما ما قصّه الله في كتابه<sup>(١)</sup>.

إن التعدي على الأنفس بإهراق دمائها بغير حق جريمة شنعاء تأبأها النفوس أيّاً كانت ديانتها لما فيها من البشاعة والنكارة هذا بشكل عام، أما النفوس المسلمة فلها مكانتها السامية في سيرها في هذه الحياة، فإن سارت على نهج الشريعة الغراء فلها حرمتها ومكانتها ولا تساوى بحرمة، أما إذا ارتكب ما يخالف منهج الله في أرضه فإن لذلك جزاءً بحسب الجرم، ليستأصل العضو الفاسد حتى لا يسري مرضه في بقية جسده أو مجتمعه، وهذا حماية للمجتمع الإسلامي من الظلم وتعظيم لحقوقهم، وتقوية لروابط الأخوة الإيمانية الحقّة بين المسلمين.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ج ٢، ص ٤١ .

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم كف من دمها، وذلك لأنه أول من سنّ القتل )<sup>(١)</sup>.

فإن الله جل وعلا عندما يحكي لنا قصة قابيل وهابيل إنما ذلك ليقف المسلمون، عند حدود الله ولا يعتدوها، وليكون في ذلك عبرة لأولي الألباب للحد من مثل هذا الاعتداء على الأعراض والأموال والابتعاد عما فيه غضب الجبار، وليكن فيما وقع بمن سلف عبرة .

يقول سيد قطب : (هذه القصة تقدم نموذجاً لطبيعة الشر- والعدوان ونموذجاً كذلك من العدوان الصارخ الذي لا مبرر له. كما تقدم نموذجاً لطبيعة الخير والسماحة، ونموذجاً كذلك من الطيبة والوداعة. وتقفهما وجهاً لوجه، كل منهما يتصرف وفق طبيعته... وترسم الجريمة المنكرة التي يرتكبها الشر، والعدوان الصارخ الذي يثير الضمير، ويثير الشعور بالحاجة إلى شريعة نافذة بالقصاص العادل، تكف النموذج الشرير المعتدي عن الاعتداء، وتخوفه وتردعه بالتخويف عن الإقدام على الجريمة، فإذا ارتكبها على الرغم من ذلك وجد الجزاء العادل المكافئ للفعلة المنكرة. كما تصون النموذج الطيب الخير وتحفظ حرمة دمه، فمثل هذه النفوس يجب أن تعيش، وأن تصان، وأن تأمن، في ظل شريعة عادلة رادعة)<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه الترمذي في كتاب العلم ، حديث رقم ٢٦٧٣ وقال حسن صحيح .

(٢) في ظلال القرآن: ج ٢، ص ٨٧٤ .

مما سبق يظهر للمسلم الذي يريد الله تعالى والدار الآخرة شدة حرمة دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم وما بيته السنة المطهرة في ذلك حرصاً على سلامة المسلم من أي أذى يصيبه أو ينغص عليه صفوه. فما أعظمها من شريعة غراء جاءت بالخير واليسر لكل مسلم، بل حمت البشرية جمعاء من الظلم واعتداء المعتدين .

وأنه ما من معتدٍ أو خارج على شريعة الله تعالى من جبار أو متكبر من صاحب سلطان أو غيره إلا وقصمه الله تعالى وأحلّ به وبداره الخراب والدمار، فليعلم هذا وليتق العبد ربه وليحافظ على سلامته في الدنيا والآخرة .

#### ٤- الغلول

يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَ مَنْ يَعْلَلُ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَ ﴾ : ما ينبغي له أن يخون في الغنيمة .

﴿ وَمَنْ يَعْلَلُ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ : ومن يخن من غنائم المسلمين شيئاً يأت به يوم القيامة يحمله على عنقه .

﴿ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ : تعطى كل نفس جزاء عملها وافياً .

﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١١) : لا ينقصون شيئاً .

لقد نزه الله رسله صلوات الله وسلامه عليهم من الغلول لأنه من الصفات التي لا يرتكها إلا أهل الدنيا الغارقون في شهواتها . ولقد توعد سبحانه الذين يخونون وميأخذون الغنائم من غير وجهها الشرعي بأنهم يأتون يوم القيامة يحملون ما قد غلوا في الدنيا، وكل يجازى على عمله ولا يظلم شيئاً .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قام فينا النبي ﷺ فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره، قال : ( لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبة فرس له حمحة، يقول : يا رسول الله أغثنى، فأقول : لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك، وعلى رقبة بعير له رغاء يقول : يا رسول الله أغثنى، فأقول : لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك، وعلى رقبة صامت

(١) سورة آل عمران : آية (١٦١) .

فيقول: يا رسول الله أغثنني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك، أو على رقبته رقايع تحفّق، فيقول: يا رسول الله أغثنني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك) وقال أبو أيوب عن أبي حيان: "فرس له حممة"<sup>(١)</sup>.

وعن عبدالله بن عمر قال: كان على ثقل النبي ﷺ رجل يقال له كركرة، فمات، فقال رسول الله ﷺ: (هو في النار فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عبادة قد غلّها)<sup>(٢)</sup>.

لقد عظم الرسول ﷺ أمر الغلول ويّين أن هدايا العمال غلول وهو ما يُقدّم لأصحاب السلطة ممن ولاهم الله أمرهم مما يسمّونه هديّة وذلك لأغراض أخرى يرجونها من وراء ذلك، ولو كان غير هذا المسئول الذي تقدم له الهدايا في هذا المنصب لم يُقدّم له شيء وقد بيّن هذا المصطفى ﷺ.

فعن أبي حميد الساعدي قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأسد يقال له ابن اللثبية (قال عمرو وابن أبي عمر على الصدقة) فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أهدي لي، قال فقام رسول الله ﷺ على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: (ما بال عامل أبعثه فيقول هذا لكم وهذا أهدي لي أفلا قعد في بيت أبيه أو في بيت أمّه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده لا ينال أحد منكم شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه بغير له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه ثم قال: اللهم بلغت)<sup>(٣)</sup> مرتين.

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الجهاد، حديث رقم ٣٠٧٣، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الإمامة ٢٤، ورواه أحمد في المسند ٤٢٦/٢.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الجهاد، حديث رقم ٣٠٧٤.

(٣) رواه مسلم في صحيحه كتاب الإمامة حديث رقم ١٨٣٢.



إن شرعنا الحكيم يبين حرمة الغلول والطرق المؤدية إليه وحذر منها ويبيّن جزاء من يقع في شيء من ذلك وهذا لحماية المجتمع الإسلامي من الظلم سواء للغير بحصول المال من طرق ملتوية وتسمى بغير اسمها المحرّم أو للنفس لسلامتها من العقوبة العظيمة الذي ربّها الله على ذلك وهذا كله من أجل أن يبقى المال محفوظاً ولا يصدر لأحد إلا بحقه حتى لا يبغي المسلمون بعضهم على بعض، والآية الكريمة تحذر من الغلول بعد أن نزه تعالى أنبياءه من الخيانة ويبيّن أنه لا ينبغي لهم ذلك . والأمم لابد أن يقتدوا برسلمهم وأنبيائهم، ومن خالف وارتكب ما نهى الله عنه، فإن المولى عز وجل يفضحه أمام الخلائق يوم القيامة حيث يأتي يحمل ما قد غلّ في حياته الدنيا، وفي الآية والأحاديث التخويف العظيم، والزجر الشديد عن هذه الفعلة القبيحة التي فيها أكل أموال الناس بطرق غير مشروعة، وقد يحصل بسبب الهدايا غير المشروعة، والتي نص عليها الحديث ما يجعل هناك ميزة بين العاملين، فإذا كنت مسئولاً فلا يستوي عندي من يهدي لي مما لذّ وطاب من حطام الدنيا ، وبين من لا يهدي لي شيئاً، ولم تصدر هذه الهدية من معطيها إلا لسبب أيضاً وهدف، ولو لم يكن في هذا العمل ما أهدى له . فليكن في هذا عبرة وزاجراً ورادعاً لمن يريد الله واليوم الآخر والفوز . يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

## ٥- ظلم النفس بالطلاق

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُنَّ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتِدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (١).

إن من بعد عن فهم دين الله تعالى وتعاليمه السامية لا بد من إيقاع نفسه في ما يهلكها وهو لا يعلم لأنه لا يسير ولا يتصرف في أمر من أموره إلا بهوى نفسه ومراده، والله سبحانه وتعالى يعلم ما فيه صلاح عباده فجعل لهم نظاماً يسرون عليها وتضبطهم في جميع أمورهم، فهذا كتاب الله تعالى لا يضل ولا يزيغ ولا يهلك من تمسك به ونههج نهجه والتزم بأوامره وابتعد عن نواهيه.

ففي هذه الآية الكريمة يأمر المولى عز وجل عباده بما فيه سلامة أنفسهم من الظلم؛ لأن العبد ربما يكيد لآخرين ولا يعلم أن ضرر ذلك على نفسه.

عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (إن أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه. قيل: يا رسول الله. كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه) (٢).

(١) سورة البقرة: آية (٢٣١).

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب حديث رقم ٥٩٧٣، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان حديث رقم ٩٠، وأحمد في المسند ١٦٤/٢.

إن المعتدين على الآخرين بغير وجه شرعي لا يعلمون أن الأمر ينعكس عليهم. ففي هذا الحديث يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه، نعم هذا كله حصل بغير حق بل اعتداء وظلم، فضرر بآبيه وأمه وهو لا يعلم، وسيسأل هو ويعاقب على ذلك .

ومشكلة الطلاق يجهلها الكثير من الناس، وقد تكون معلومة عند بعضهم ولكن يراد من وراء ذلك الإضرار بالزوجة، فالجاهل بالطلاق قد يلحق بالزوجة ضرراً في طلاقها وهو لا يعلم، وقد يريد ذلك العالم بكيفية الطلاق ولكن لمقاصد وأهداف .

والمولى عز وجل ينهى عن إمساك المرأة ضرراً وأن ذلك اعتداء وهو ظلم من الزوج لنفسه ولا يرضى سبحانه لجميع عباده إلا الخير. وقد بين سبحانه ما يجب أن يكونوا عليه أولياء الأمور كذلك حيال الزوجين فقال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَلِكَُمْ أَزْكًى لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾ (١)

فإذا طلق الزوج زوجته طلاقاً رجعيّاً وانتهت العدة ولم يراجعها وأراد بعد ذلك نكاحها فليس لولي الزوجة منعها من نكاحه إذا كانت راغبة في ذلك وهو أولى بنكاحها من غيره إذا تراضوا بينهم بالمعروف .

(١) سورة البقرة: آية (٢٣٢) .

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾ .

وهذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ أولاً ثم لأُمَّته عن كيفية الطلاق. ونهي منه عز وجل عن أن تخرج الزوجات من بيوت الأزواج حتى تنتهي العدة إلا أن يحصل منها ارتكاب فاحشة واضحة؛ لأن بقاءها في بيت الزوج وعدم إخراجها قد يكون فيه خير فقد يتراجعان وترجع الأمور على صلاحها وهو قوله تعالى : ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾ . وكم من مطلق طلق زوجته وأخرجها ثم ندم بعد ذلك وحاول في إرجاعها ولكن حيل بينه وبين ما يشتهي وهذا جزاء تعدي حدود الله وعدم معرفتها والالتزام بها، وهل أحد ظلمه في هذا؟ كلا. بل كانوا هم أنفسهم يظلمون.

وقال تعالى : ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٤٠﴾﴾ . (٢)

(١) سورة الطلاق : آية (١) .

(٢) سورة البقرة : آية (٢٢٩ - ٢٣٠) .

قال ابن كثير : (هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة ما دامت في العدة فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله إلى ثلاث طلاقات وأباح الرجعة في المرة والثنتين وأبانها بالكلية في الثالثة. فقال : ﴿الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكُكُمْ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُكُمْ بِإِحْسَنٍ﴾ (١) اهـ.

ثم بين تعالى أنه لا يحل للزوج أن يضار بزوجه أن تفتدي نفسها منه بشيء من المال سواء ما أعطاها من صداق أو بعضه إلا أن تكون هي الجانية والخارجة على الزوج فلا بأس فيما افتدت به نفسها، وإن كان مضارّة من الزوج فإنه ظلم لا يرضاه الله تعالى وخروج على حدوده تعالى قال تعالى : ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتَبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَيْهَتَنَا وَاتِّمَّامَتَيْنَا﴾ (٢) .

هكذا شرع الله الحكيم في أن الزوجة إذا طلقت ثلاثاً فلا تحل للزوج الأول حتى تنكح زوجاً غيره نكاحاً صحيحاً لا حيلة وتحليلاً. فلو طلقها الزوج الثاني وبانت منه بينونة كبرى، فلا مانع من أن ينكحها زوجها الأول إذا رأوا أن في ذلك خيراً للجميع وصلاً لها .

(١) تفسير القرآن العظيم : ج ١ ، ص ٢٧١ .

(٢) سورة النساء : آية (٢٠) .

قال تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ، وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرَهُ، مَتَّعَا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٦) وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوا أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٧﴾ (١).

قال السعدي: (أي ليس عليكم - يا معشر الأزواج - جناح وإثم، بتطبيق النساء قبل المسيس، وفرض المهر، وإن كان في ذلك كسر - لها، فإنه يجبر بالمتعة. فعليكم أن (تمتعوهن) بأن تعطوهن شيئاً من المال، جبراً لخواطرهن، (على الموسع قدره وعلى المقتر قدره) أي: المعسر (قدره). وهذا يرجع إلى العرف وأنه يختلف باختلاف الأحوال. ولهذا قال: (متاعاً بالمعروف) فهذا واجب (على المحسنين) ليس لهم أن يبخسوهن. فكما تسبوا لتشوفهن، واشتياقهن، وتعلق قلوبهن، ثم لم يعطوهن ما رغبن فيه، فعليهم - في مقابلة ذلك - المتعة. فالله ما أحسن هذا الحكم الإلهي، وأدله على حكمة شارعهِ ورحمته!! ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون!؟

ثم ذكر حكم المفروض لهن فقال: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۖ وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ، وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرَهُ، مَتَّعَا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٦)

(١) سورة البقرة: آية (٢٣٦ - ٢٣٧).

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧]

أي : إذا طلقتم النساء قبل المسيس، وبعد فرض المهر، فللمطلقات من المهر المفروض، نصفه، ولكم نصفه. وهذا هو الواجب ما لم يدخله عفو ومسامحة، بأن تعفو عن نصفها لزوجها، إذا كان يصح عفوها : (أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح) وهو الزوج على الصحيح، لأنه الذي بيده حل عقدته، ولأن الولي لا يصح أن يعفو عن ما وجب للمرأة، لكونه غير مالك ولا وكيل، ثم رغب في العفو، وأن من عفا، كان أقرب لتقواه، لكونه إحساناً موجباً لشرح الصدور، ولكن الإنسان لا ينبغي أن يهمل نفسه من الإحسان والمعروف، وينسى الفضل الذي هو أعلى درجات المعاملة؛ لأن معاملة الناس فيما بينهم على درجتين: إما عدل وإنصاف واجب، وهو : أخذ الواجب، وإعطاء الواجب . وإما فضل وإحسان، وهو إعطاء ما ليس بواجب والتسامح في الحقوق، والغض مما في النفس، فلا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة، ولو في بعض الأوقات، وخصوصاً لمن بينك وبينه معاملة، أو مخالطة، فإن الله مجاز المحسنين بالفضل والكرم. ولهذا قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١) اهـ .

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ج ١ ص ٢٩٧-٢٩٨ .

وقال علي : ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمِنْهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (١) .  
وهنا بيان من المولى عز وجل بأنه لا عدة لمن لم يدخل بها. وهذا من عدله ورحمته  
جل وعلا أن لا تتربص المرأة في عدة لا حاجة من ورائها.

لقد عالج القرآن الكريم الطلاق من جميع جوانبه ولم يترك للزوج حقاً إلا  
وبينه ولا مظلمة إلا بينها ونهاه عنها، كذا حمى المرأة من الظلم وبين ما لها وما  
عليها، وكذا أولياء أمورهن . لذا يجب على كل مسلم ومسلمة أن يتقوا الله في  
أنفسهم ويجنبوها الظلم الذي حرمه الله على نفسه وجعله بين عباده محرماً.

---

(١) سورة الأحزاب : آية (٤٩) .



## **الفصل الثاني**

### **ظلم العبد لغيره**

المبحث الأول : ظلم العبد من يعول .

المبحث الثاني : ظلم العباد فيما بينهم .

المبحث الثالث : ظلم العبد لسائر الحيوان .

المبحث الأول

ظلم العبد من يعول

### المبحث الأول : ظلم العبد من يعول

الله عز وجل جعل لكلّ مسئولية على قدر حاله، فما من عبد إلا وهو مسئول، فالحاكم مسئول عن أفراد شعبه، والرجل مسئول عن زوجته وأولاده، والمرأة مسئولة عن بيت زوجها وماله وعياله وخدمه، والخدم مسئولون عن تأدية واجباتهم، وكل مسئول عن تأدية حقوق الله تعالى، وإخلاص النيّات وحفظ الجوارح .

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام الأعظم الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع أهل بيته وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهي مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) <sup>(١)</sup>.

قال ابن حجر : (رعاية الإمام الأعظم حياطة الشريعة بإقامة الحدود والعدل في الحكم، ورعاية الرجل أهله سياسته لأمرهم وإيصاله حقوقهم، ورعاية المرأة تدبير أمر البيت والأولاد والخدم والنصيحة للزوج في كل ذلك، ورعاية الخادم حفظ ما تحت يده والقيام بما يجب عليه من خدمته) <sup>(٢)</sup>.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، حديث رقم ٧١٣٨، ومسلم في صحيحه كتاب الإمارة ٢٠، وأبو داود كتاب الإمارة ١، والترمذي كتاب الجهاد ٢٧، وأحمد في المسند: ٥٤، ٥٠.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ١١٣ .

أما الرجل : فكونه هو رب الأسرة من زوجة وأولاد وخدم فإن مسئوليته عظيمة جداً تجاه هؤلاء، وأن الله سائله فيما يحصل منه من تقصير أو ضياع لحقوق هؤلاء أو اعتداء على أحد منهم بالضرب أو الشتم إلا في حدود ما قرره الشرع وبينه من التعليم والتأديب فالشرعية أوضحت الحقوق وضبط الأفراد بذلك، فمن حاد أو تعدى على تلك الحقوق فقد ظلم ومن ظلم فقد أهلك نفسه.

فالمرأة : هي ربة البيت ولها حقها الشرعي فلا تظلم في مهر ولا كسوة ولا نفقة ولا عدم تعليم لدين الله تعالى إذا لم تكن متعلمة، ولا ترك لها بالإهمال في الواجبات الشرعية فالرجال هم القوامون على النساء لقوله تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَإِذَا أَنْفَقُوا فَلْيَنْقِبْهُنَّ حِفْظًا لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ (١).

وقد بين الله تعالى طريقة تأديب المرأة التي تترفع على زوجها وتترك أمره وتعرض عنه فإذا رجعت إلى الطاعة والامتثال فلا ضرب ولا هجران وأن ذلك ظلم لها واعتداء عليها والله منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن .

(١) سورة النساء ، آية ٣٤ .

عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت هند بنت عتبة <sup>(١)</sup> فقالت: يا رسول الله إنَّ أبا سفيان رجل مسيِّك فهل عليَّ حرج أن أطعم من الذي له عيالنا؟ قال: لا. إلا بالمعروف <sup>(٢)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (أفضل الصدقة ما ترك غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول: تقول المرأة: إما أن تطعمني وإما أن تطلقني. ويقول العبد: أطعمني واستعملني، ويقول الابن: أطعمني إلى من تدعني؟ فقالوا: يا أبا هريرة سمعت هذا من رسول الله ﷺ قال: لا. هذا من كيس أبي هريرة <sup>(٣)</sup>).

قال ابن حجر: (هذا من كيس أبي هريرة، وقوله: من كيس هو بكسر- الكاف للأكثر أي: من حاصله إشارة إلى أنه من استنباطه مما فهمه من الحديث المرفوع مع الواقع، ووقع في رواية الأصيلي بفتح الكاف أي: من فطنته) <sup>(٤)</sup>.

---

(١) وهند هذه هي بنت عتبة بن ربيعة أي ابن عبد شمس بن عبد مناف وهي أم معاوية وكانت لما قتل أبوها عتبة وعمها شيبه وأخوها الوليد يوم بدر شق عليها فلما كان يوم أحد وقتل حمزة فرحت بذلك وعمدت إلى بطنه فشقتها وأخذت كبده فلاكتها ثم لفظتها، فلما كان يوم الفتح ودخل أبو سفيان مكة مسلماً أغضبت هند لأجل إسلامه وأخذت بلحيته. ثم أنها بعد استقرار النبي ﷺ بمكة جاءت فأسلمت وبايعت. فتح الباري ج٩، ص ٥٠٨، دار المعرفة.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب النفقات حديث رقم ٥٣٥٩.

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب النفقات حديث رقم ٥٣٥٥.

(٤) فتح الباري: ج٩، ص ٥٠١.

وعن الأسود بن يزيد: سألت عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي ﷺ يصنع في البيت؟ قالت: كان في مهنة أهله فإذا سمع الأذان خرج <sup>(١)</sup>.

في هذا الحديث تبين لنا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق رضي الله عنها الصنيع النبوي النبيل وهو مشاركته ﷺ لأهله في عملهم حتى لا يتكلفوا ما لا يطيقون وتحصل المودة والألفة بين الزوجين .

فالشرع الحكيم حمى المرأة من الظلم وأذن لها أن تتمول وأولادها من مال الرجل في حالة تقصيره في النفقة، وكذا على الرجل مشاركة أهله في البيت ومساعدتهم لربما تكون هناك أعمال شاقة أو كثيرة ومتعبة للزوجة فيكون في قيامها بذلك بمفردها مشقة عليها ويلحق بها أضراراً من جرّاء ذلك .

وأما ما كان من شأن الكسوة، فقد بوّب البخاري رحمه الله تعالى باباً في ذلك فقال: (باب كسوة المرأة بالمعروف وذكر حديث علي رضي الله عنه حيث قال: أتى النبي ﷺ حلّة سيرة فلبستها فرأيت الغضب في وجهه فشققته بين نسائي <sup>(٢)</sup>).

وفي الرواية الثانية: كساني النبي ﷺ حلّة سيرة فخرجت فيها فرأيت الغضب في وجهه فشققته بين نسائي <sup>(٣)</sup>.

والحلّة: إزار ورداء. وسيراء: بكسر المهملة وفتح التحتانية والراء مع المد من أنواع الحرير .

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب النفقات حديث رقم ٥٣٦٣ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب النفقات حديث رقم ٥٣٦٦ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب اللباس حديث رقم ٥٨٤٠ .

والنبي ﷺ غضب عندما لبس علي ﷺ هذه الحلة لأنها من الحرير والحرير محرّم لبسه على الرجال. فشققها علي ﷺ ووزعها بين نسائه، وهذا من العدالة وعدم إثارة واحدة دون الأخريات فيكون في ذلك شيء من الظلم .

وفي خطبته ﷺ في حجته قال : " ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف " .

قال النووي : (فيه وجوب نفقة الزوجة وكسوتها وذلك ثابت بالإجماع) (١).

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل ويقول : اللهم هذه قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك (٢).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : إذا كان عند الرجل امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط (٣).

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ج ٤، الجزء الثاني ص ١٨٤ .

(٢) رواه الترمذي وقال حديث عائشة هكذا رواه غير واحد عن حماد بن سلمة عن أيوب بن أبي قلابة عبد الله بن يزيد عن عائشة أن النبي ﷺ كان يقسم ورواه حماد بن زيد وغير واحد عن أيوب بن أبي قلابة مرسلًا أن النبي ﷺ كان يقسم. وهذا أصح من حديث حماد بن سلمة. ورواه النسائي كتاب عشرة النساء ٦٤ / ٨، ورواه أبو داود كتاب النكاح ، حديث رقم ١١٤٠ .

(٣) رواه الترمذي كتاب النكاح ٤٢، وقال: إنما أسند هذا الحديث همام بن يحيى عن قتادة. ورواه هشام الدستوائي عن قتادة قال: كان يقال. ولا نعرف هذا الحديث مرفوعاً إلا من حديث همام. وهمام ثقة حافظ، ورواه النسائي كتاب عشرة النساء ٦٣ / ٩، ورواه ابن ماجه كتاب النكاح باب القسمة بين النساء حديث رقم ١٩٦٩ .

وهنا بيّن لنا ﷺ سوء عاقبة من يظلم ويميل مع إحدى زوجاته ولا يساوي بينهما في النفقة وفي الكسوة وفي المبيت، والعدالة بين الزوجات واجبة ومحاسب الإنسان عليها ما لم يكن شيئاً في القلب فهذا بيد الله تعالى وهو الذي يملكه.

ومن ظلم الغير : وأد البنات الذي ذكره الله تعالى في محكم التنزيل فقال: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ <sup>(٨)</sup> بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ <sup>(٩)</sup>﴾ وهذا من الظلم الذي كان يفعله الجاهليون من دفن البنات وهن أحياء وذلك لسببين كما ذكر ذلك الشنقيطي في تفسيره:

الأول : اقتصادي ، خشية إملاق حاضر .

الثاني : حمية وغيرة .

وقد رد القرآن عليهم في السبب الأول في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ تَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاءُكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا <sup>(٣١)</sup>﴾  
وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ تَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ <sup>(١)</sup>﴾ اهـ.

فالله تعالى سيسأل يوم القيامة أولئك الظلمة الذين أقدموا على هذه الجريمة الشنعاء وهي قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وماتوا على ذلك الظلم .

وعن عمرو بن شرحبيل عن عبدالله قال: قلت : يا رسول الله ، أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك

(١) أضواء البيان : ج ٩ ، ص ٦٦ .



خشية أن يأكل معك، ثم قال: أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك. وأنزل الله تصديق قول النبي ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾<sup>(١)</sup>.

وعن عامر بن شراحيل الشعبي، قال: سمعت النعمان بن بشير رضي الله عنه وهو على المنبر يقول: أعطاني أبي عطية فقالت عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ فأتى رسول الله ﷺ فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله. قال: أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟ قال: لا، قال: فاتقوا الله وأعدلوا بين أولادكم. قال: فرجع فرد عطيته<sup>(٢)</sup>.

في هذا الحديث أمر ﷺ بالعدل بين الأولاد "اعدلوا بين أولادكم" والأمر للوجوب. ففي التفضيل إيقاع الشحناء بين الأخوة وحصول تقطيع الأرحام وقد تحصل منازعات وخصومات ويحصل إثر ذلك ما لا تحمد عقباه، وفي تفضيل أحد الأبناء على الآخرين ظلم من الأب وإلا فكيف يكون ذلك وهم كلهم من صلبه!

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: قبل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: من لا يرحم لا يرحم<sup>(٣)</sup>.

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب حديث رقم ٦٠٠١، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان حديث رقم ٨٦.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الهبة حديث رقم ٢٥٨٧، ومسلم في صحيحه كتاب الهبات حديث رقم ١٦٢٣، وأبو داود كتاب البيوع حديث رقم ٣٥٤٢، والنسائي ٢٥٨/٦، وأحمد في المسند ٢٦٨/٤.

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب حديث ٩٩٧هـ ومسلم في صحيحه كتاب الفضائل ٢٣١٨، وأبو داود كتاب الأدب ٥٢١٨، والترمذي كتاب البر ١٩١١، وأحمد في المسند ٢/٢٨٨، ٢٤١، ٢٦٩، ٥١٤.

قال ابن حجر: (ولا فرق في العطية بين الأولاد الذكور والإناث لما روى ابن عباس مرفوعاً "سووا بين أولادكم في العطية فلو كنت مفضلاً أحداً لفضلت النساء". أخرجه سعيد بن منصور البيهقي من طريقه وإسناده حسن<sup>(١)</sup>).

قال الشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني: (نهى القرآن عن قتل الأولاد من الفقر الحاصل أو خشية وقوع الفقر في المستقبل في آيتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾<sup>(٢)</sup>،  
والثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾<sup>(٣)</sup>.

الإملاق: هو الفقر، والمقصود بالأولاد البنات بالدرجة الأولى لأن هذا كان من عادة بعض العرب في عصور الجاهلية. ومن روائع البيان القرآني أن قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ عقب النهي عن قتل الأولاد من الفقر الواقع، وذلك حينما يكون الولي هو المسؤول عن النفقة على الأولاد.

وأما في سورة الإسراء فعكس الترتيب، فقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾<sup>(٤)</sup> إذ كان ذلك عقب النهي عن قتل الأولاد خشية حصول الفقر في المستقبل وعكس الترتيب في آية الإسراء يشعر باحتمال أن يكبر الأولاد قبل حصول الفقر وحينئذ يكونون هم المرزوقين الذين ينفقون على أوليائهم وبذلك يكون سبباً للكفاية والغنى لا سبباً لحصول الفقر الذي يخشى أن يكون سبباً فيه<sup>(٤)</sup>.

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٥، ص ٢١٤.

(٢) سورة الأنعام: آية (١٥١).

(٣) سورة الإسراء: آية (٣١).

(٤) أجنحة المكر الثلاثة: ص ٥٠١.

أما ما كان بشأن الخدم والمماليك: فعن خيثمة قال: كنا جلوساً مع عبدالله بن عمرو إذ جاءه قهرمان له فدخل فقال: أعطيت الرقيق قوتهم؟ قال: لا. قال: فانطلق فأعطهم. قال: قال رسول الله ﷺ: "كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته" <sup>(١)</sup>. القهرمان: بلسان الفرس الوكيل أو الخازن القائم بحوائج الإنسان.

وعن المعرور بن سويد قال: لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك فقال: إني ساببت رجلاً فغيرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ: يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية. إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم" <sup>(٢)</sup>.

الخول: عطية الله من النعم والعبيد والإماء وغيرهم من الأتباع والحشم <sup>(٣)</sup>.

وعن زاذان أن ابن عمر دعا بغلام له فرأى بظهره أثراً فقال له: أوجعتك، قال: لا، قال: فأنت عتيق. قال: ثم أخذ شيئاً من الأرض فقال: مالي فيه من الأجر ما يزن هذا إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من ضرب غلاماً له حدّاً لم يأت به أو لطمه فإن كفرته أن يعتقه" <sup>(٤)</sup>.

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الزكاة، حديث رقم ٩٩٦.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتب الإيمان حديث رقم ٣٠، وكتاب العتق ١٥، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان حديث ١٦٦١، وابن ماجه كتاب الأدب ١٢٤.

(٣) المعجم الوسيط ١/ ٢٦٣.

(٤) رواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان حديث رقم ١٦٥٧، وأحمد في المسند: ٤٥/٢.

قال النووي : (قال العلماء : في هذا الحديث الرفق بالماليك وحسن صحبتهم وكف الأذى عنهم و كذلك في الأحاديث بعده وأجمع المسلمون على أن عتقه بهذا ليس واجباً وإنما هو مندوب رجاء كفارة ذنبه) <sup>(١)</sup>.

وعن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: قال أبو مسعود البصري: كنت أضرب غلاماً لي بالسوط فسمعت صوتاً من خلفي اعلم أبا مسعود فلم أفهم الصوت من الغضب، قال: فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول: اعلم أبا مسعود قال فألقيت السوط من يدي فقال: اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام. قال: فقلت: لا أضرب مملوكاً بعده أبداً <sup>(٢)</sup>. وفي رواية لمسلم فقلت: هو حر لوجه الله، فقال: "أما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار".

في هذه الأحاديث الحث على الرفق بالماليك والعناية بهم والعفو عنهم فيما يبدر منهم لأن الإنسان محل الخطأ فليس المملوك معصوماً من الخطأ والتقصير، ففي الأحاديث سألنا الله ﷻ كيفية المعاملة الحسنة مع المالك والعفو عنهم وكظم الغيظ ومواساتهم سواء في الأكل أو الملبس، وإن حصل مساواة فهو أفضل وزيادة في الأجر من الله تعالى وضررهم وشتمهم والتقصير في حقوقهم وتكليفهم ما لا يطيقون ظلم لهم، وفي الرواية الأخيرة التي ذكرنا قوله ﷺ لأبي ذر: "أما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار".

(١) مسلم بشرح النووي المجلد السادس، الجزء الحادي عشر ص ١٢٧.

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان حديث رقم ١٦٥٩.

إن النساء والأولاد والمماليك والخدم أناس قد استرعاهم الله الرجال الذين قد أصبحت لهم السلطة عليهم سواء من الزوجات اللاتي استحلوهن بكلمة الله تعالى، أو المماليك الذين قد تملكوهم بالرق أو الأولاد الذين قد رزقهم الله إياهم والذين هم من زينة الحياة الدنيا. فالواجب على كل من قد أصبح من أهل السلطة في هذا أن يراقب الله تعالى ويحسن ليحسن الله إليه، ويحذر أن يتجاوز الحدود فيما قد وضعه الله وارتضاه لعباده. فالمولى عز وجل بيّن الحقوق للزوجات والأولاد والمماليك فمن أهمل في شيء من ذلك من الأولياء فهو ظالم، والظالم لا يفلح أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة ومآله إلى الخسارة والندامة. وإن ما جاء من الحث على الرفق بالمملوكين ينطبق على الخدم والخدامات الذين ليسوا بمماليك وإن الحكم بالنسبة لهم واحد من حيث معاملتهم المعاملة الحسنة.

#### الوالدان :

الوالدان هما قوام الأسرة وهما السبب بعد الله في وجود الأبناء، وهما المريان لهم حتى قاموا ودبّوا على هذه الأرض وعرفوا ما لهم وما عليهم. فالأب يسعى ويكدح في سبيل الحصول على معيشة أبنائه وما يسعدهم، ويلاقي في ذلك المتاعب والمصاعب والمشاق.

#### والأم:

تحمل الابن في بطنها تسعة أشهر بين التألم والضجر وتعاني آلام ذلك، وآلام الولادة ثم بعد الولادة تجعل حجرها له فراشاً وتديها له غذاء وتقوم بعنايته حتى

يستطيع أن يقوم بمؤونة نفسه والاعتماد عليها. هذا ما يقدمه الأبوان لأبنائهم وغيره الشيء الكثير .

وقد جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة بيان حقوقهما وأن التقصير في شيء من ذلك يعتبر ظلماً لهما وجحوداً لحقهما وإنكاراً لجميلهما .

يقول الله تعالى : ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ (٨٣) . (١)

فأول أمر بدأ به المولى عز وجل وأمر به عباده هو إفراده عز وجل بالعبادة، ثم أمر بالإحسان إلى الوالدين فلم يقدم على ذلك شيئاً بعد عبادته وهذا لبالغ الأمر وأهميته .

وقال تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٨٠) . (٢)

فهذه الآية مشتملة على الأمر بالوصية للوالدين حتى نزلت آية المواريث التي أعطت كل ذي حق حقه والوالدان في مقدمة ذلك .

(١) سورة البقرة: آية (٨٣) .

(٢) سورة البقرة: آية (١٨٠) .

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ  
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢١٥). وفي هذه  
الآية يبين المولى عز وجل مواضع النفقة وهي نفقة التطوع والبر والصلة فكان  
الوالدان في مقدمة من خصهم الله تعالى بالذكر لذلك.

وقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي  
الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ  
وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (٣٦). (٢).

وهذه الآية شبيهة بآية البقرة (٨٣) التي ذكرناها آنفاً فكثيراً ما يقرن الله  
سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين .

وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا  
وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَمَلْتُمْ تَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا  
الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ  
وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١٥١). (٣).

(١) سورة البقرة: آية (٢١٥) .

(٢) سورة النساء: آية (٣٦) .

(٣) سورة الأنعام: آية (١٥١) .

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَلَدِكَ إِلَى الْمَصِيرِ ۝١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى تَمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٥﴾ (١) وهنا أمر تعالى بشكرهما على صنيعهما وطاعتها ما لم يكن هناك معصية لله تعالى .

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَلْفٌ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۝٢٤﴾ (٢) .

هذه الآيات ونظائرها تنص على طاعة الوالدين والإحسان إليهما وشكرهما على صنيعهما وإظهار هيبتها والدعاء لهما على ما كان منهما من صنيع من حمل فولادة فريضاً وتربية وإنفاق . فالتقصير في حقهما مخالفة لأمر الله تعالى وعدم مكافأة على ما كان منهما وهذا ظلم يؤاخذ الله عليه، ويعاقب عليه.

وأخرج الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بصحابتي؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك؟ قال: ثم من؟ قال: أمك؟ قال: ثم من؟ قال: أبوك (٣) .

(١) سورة لقمان: آية (١٤-١٥) .

(٢) سورة الإسراء: آية (٢٣-٢٤) .

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب حديث رقم ٥٩٧١ .



قال ابن حجر : (قال ابن بطال : مقتضاه أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر. قال: وكان ذلك لصعوبة الحمل ثم الوضع ثم الرضاع فهذه تنفرد بها الأم وتشقى بها ثم تشارك الأب في التربية <sup>(١)</sup> . وهذا ما بينه قوله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ﴾ .

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه. قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه <sup>(٢)</sup> .

وعن المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ قال: "إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ومنعاً وهات، ووأد البنات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال" <sup>(٣)</sup> .

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: "أتتني أُمِّي وهي راغبة في عهد النبي ﷺ فسألت النبي ﷺ أصلها؟ قال: نعم. قال ابن عيينة: فأنزل الله تعالى فيها: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَنِّلُواكُمْ فِي الدِّينِ﴾ <sup>(٤)</sup> .

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري : ج ١٠ ، ص ٤٠٢ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب حديث رقم ٥٩٧٣ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب حديث رقم ٥٩٧٥ .

(٤) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب حديث رقم ٥٩٧٨ .

وعنها رضي الله عنها قالت: قدمت عليّ أمّي وهي مشرّكة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: إنّ أمّي قدمت وهي راغبة ، أفأصل أمّي؟ قال: نعم صلي أمّك" (١).

وأم أسماء مشرّكة وأتت راغبة في الصلة فعندما سألت أسماء رضي الله عنها رسول الله ﷺ في صلة أمّها أذن في ذلك لأهمية الأمر للوالدين وإن كانا مشركين.

وعن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد فقال: أحبي والداك؟ قال: نعم قال: ففيهما فجاهد (٢).

فالجهاد الذي هو أفضل الأعمال قدّم رسول الله ﷺ بر الوالدين عليه واعتبره خدمتهما والقيام عليهما جهاد "ففيهما فجاهد".

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان جريح يتعبد في صومعة فجاءته أمه، قال حميد فوصف لنا أبو رافع صفة أبي هريرة لصفة رسول الله ﷺ أمه حين دعتّه كيف جعلت كفّها فوق حاجبها ثم رفعت رأسها إليه تدعوه فقالت: يا جريح أنا أمّك كلمني فصادفته يصلي فقال: اللهم أمي وصلاتي فاختر صلّاته فقالت اللهم إن هذا جريح وهو ابني وإني كلمته فأبى أن يكلمني اللهم لا تمتّه حتى تريه المومسات (٣)، قال: ولو دعت عليه أن يفتن لفتن قال وكان راعي ضأن يأوي إلى ديره قالت فخرجت امرأة من القرية فوقع عليها الراعي فحملت فولدت غلاماً

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الهبة حديث رقم ٢٦٢٠ .

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب البر حديث رقم ٢٥٤٩ .

(٣) المومسات : الزواني البغايا المتجاهرات بذلك.

ف قيل لها: ما هذا؟ قالت: من صاحب هذا الدير <sup>(١)</sup> قال: فجاءوا بفؤوسهم ومساحيهم فنادوه فصادفوه يصلي فلم يكلمهم قال فأخذوا يهدمون ديرهم فلما رأى ذلك نزل إليهم فقالوا له: سل هذه ، قال فتبسم ثم مسح رأس الصبي فقال: من أبوك؟ قال: أبي راعي الضأن فلما سمعوا ذلك منه قالوا نبني ما هدمنا من ديرك بالذهب والفضة ، قال: لا . ولكن أعيدوه تراباً كما كان ثم علاه <sup>(٢)</sup>.

قال النووي : (فيه قصة جريج عليه السلام وأنه أثر الصلاة على إجابتها فدعت عليه فاستجاب الله لها ، قال العلماء: هذا دليل على أنه كان الصواب في حقه إجابتها لأنه كان في صلاة نفل والاستمرار فيها تطوع لا واجب . وإجابة الأم وبرها واجب وعقوقها حرام وكان يمكنه أن يخفف الصلاة ويحييها ثم يعود لصلاته فلعله خشي أنها تدعوه إلى مفارقة صومعته والعود إلى الدنيا ومتعلقاتها وحظوظها وتضعف عزمه فيما نواه وعاهد عليه) <sup>(٣)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : "رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف، قيل من يا رسول الله قال من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة" <sup>(٤)</sup>.

(١) الدير: كنيسة منقطعة عن العمارة تنقطع فيها رهبان النصارى لتعبدتهم وهو بمعنى الصومعة . صحيح مسلم بشرح النووي ج ٨ ، جزء ١٦ ، ص ١٠٥ .

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة حديث رقم ٢٥٥٠ واللفظ له ، والبخاري في صحيحه كتاب المظالم حديث رقم ٢٤٨٢ ، وكتاب الأنبياء حديث رقم ٣٤٣٦ ، وأحمد في المسند : ٣٠٨ / ٢ ، ٣٨٥ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي المجلد الثامن الجزء السادس عشر ص ١٠٥ .

(٤) رواه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة ، حديث رقم ٢٥٥١ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " لا يجزي ولد والداً إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه " <sup>(١)</sup> وفي رواية ابن أبي شيبه " ولد والده " .

هذه أحاديث صحيحة تبين حقوق الوالدين وأن طاعتها واجبة وعقوقها كبيرة من كبائر الذنوب وإن أغلب ما يحصل من المحظورات في حق الوالدين هو أن يؤثر الرجل زوجته على أمه في بعض العطايا أو لين الجانب أو حسن القول . وكذلك نهر الأم والاستهزاء بها أو بالأب والسخرية منهما لكبرهما وتغير حالهما ونسيانه حاله هو عندما كان صغيراً وهو أردأ وأسوأ حالاً من حالهما في كبرهما ، وقد كانا يحيطانه بعطفها ويصبران على أذاه .

قال ابن حجر الهيتمي في الكبيرة الثانية بعد الثلاثمائة عند قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ إِنَّمَا يُبَلِّغُنَّ عَنْكَ الْقَبْرَ أَخَاهُمَا أَوْ إِكْلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۖ ﴾ <sup>(٢٣)</sup> وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۖ ﴾ <sup>(٢٤)</sup> أمر الله تعالى بالإحسان إليهما وهو البر والشفقة والعطف والتودد وإيثار رضاهما ونهى أن يقال لهما أف ، إذ هو كناية عن الإيذاء بأي نوع كان حتى بأقل أنواعه . ثم قال : (ثم أمر بأن يقال القول الكريم : أي اللين اللطيف المشتمل على العطف والاستمالة وموافقة مرادهما وميلهما ومطلوبهما ما أمكن سيما عند الكبر ، فإن الكبير يصير كحال الطفل وأرذل لما يغلب عليه من الخرف وفساد التصور ، فيرى القبيح حسناً والحسن

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب العتق حديث رقم ١٥١٠ .

قبيحاً.. ثم أمر بعد القول الكريم بأن يخفض لهما جناح الذل من القول بأن لا يكلمها إلا مع الاستكانة والذل والخضوع وإظهار ذلك لهما، واحتمال ما يصدر منهما، ويريهما أنه في غاية التقصير في حقهما وبرهما، وأنه من أجل ذلك ذليل حقير، ولا يزال على نحو ذلك إلى أن يثلج خاطرهما ويبرد قلبهما عليه، فينعطفوا عليه بالرضا والدعاء، ومن ثم طلب منه بعد ذلك أن يدعو لهما، لأن ما سبق يقتضي دعاءهما له كما تقرر فليكافئهما إن فرضت مساواة، وإلا فشتان ما بين المرتبتين، وكيف تتوهم المساواة، وقد كانا يحملان أذاك وكللك وعظيم المشقة في تربيتك، وغاية الإحسان إليك راجين حياتك، مؤمنين بسعادتك، وأنت إن حملت شيئاً من أذاهما رجوت موتهما، وسئمت من مصاحبتهم، ولكون الأم أحمل لذلك وأصبر عليه مع أن عناءها أكثر وشفقتها أعظم بما قاسته من حمل وطلق وولادة ورضاع وسهر ليل، وتلطف بالقدر والنجس، وتجنب للنظافة والترفيه حصصاً على برها ثلاث مرات وعلى بر الأب مرة واحدة كما في الحديث الصحيح: "أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بصحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم من، قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك ثم الأقرب فالأقرب" (١).

والأحاديث والآثار في هذا كثير جداً وقد بينّا ما فيه الكفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

(١) الزواجر: ج ٢، ص ٦٦ كبيرة (٣٠٢).

## المبحث الثاني

ظلم العباد فيما بينهم

## المبحث الثاني

### ظلم العباد فيما بينهم

إن الظلم فساد في الأرض وضربات قاتلة وسموم فتاكة، وداء عضال، فهو يحصل بالتعدي على حقوق الآخرين مال أو دم أو عرض فإذا وقع في مجتمع من المجتمعات، تفككت أفرادها فتحصل بينهم العداوة والبغضاء والتنافر، وقد حرم سبحانه الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرماً كما جاء في الحديث القدسي: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا"<sup>(١)</sup>.

فالعبد الذي رزق علماً نافعاً ومعرفة بالله تعالى وبدينه القويم يكون دائماً على حذر من تجاوز الحدود التي رسمتها له الشريعة الغراء، فلا يبرح طريقاً فيه الهدى والنور إلى ما فيه الشر والمهلكة. ومن عميت بصيرته ضل هدى الله تعالى وطريقه المستقيم فلا يبالي من الوقوع في دماء أو أموال أو أعراض لأنه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، فهو كالأنعام بل أضل سبيلاً.

يقول تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب البر باب ٥٥.

(٢) سورة الأنعام: آية (١٢٢).

## ١- ظلم الناس والبغي في الأرض

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١)

السبيل : الطريق . يظلمون الناس : يعتدون عليهم ، بغير حق : أي يفسدون في الأرض بغير وجه مباح .

بيّن المولى عز وجل أن الحرج والضيق والعنت هو على أولئك الذين يتجاوزون فيبدؤون الناس بالظلم فقد أعد الله لهم عذاباً شديداً موجعاً . وهذه الآية الكريمة جاءت بعد قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (٤١) وهذا بيان من المولى عز وجل لعباده بأن يردعوا أنفسهم عن ظلم بعضهم بعضاً ومن اعتدى فالجزاء هو ما ذكره المولى عز وجل .

قال ابن كثير : ( قال أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا الحسن بن موسى حدثنا سعيد بن زيد أخو حماد بن زيد حدثنا عثمان السخام حدثنا محمد بن واسع قال : قدمت مكة فإذا على الخندق قنطرة فأخذت فانطلق بي إلى مروان بن المهلب وهو أمير على البصرة فقال : ما حاجتك ؟ قلت : يا أبا عبد الله حاجتي إن استطعت أن تكون كما كان أخو بني عدي ، قال : ومن أخو بني عدي ؟ قال العلاء بن زياد استعمل صديقاً له مرة على عمل فكتب إليه ، أما بعد : فإن استطعت أن لا تبیت إلا وظهرك خفيف وبطنك خميص وكفك نقية من دماء المسلمين وأموالهم فإنك

(١) سورة الشورى : آية (٤٢) .



إذا فعلت ذلك لم يكن عليك سبيل ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٤٢) ، فقال مروان : صدق والله ونصح، ثم قال: وما حاجتك يا أبا عبد الله؟ قلت حاجتي أن تلحقني بأهلي، قال: نعم، رواه ابن أبي حاتم (١) اهـ.

وروى البخاري بسنده عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب استعمل مولى يدعى هنيئاً على الحمى، فقال: يا هني أضمم جناحك عن الناس، واتق دعوة المظلوم، فإن دعوة المظلوم مستجابة، وأدخل ربّ الصرّيمة وربّ الغنيمة، وإيأي ونعم ابن عوف. ونعم ابن عفان، فإنهما إن تهلك ماشيتهما يرجعا إلى نخل وزرع، وإن ربّ الصرّيمة وربّ الغنيمة إن تهلك ماشيتهما يأتيني ببينة فيقول: يا أمير المؤمنين! أفتاركهم أنا لا أبا لك؟ فالماء والكلاء أيسر عليّ من الذهب والورق، وأيم الله إنهم ليرون أنّي قد ظلمتهم، إنها لبلادهم ومياهم. قاتلوا عليها في الجاهلية. وأسلموا عليها في الإسلام والذي نفسي بيده لولا المال الذي أحمل عليه في سبيل الله ما حميت عليهم من بلادهم شبراً (٢).

أضمم جناحك عن الناس: أي أكفف يدك عن ظلمهم.

اتق دعوة المظلوم: أي اجتنب الظلم لئلا يدعوك عليك من تظلمه .

وأدخل : أي في الرعي .

الصرّيمة : أي القطعة القليلة من الإبل نحو الثلاثين وقليل من عشرين إلى أربعين .

(١) تفسير القرآن العظيم : ج ٤ ، ص ١١٩ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجهاد ، حديث رقم ٣٠٥٩ .

والغنيمة: تصغير غنم، قيل إنها أربعون والمراد القليل منها كما دلّ عليه التصغير .  
وإيّاي و نعم ابن عوف ونعم ابن عفان : قال الحافظ خصّهما بالذكر على طريق المثال . لكثرة نعمهما . لأنهما كانا من مياسير الصحابة ولم يرد منعهما البتة .  
وإنما أراد أنه إذا لم يسمح لرعي نعم أحد الفريقين فنعم المقلين أولى، فنهى عن إثارهما على غيرهما، أو تقديمهما قبل غيرهما .  
لا أبا لك: أصله لا أب لك، وظاهره الدعاء عليه، لكنه على مجازه، لا على حقيقته، "فالماء والكلاء أيسر عليّ نم الذهب والورق: أي أهون من إنفاقهما لهم .  
الماء الذي أحمل عليه : أي الإبل والخيول التي كان يحمل عليها من لا يجد ما يركب"<sup>(١)</sup>.

---

(١) موطأ مالك ج ٢، ص ١٠٠٣، دار إحياء التراث العربي .

هنّي : مولى عمر .

قال ابن حجر : (هذا المولى لم أر من ذكره في الصحابة مع إدراكه وقد وجدت له رواية عن أبي بكر وعمر وعمر بن العاص روى عنه ابنه عمير وشيخ من الأنصار وغيرهما، شهد صفين مع معاوية ثم تحوّل إلى عليّ لما قتل عمّار، ثم وجدت في كتاب مكة لعمر بن شبة أن آل هنّي ينتسبون في همدان وهم موالى آل عمر .

فتح الباري : ج ٦ ص ١٧٦ .

وقال ابن حجر في تقريب التهذيب : مولى عمر استعمله عمر على الحمى وهو ثقة من الثانية .

## ٢- ظلم الأمم لرسولهم

قال الله تعالى :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ (١).

إن من فضل الله تعالى ومنته على خلقه أن بعث في كل أمة رسولا يدعوهم إلى الله ويبلغهم دينه من توحيد وشرائع ومعاملات قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴿٢﴾﴾ ، وقال تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ (٣).

ولكن الأمم قابلت رسولهم بالتكذيب والحيلولة بينهم وبين ما يدعون إليه وما أمروا بتبليغه من دين الله تعالى لأن الشيطان قد صدّهم عن طريق الله الموصل إلى جنته، فأذوا الرسل وعذبوا من عذبوا وقتلوا كذلك، وليس الله بغافل عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

(١) سورة إبراهيم : آية (١٣) .

(٢) سورة النحل : آية (٣٦) .

(٣) سورة فاطر : آية (٢٤) .

ففي هذه الآية التي هي مدار بحثنا يخبر تعالى عن تواعد بعض الأمم الكافرة لرسولهم الذين بعثوا يدعونهم إلى الله تعالى ويخرجونهم من عبادة غير الله تعالى إلى عبادته عز وجل وأنه خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم وباعثهم. وذلك بالإخراج من أرضهم أو دخولهم معهم فيما هم عليه من الكفر والضلال ولكن يأبى الله ذلك ولو كره المشركون، فقد بلغ تعالى رسله صلوات الله وسلامه عليهم أنه مهلك أولئك الكفرة، أولئك الظلمة العاصين والمصرين على كفرهم وضلالهم وقد قال تعالى بياناً لشنيع صنيعهم وما اتخذوه من أنبيائه ورسله ﴿قَالَ أَمْلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مَلَّتِنَا﴾ (١).

وحكى تعالى عن لوط وقومه فقال تعالى: ﴿أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُونَ﴾ (٥٥) ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلْ لُوطُ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْأَسُ يَنْطَهُرُونَ﴾ (٥٦) (٢).

وقال تعالى مخبراً عن مشركي قريش وموقفهم مع خاتم الأنبياء محمد ﷺ: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٧٦) (٣)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ (٣٠) (٤).

(١) سورة الأعراف: آية (٨٨).

(٢) سورة النمل: آية (٥٦).

(٣) سورة الإسراء: آية (٧٦).

(٤) سورة الأنفال: آية (٣٠).

كل هذه الآيات ونظائرها فيها بيان ظلم الأمم لرسولهم ولكن الله كاف رسله وأنبياءه وموهن كيد الظالمين الذين يبغون في الأرض فساداً ويخرجون أنبياءه ورسوله الذين يقولون ربنا الله .

قال السيوطي : (أخرج بن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية قال: كانت الرسل والمؤمنون يستضعفهم قومهم ويقهروهم ويدعونهم إلى أن يعودوا في ملتهم فأبى الله لرسوله والمؤمنين أن يعودوا في ملة الكفر...) (١).

فأي ظلم أعظم من هذا ، ﴿وَيَقُولُوا مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ (٤١) إن رسل الله وأنبياءه يدعون أقوامهم إلى الجنة دار اللذة والسرور وهم يستبدلون الأدنى بالذي هو خير ويظلمون أنبياءهم ورسولهم بالاعتداء عليهم والتكذيب والقتل ولكن مرد الظالمين النار .

وقد أخبر تعالى عن مقالات الكفرة الباطلة وبيانه تعالى جزاءهم على ذلك فقال تعالى : ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ (٢) .

فحاشاه تعالى عن مقاتلتهم بأنه فقير بل هم الفقراء وهو الغني الحميد، وحاشاه أن يظلم أحداً بل هو الحكم العدل يجازي كلاً بعمله إن خير فخير وإن شراً فشر .

(١) الدر المشور في التفسير بالمأثور : ج ٥، ص ١٢، دار الفكر .

(٢) سورة آل عمران : آية (١٨١-١٨٢) .

### ٣- الدم والمال والعرض

هذه الأمور الثلاثة حق من حقوق الآخرين ولا يجوز لمسلم أن يقع في شيء من هذه الأمور لأن الله حرمها بين المسلمين لما ينجم عن ذلك من مضار، لذا فقد حرمت الشريعة هذه بين المسلمين .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبيع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخواناً المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى هاهنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه" <sup>(١)</sup>.

حسده : حسداً، تمنى أن تتحول إليه نعمته أو أن يسلبها ، تحاسدوا: حسد كل منهم الآخر .

تناجشوا: تناجش القوم في البيع ونحوه، تزايدوا في تقدير الأشياء إغراء وتمويهاً.

تباغضوا: البغض : المقت والكراهية أي أبغض بعضهم بعضاً.

تدابروا : تعادوا وتقاطعوا <sup>(٢)</sup>.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب البر والصلة ، حديث رقم ٢٥٦٤ .

(٢) المعجم الوسيط .

وكونوا عباد الله إخواناً: أي تعاملوا وتعاشروا معاملة الأخوة ومعاشرتهم في المودة والرفق والشفقة والملاطفة والتعاون في الخير ونحو ذلك مع صفاء القلوب والنصيحة بكل حال<sup>(١)</sup>.

ولا يبيع بعضكم على بيع بعض: هو أن يقول لمن اشترى شيئاً في مدة الخيار أفسخ هذا العقد وأنا أبيعك مثله بأرخص من ثمنه أو أجود منه بثمانه ونحو ذلك وهذا حرام يحرم أيضاً الشراء على شراء أخيه وهو أن يقول للبائع في مدة الخيار افسخ هذا البيع وأنا أشتريه منك بأكثر من هذا الثمن ونحو هذا.

وأما السوم على سوم أخيه: فهو أن يكون قد اتفق مالك السلعة والراغب فيها على البيع ولم يعقدها فيقول الآخر للبائع: أنا أشتريه وهذا حرام بعد استقرار الثمن، وأما السوم في السلعة التي تباع فيمن يزيد فليس بحرام<sup>(٢)</sup>.

إن المظالم تقع في ثلاثة أمور كما أسلفنا وهي التي أشار إليها الحديث: "الدم - المال - العرض" حيث تشتمل على حقوق الإنسان لهذا بينها ﷺ وأشار بالنهي عن عدة أمور عظيمة وهي: الحسد الذي هو تمنّي زوال النعمة عن الغير، والتباغض الذي هو كره ومقت بعضهم بعضاً والذي يتنافى مع آداب الإسلام حيث يأمر بالتوادد والتراحم الذي هو الصفة الحميدة التي ينبغي أن تكون بين المسلمين، كما نهاهم عن التعادي والتقاطع بأن يدبر كل واحد عن الآخر ويعرض

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ج ١٦، ص ١١٦.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: ج ١٠، ص ١٥٨.

عنه، وهذا مما يوجد القطيعة والتفكك بين صفوف المسلمين، كما نهى ﷺ عن بيع المسلم على بيع أخيه المسلم لما في ذلك من فسخ للبيوع المشروعة والإغراءات الكاذبة، والوعود الباطلة، والخداع الزائف، كما أمر ﷺ أن تكون هناك الأخوة الإسلامية الصادقة لأن المسلم أخو المسلم كما قال تعالى : (إنما المؤمنون أخوة) فالأخوة هي في الإسلام لأن ذلك أقوى تماسكاً وأوثق لعرى المحبة فلا يمكن أن يحصل ظلم من مسلم لأخيه لا في دمه ولا ماله ولا عرضه، ولا أن يخذله، وفي الحديث : (المؤمن أخو المؤمن لا يخذله)، وكذا لا يحقره أي لا يستهين به بل يجعله في موضع الثقة والمكانة العالية لا الاستهانة فإذا كانت التقوى موجودة والتي مكانها الصدر - أي في القلب - فلا بد أن تكون المحبة الصادقة والولاء المطلق، وإن الشر كل الشر أن يستهين المسلم بأخيه المسلم فتتعدم أواصر الأخوة الإسلامية ويكون للظلم مدخل في ذلك كما حرم ﷺ الأمور الثلاثة : (الدم - المال - العرض) على المسلم بالنسبة للمسلم الآخر وكيف لا يكون ذلك وهو ينطق بالشهادتين والذي بهما دخل الإسلام فمن المفترض عليه أن يعرف معناها ويعمل بمقتضاها .

وأخرج الإمام البخاري عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : (من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم. إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه) <sup>(١)</sup>.

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب المظالم باب ١٠ ، حديث ٢٤٤٩ .



وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من ظلم من الأرض شبراً طوقه من سبع أرضين) <sup>(١)</sup>.

وعن سالم عن أبيه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (المستبان ما قالا فعلى البادئ ما لم يعتد المظلوم) <sup>(٢)</sup>.

قال النووي: (معناه: أن إثم السباب الواقع من اثنين مختص بالبادئ منهما كله إلا أن يتجاوز الثاني قدر الانتصار فيقول للبادئ أكثر مما قاله له وفي هذا جواز الانتصار ولا خلاف في جوازه وقد تظاهرت عليه دلائل الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَاعَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ <sup>(٣)</sup> اهـ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: (ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله) <sup>(٤)</sup>.

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أتدرون من المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فئت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار) <sup>(٥)</sup>.

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب المظالم ١٠.

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة، حديث ٢٥٨٧.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي جزء ١٦، ص ١٤٠.

(٤) رواه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة حديث رقم ٢٥٨٨.

(٥) رواه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة، حديث رقم ٢٥٨١.

في هذا الحديث تحذير شديد للذين يتجاوزون الحد بالتعدي على الآخرين فيشتمون ويقذفون ويأكلون الأموال بغير حق ويسفكون الدماء ويضربون الناس ويعذبونهم فهؤلاء يمهلون في الدنيا ولكن القصاص في الآخرة فيؤخذ من حسناتهم مقابل ما اقترفوا من حقوق حتى يفنى ما عندهم من حسنات فإن بقي عليهم شيء من الحقوق أخذ من سيئات أصحاب الحقوق وطرح عليهم ثم يؤخذ بهم إلى النار وهؤلاء هم المفلسون .

وعن عبدالله بن أنيس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يحشر- العباد يوم القيامة حفاة عراة غرلاً بهما فيناديهم مناد يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة أو أحد من أهل النار أن يدخل النار وعنده مظلمة إلى أن أقضه حتى اللطمة فما فوقها ولا يظلم ربك أحداً. قلنا: يا رسول الله كيف وإنما تأتي حفاة عراة فقال : (بالحسنات والسيئات جزاء ولا يظلم ربك أحداً) <sup>(١)</sup>.

هذه أحاديث فيها بيان حرمة دماء وأموال وأعراض المسلمين، وأن هذا من الظلم الذي حرمه المولى عز وجل على عباده، كما أن فيها زجراً للمسلم الذي

---

(١) رواه أحمد بإسناد حسن قاله المنذري وعزاه ابن القيم في صواعقه إلى يعلى الموصلي في مسنده والبخاري في الأدب المفرد والضياء في المختارة والطبراني في المعجم والسنة وغيرهم وحسن إسناده وهو من رواية همام بن يحيى عن القاسم ابن عبد الواحد عن عبدالله بن محمد بن عقيل عن جابر في رحلته إلى الشام إلى عبدالله بن أنيس فذكره وعلقه البخاري في أول صحيحه مجزوماً به وفي آخره بلفظ ويذكر عن جابر الخ . كتاب الكبائر للذهبي ، ص ١١٧ ، تخريج محمد عبد الرزاق حمزة .

يؤمن بالله واليوم الآخر والبعث بعد الموت والجزاء والحساب، وأن الله تعالى مجاز المحسن بإحسانه والمسيء على إساءته، وأنه تعالى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وكما يعطي كتابه بيمينه أو بشماله من وراء ظهره كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ (٧) ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (٨) ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (٩) ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ (١٠) ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ (١١) ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ (١٢) ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (١٣) ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ﴾ (١٤) ﴿يَلَيْحُ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ (١٥) ﴿﴾ (١).

(١) سورة الانشقاق: آية (٧-١٥).

## المبحث الثالث

ظلم العبد لسائر الحيوان

## المبحث الثالث

### ظلم العبد لسائر الحيوان

الحيوانات من مخلوقات الله تعالى التي خلقها وجعل منها ما فيه منافع للناس كما ذكر تعالى: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّا تَكُونُوا بِلَيْغِهِ إِلَّا أَسْفَقَ الْأَنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾ (١).

فبين تعالى ما فيها من مصالح ومنافع من أصواف وأوبار وأشعار وما يلبس وما يفرش وما يشرب من لبن وما يؤكل وما هو معد للركوب والزينة. فهذا مما يجب أن يشكر الله تعالى عليه، ومما يجب علينا احترامه وإعطاءه قدره، لا أن تقابل هذه النعمة بالنكران، ويبدل الإحسان بالكفران. فلا يجوز أن تعذب هذه العجاوات بضرب ولا تشويه في خلقها، ولا أن تترك بدون طعام ولا شراب ولا تكلف ما لا تطيق، حتى ما يذبح منها للأكل لما جاء في الحديث عن شداد بن أوس قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته فليرح ذبيحته) (٢).

(١) سورة النحل: آية (٥-٨).

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب الصيد حديث ١٩٥٥، وأبو داود كتاب الضحايا حديث ٢٨١٥، والترمذي: ديات حديث ١٤٠٩، والنسائي: ضحايا ٧/٢٧٧، وابن ماجه ذبائح ٣١٧٠، والدارمي: أضاحي ٨٢/٢، وأحمد في المسند: ١٢٣/٤.

وقد بين ﷺ عاقبة من يسيء إلى ذلك. فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار لا هي أطعمتها وسقتهما إذ هي حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض)<sup>(١)</sup>.

فقد بين ﷺ عظم العقوبة لمن يحبس الحيوان ويبيعه حتى يموت فكانت العقوبة هي النار ولم يجعل ﷺ حداً دنيوياً في ذلك لأن الأحكام هي من رب العزة، والرسول ﷺ بعث مبلغاً عن ربه تبارك وتعالى فما أعظم ذلك من عقوبة لمن لم يرحموا وخاصة هذه الحيوانات الضعيفة التي لا تستطيع أن ترفع عنها ظلم الظالم، فالله جل وعلا هو الذي يقتص للمظلومين من خلقه أيّاً كان نوعهم وأيّاً كانت مكانتهم، فهم جميعاً خلقه والضعفاء إليه وتحت تصرفه وقهره .

وكان ﷺ حريصاً على الحيوان ولم يترك لأحد مجالاً في إيذائه. فعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما ، قال : أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه فأسر إليّ حديثاً لا أحدث به أحداً من الناس. قال وكان أحبّ ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدفاً أو حايش نخل فدخل حائطاً لرجل من الأنصار فإذا جمل فلما رأى النبي ﷺ حنّ إليه وذرفت عيناه فأتاه النبي ﷺ فمسح ذفرته فسكن فقال: من رب هذا

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب السلام حديث ٢٢٤٢، وكتاب البر والصلوة ١٣٣، كتاب الكسوف ٩، ورواه البخاري في صحيحه كتاب الأنبياء ٥٤، والنسائي : كتاب الكسوف ١٤، ٢٠، وأحمد في المسند: ١٥٩/٢ .

الجميل؟ لمن هذا الجمل؟ قال: فجاء فتى من الأنصار فقال: هولي يا رسول الله، فقال ألا تتق الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟ فإنه شكائي أنك تجيعه وتدئبه<sup>(١)</sup>.

وقد لعن ﷺ من اتخذ شيئاً فيه روح غرضاً أو هدفاً يرمى، فعن سعيد بن جبير قال: مرّ ابن عمار بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً وهم يرمونه وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم فلما رأوا ابن عمر تفرقوا فقال ابن عمر: من فعل هذا لعن الله من فعل هذا إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئاً فيه روح غرضاً<sup>(٢)</sup>.

فالرسول ﷺ لعن في هذا الحديث من فعل هذه الفعلة لأن فيها تعذيباً للحيوان وإتلافاً لنفسه وتضييعاً لماليتة والاستفادة منه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: رأى رسول الله ﷺ حمراً موسوم الوجه فأنكر ذلك فقال: والله لا أسمه إلا أقصى شيء من الوجه وأمر بحماره فكوى في جاعرته فهو أول من كوى الجاعرتين<sup>(٣)</sup>.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرک ٩٩/٢ - ١٠٠٠ وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب الصيد حديث ١٩٥٨، ورواه البخاري في صحيحه كتاب الذبائح حديث ٥٥١٤، وأحمد في المسند ٢٩٧/١.

(٣) رواه مسلم في صحيحه كتاب اللباس حديث ٢١١٨.

وعنه رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مرّ على حمار قد وسم وجهه فقال : (لعن الله الذي وسمه) .

وفي رواية : (نهى ﷺ عن الضرب في الوجه وعن الوسم في الوجه) <sup>(١)</sup> .

وفي هذه الأحاديث دلالة على تحريم الوسم في الوجه وكذا الضرب في الوجه وتشديد التحريم في ذلك حيث ورد اللعن منه ﷺ ، واللعن كما هو المعروف هو الطرد من رحمة الله تعالى وبيان موضع الوسم وأن ما خالف ذلك فهو تعدٍ على حق الغير وخاصة هذه العجاوات وذلك ظلم يحاسب عليه العبد الذي يقدم على مثل هذه الفعلة الخاطئة .

والنبي ﷺ من رحمته بنا لا يرى أمراً فيه مضرة على أحد إلا سارع إلى البيان وإلى ما هو خير، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حمرة معها فرخان فأخذنا فرخيها فجاءت الحمرة فجعلت تفرش فجاء النبي ﷺ فقال : (من فجع هذه بولدها ردّوا ولدها إليها، ورأى قرية نمل <sup>(٢)</sup> قد حرقناها فقال: من حرّق هذه قلنا: نحن قال: إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار) <sup>(٣)</sup> .

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب اللباس حديث ٢٢١٧ .

(٢) قرية نمل: أي موضع النمل مع النمل ، رياض الصالحين ص ٥٣٢ ، مطبعة اليوسفية بمصر .

(٣) رواه أبو داود كتاب الأدب ٥٢٦٨ ، بإسناد صحيح قاله النووي في رياض الصالحين ص ٥٣٢ ، المطبعة اليوسفية بمصر .



هكذا كان اهتمامه ﷺ بالطير وما هو أقل من ذلك وهو النمل فكان ﷺ حريصاً حتى على الحشرات وأن لا يعتدي عليها، كما نهى ﷺ أن تصبر البهائم أي تحبس للقتل فعن أنس رضي الله عنه قال : (نهى رسول الله ﷺ أن تصبر البهائم) (١).

قال النووي :

(قال العلماء: صبر البهائم أن تحبس وهي حيّة لتقتل بالرمي ونحوه وهو معنى لا تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً أي لا تتخذوا الحيوان الحي غرضاً ترمون إليه كالغرض من الجلود وغيرها وهذا النهي للتحريم) (٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر، فإننا لله تعالى إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجاتكم) (٣).

قال أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي :

(قال القاري: المعنى لا تجلسوا على ظهورها فتوقفونها وتحديثون بالبيع والشراء وغير ذلك بل انزلوا واقضوا حاجاتكم ثم اركبوا) (٤).

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الذبائح حديث ٥٥١٣، ومسلم في صحيحه كتاب الصيد، حديث ١٩٥٨، وأبو داود كتاب الضحايا ٢٨١٦، والنسائي كتاب الضحايا ٧٩، وأحمد في المسند: ٩٤ / ٢.

(٢) مسلم بشرح النووي : ج ٧، الجزء ١٤، ص ١٠٨ .

(٣) رواه أبو داود كتاب الجهاد حديث ٢٥٦٧، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ج ١، حديث ٢٢٠ ص ٣٠، منشورات المكتب الإسلامي .

(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود ج ٧، ص ٢٣٥، دار الفكر .

وهذا العمل يعتبر مضرّة لها وتعذيباً لها وهي لم تجعل لهذا بل لحاجات الإنسان في إيصاله من بلد إلى آخر لا يستطيع الوصول إليه إلا بتعب ومشقة فهي تنقل المتاع ويركبها الإنسان في سفره ويعطيها حقها من الأكل والشرب والراحة.

قال الألباني بعد أن ذكر الأحاديث الواردة في الرفق بالحيوان: (تلك هي بعض الآثار التي وقفت عليها حتى الآن وهي تدل على مبلغ تأثر المسلمين الأولين بتوجيهات النبي ﷺ في الرفق بالحيوان وهي في الحقيقة قلّ من جلّ ونقطة من بحر وفي ذلك بيان واضح أن الإسلام هو الذي وضع للناس مبدأ (الرفق بالحيوان) خلافاً لما يظنه بعض الجهال بالإسلام أنه من وضع الكفار الأوربيين ، بل ذلك من الآداب التي تلقوها عن المسلمين الأولين، ثم توسعوا فيها، ونظموها تنظيماً دقيقاً، وتبنتها دولهم حتى صار الرفق بالحيوان من مزاياهم اليوم، حتى توهم الجهال أنه من خصوصياتهم! وغرّهم في ذلك أنه لا يكاد يرى هذا النظام مطبقاً في دولة من دول الإسلام وكانوا هم أحقّ بها وأهلها !

ولقد بلغ الرفق بالحيوان في بعض البلاد الأوربية درجة لا تخلو من المغالاة، ومن الأمثلة على ذلك ما قرأته في مجلة الهلال (مجلد ٢٧ ج ٩ ص ١٢٦) تحت عنوان (الحيوان والإنسان) إن محطة السكك الحديدية في كوبنهاجن كان يتعشعش فيها الخفافش زهاء نصف قرن، فلما تقرر هدمها وإعادة بنائها أنشأت البلدية برجاً كلفته عشرات الألوف من الجنيهات، منعاً من تشرّد الخفافش .

وحدث منذ ثلاث سنوات أن سقط كلب صغير في شق صغير بين صخرتين في إحدى قرى انجلترا، فجند له أولو الأمر من رجال المطافئ لقطع الصخور وإنقاذ الكلب! وثار الرأي العام في بعض البلاد أخيراً عندما اتخذ الحيوان وسيلة لدراسة الظواهر الطبيعية، حين أرسلت روسيا كلباً في صاروخها وأرسلت أميركا قرداً<sup>(١)</sup> اهـ.

إذا كان هذا موقف أعداء الإسلام والمسلمين مع الحيوانات الخرساء فما هو موقف المسلمين من ذلك؟

أ يكون بالظلم لها بالضرب والتعذيب والقتل وعدم المبالاة؟ كلا: بل بالرفق والمعاملة التي بينها الدين الإسلامي بدون مغالاة كما يفعل بعض الغربيين حيث يهتمون بها أكثر من اهتمامهم بالإنسان فلم يترك ديننا شيئاً إلا وبيّنه وبيّن الجزاء على ذلك، فلقد جاء الاهتمام بذلك في الإسلام حتى بين الحيوانات أنفسها. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لتؤدّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء<sup>(٢)</sup> من الشاة القرناء<sup>(٣)</sup>). اهـ.

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة: ج ١ ص ٣٧-٣٨.

(٢) الجلحاء: الجماء التي لا قرون لها.

(٣) رواه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة، حديث ٢٥٨٢.

قال النووي: (هذا تصريح بحشر البهائم يوم القيامة وإعادتها يوم القيامة كما يعاد أهل التكليف من آدميين وكما يعاد الأطفال والمجانين ومن لم تبلغه دعوة وعلى هذا تظاهرت دلائل القرآن والسنة. قال الله تعالى: (وإذا الوحوش حشرت) وإذا ورد لفظ الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل ولا شرع وجب حمله على ظاهره. قال العلماء: وليس من شرط الحشر- والإعادة في القيامة المجازاة والعقاب والثواب. وأما القصاص من القرناء للجلحاء فليس هو من قصاص التكليف إذ لا تكليف عليها بل هو قصاص مقابلة<sup>(١)</sup> اهـ. والقصاص من العباد قصاص تكليف.

والمراد مما ذكر هو عدم ظلم الحيوان سواء بقتله دون مبرر شرعي أو تكليفه ما لا يطيق أو تجويعه أو الإساءة إليه بأي نوع من أنواع الإساءات ومما استشهدنا به مما ذكره الشيخ الألباني عن اهتمام الكفار الأوربيين بالحيوانات ليس القصد هو تطبيق ما عليه الكفار من مواقف مع الحيوانات بشكل عام بل ليعرف المسلم أهمية الرفق بالحيوان ويسير على منهج الشريعة الغراء في ذلك لا ما يسلكه أعداء الإسلام في المغالاة في الحيوانات كترية الكلاب وما شابه ذلك بل يكون على مسلك الشريعة وما رسمه رسول الله ﷺ وما سار عليه السلف الصالح رضي الله عنهم.

(١) مسلم بشرح النووي ج ٨، الجزء ١٦ ص ١٣٦-١٣٧.

## **الباب الرابع**

### **أثر الظلم على الفرد والمجتمع**

وفيه فصول :

**الفصل الأول : أثر الظلم على الأفراد**

**الفصل الثاني : أثر الظلم على المجتمع**

## الفصل الأول

### أثر الظلم على الأفراد

وفيه مباحث :

المبحث الأول : ضياع النعمة .

المبحث الثاني : زوال الملك .

المبحث الثالث : ندم الظالم .

المبحث الأول

ضياع النعمة

## المبحث الأول

### ضياع النعمة

قال الله تعالى : ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (١).

إن الغرور بالنفس أو المال أو السلطان والكبرياء ظلم عظيم حيث الترف على الناس بأحد هذه الأشياء أو بعضها وما علم ذلك المغرور أن العزة والكبرياء والعظمة لله وحده دون سواه، فهو سبحانه يضرب لنا مثلاً فيقول تعالى : ﴿وَأَضْرَبَ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۚ كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أُكْلُهُمَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ۚ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۚ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۚ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ۚ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ۚ لَنُكَتَا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۚ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۚ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ۚ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ۚ وَأُحِيط بِشَمْرِهِ فَاصْبِرْ يَقْلِبْ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ۚ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ۚ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ (٢).

(١) سورة الكهف : آية (٣٥) .

(٢) سورة الكهف : آية (٣٢-٤٤) .



إن هذه الآيات البينات لتظهر واضحة في معناها في كفر من قد أنعم الله عليه، وجحوده لما قد رزق في هذه الحياة الدنيا من جنات، وهذه الآيات تحكي قصة ضربها الله تعالى مثلاً لقريش وقد ذكرها بمعناها الإمام ابن جرير حيث قال : (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : واضرب يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الذين سألوك أن تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه مثل رجلين جعلنا لأحدهما بستانين من كروم وأطفنا هذين البستانين بنخل وجعلنا وسطهما زرعاً وكلا البستانين أطعم ثمره وما فيه من الغروس، من النخل والكروم وصنوف الزرع ولم تنقص من الأكل شيئاً بل آتت ذلك تاماً كاملاً، وسيل خلال هذين البستانين نهراً أي بينهما وبين أشجارهما حتى صار له من جنته أنواع من الثمار، فقال صاحب الجنتين للذي لا مال له بأنه صاحب مال وأعز عشيرة ورهطاً.

فدخل صاحب الجنتين بستانه وهو ظالم لنفسه بكفره بالبعث و شكه في قيام الساعة ونسيانه المعاد إلى الله تعالى فأوجب لها بذلك سخط الله وأليم عقابه، حيث لما عاين جنته ورآها وما فيها من الأشجار والثمار والزروع والأنهار المطردة شك في المعاد إلى الله، ثم تمنى أمنية أخرى على شك منه، وهو إن رجع إلى الله وهو غير أنه راجع إليه ليجدن خيراً من جنته هذه؛ لأنه لم يعطه هذه الجنة في الدنيا إلا وعنده أفضل منها في المعاد إن رد إليه (هذه مقالته وزعمه) وهذا كفور لنعم ربه مكذب ببلقائه متمنٍ على الله.

وقال لصاحب الجنتين صاحبه الذي هو أقل منه مالاً وولداً وهو يخاطبه ويكلمه: أكفرت بالذي خلق أباك من تراب ثم أنشأك من نطفة الرجل والمرأة ثم عدلك بشراً سوياً رجلاً، ذكراً لا أنثى، أكفرت بمن فعل بك هذا أن يعيدك خلقاً جديداً بعد ما تصير رفاتاً، أما أنا فلا أكفر بربي ولكن أنا أقول: هو الله ربي (ولا أشرك بربي أحداً)، وهلاً إذا دخلت بستانك فأعجبك ما رأيت منه قلت: ما شاء الله كان. ثم يقول المؤمن للكافر: لن ترن أيها الرجل أنا أقل منك مالاً وولداً أي لا مال ولا عشيرة مثلك.

وقد أخبر المولى عز وجل عن قيله وإيقانه للمعاد إلى الله للكافر المرتاب في قيام الساعة إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً في الدنيا فعسى ربي أن يرزقني خيراً من بستانك هذا وأن يرسل على بستانك هذا عذاباً من السماء فتصبح جنتك أيها الرجل أرضاً ملساء لا شيء فيها، ويذهب ماؤها أي يغور في الأرض.

فأحاط الهلاك والجوائح بثمره فأصبح يقلب كفيه ظهراً لبطن تلهفاً وأسفاً على ذهاب نفقته، ويتمنى أنه لم يكن كان أشرك بربه أحداً، ولم تكن عشيرته يمنعونه من عقاب الله وعذاب الله إذا عاقبه وعذبه. وقد عقب الله ذلك خبره عن ملكه وسلطانه وأن من أحل به نقمته يوم القيامة فلا ناصر له يومئذٍ، فهو الحق في ألوهيته، لا الباطل في ألوهيته، التي يدعيها المشركون بالله آلهه، فهو خير للمنيبين في العاجل والآجل ثواباً، وخيرهم عاقبة في الآجل إذا صار إليه المطيع له العامل بما أمره الله والمنتهي عما نهاه الله عنه<sup>(١)</sup> اهـ.

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ج ١٥، ص ٢٤٤-٢٥١، طبعة الحلبي الثالثة ١٣٨٨ هـ.

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَدِيرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَنْوِيلُنَا إِنَّا كُنَّا طَائِعِينَ ﴿٣١﴾ عَنِ رَبِّنَا أَن يُّبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (١) .

إننا عندما نتمعن هذه الآيات البينات لنرى عاقبة الظلم وأثره على الأفراد وذلك بما قد أصاب جنة أولئك النفر بستانهم المشتمل على أنواع الخيرات من الدمار وذهاب خيراتها حتى أصبحت سوداء مدلهمة لا ينتفع بشيء منها. وهذا المثل الذي ضربه المولى عز وجل هو من أجل أن يعتبر كفار قريش ولا يقابلوا ما أنعم الله به عليهم بالرد وذلك بعثة محمد ﷺ تلك الرحمة المسداة والذي أنقذ الله به قلوباً عمياً وآذاناً صماً من الجهل والضلال وعبادة الأصنام إلى عبادة رب العباد.

(١) سورة الفلم : آية (١٧-٢٣) .

وقد ذكر الحافظ ابن كثير قصة أولئك النفر حيث يقول: (هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة الجسيمة وهو بعثة محمد ﷺ إليهم فقابلوه بالكذب والرد والمحاربة فاختبرهم الله كما اختبر أصحاب البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه إذ حلفوا فيما بينهم ليجزن ثمرها ليلاً لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء ولا يستثنون فيما حلفوا به ولهذا حنّتهم الله في أيانهم حيث أصابتها آفة سماوية وهم نائمون فأصبحت كالليل الأسود فحرموا خير جنّتهم بذنبهم، فلما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجذاذ وهم يتناجون فيما بينهم بحيث لا يسمعون أحداً كلامهم، وأن لا يُمكّنوا مسكيناً ذلك اليوم يدخلها، فغدوا إليها مسرعين فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها وجدوها قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مدلهمة لا ينتفع بشيء منها فاعتقدوا أنهم قد اخطأوا الطريق فتأهوا عنها ولكنهم تحققوا وتيقنوا أنها هي، فندموا واعترفوا بظلمهم وأخذ يلوم بعضهم بعضاً على ما أصرّوا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ، حتى عوقبوا بنقيض قصدهم فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية رأس المال والربح والصدقة فلم يبق لهم شيء، وهذا عذاب من خالف أمر الله وبخل بما آتاه الله وأنعم عليه ومنع حق المسكين والفقير وذوي الحاجات وبدل نعمة الله كفرًا، هذه عقوبة الدنيا، وعذاب الآخرة أشق) (١) اهـ.

(١) تفسير القرآن العظيم: ج ٤، ص ٤٠٦، ٤٠٧.

يقول سيد قطب: في تعقيبه بعد ذكر هذه القصة : (وكذلك يسوق إلى قريش هذه التجربة من واقع البيئة ومما هو متداول بينهم من القصص، فيربط بين سنته في الغابرين وسنته في الحاضرين، ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم، وفي الوقت ذاته يشعر المؤمنين بأن ما يرونه على المشركين من كبراء قريش من آثار النعمة والثروة إنما هو ابتلاء من الله له عواقبه، وله نتائجه، وسنته أن يبتلي بالنعمة، كما يبتلي بالبأساء سواء، فأما المتبطرون المانعون للخير المخدوعون بما هم فيه من نعيم، فذلك كان مثلاً لعاقبتهم ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . وأما المتقون الحذرون فلهم عند ربهم جنات النعيم) <sup>(١)</sup> .

فالله سبحانه وتعالى يخبر عن الإنسان، وما جبل عليه فيقول تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۚ إِلَّا الْمَصْلِينَ ۚ﴾ <sup>(٢٢)</sup> الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ <sup>(٢٣)</sup> وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ <sup>(٢٤)</sup> لِلنَّسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ <sup>(٢٥)</sup> ﴿٢٦﴾ <sup>(٢)</sup> .

فالمال مال الله وهو الذي رزقه الإنسان وتفضل به عليه، قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ ۚ﴾ <sup>(٥٦)</sup> مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ <sup>(٥٨)</sup> ﴿٥٩﴾ <sup>(٣)</sup> .

(١) في ظلال القرآن : ج ٦ ، ص ٣٦٦٦ .

(٢) سورة الذاريات : آية (٥٦-٥٨) .

(٣) سورة الذاريات : آية (٥٦-٥٨) .

فكيف يبخل العبد بذلك الرزق عن إخوانه المعوزين؟! الله سبحانه قادر على أن يجعل كل عباده أغنياء ولكن هذا لحكمة إلهية ليرى تعالى الطائع فيجازيه بالجزاء الحسن، ويرى العاصي الجاحد البخيل فيعاقبه في الدنيا، ويجزيه بالعذاب في الآخرة على ظلمه ونكرانه لما قد أسدى عليه من النعم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ يَبْخُلْ وَأَسْتَغْنَىٰ ۖ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَىٰ ۖ (٩) فَسَنِيَرُهُ لِّلْعُسْرَىٰ ۖ (١٠)﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۖ هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ بِمَا هُوَ شَرُّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ ۖ يَوْمَ الثَّغَمَةِ ۚ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۖ (١٨٠)﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ ۖ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّادِقِينَ ۖ (٧٥) فَلَمَّا ءَاتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۖ بَخُلُوا بِهِ ۖ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ۖ (٣)﴾

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ ۖ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ۖ (٣٦) إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِفْكُمْ يَبْخُلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ۖ (٣٧) هَٰذَا نَسُوءُ هَتُولَاءٍ ۖ تَدْعُونَ لِنُفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ ۖ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ۖ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ۖ (٤)﴾

(١) سورة الليل : آية (٨-١٠) .

(٢) سورة آل عمران : آية (١٨٠) .

(٣) سورة التوبة (٧٥-٧٦) .

(٤) سورة محمد : آية (٣٦-٣٨) .

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١).

هذه الآيات الخمس فيها تذكرة لأصحاب الأموال الذين أعطاهم الله من فضله، بأن ينفقوا منها في سبيل الله وأن لا يجمعوا الأموال ويمنعوا أصحاب الحقوق حقوقهم فيطوقون ما بخلوا به، وفيه تقويم لمن قد أمسك الشيطان على أيديهم أن ينقذوا أنفسهم بالبذل في الوجوه المستحقة، وأن يحذروا مما قد أصاب من قد بخل بهال الله وقصّ علينا خبرهم، فالله يميل للظالم، وإذا أخذه، أخذه أخذ عزيز مقتدر .

---

(١) سورة الحديد : آية (٢٤) .

المبحث الثاني

زوال الملك



## المبحث الثاني

### زوال الملك

إن أي أمر في الدنيا لم يكن بناؤه على أساس قويم من تقوى الله تعالى والالتزام بدينه وتوحيده وتحكيم شرعه وعدم الكفر به تكون عاقبته ومآله إلى الزوال والدمار مهما بلغ شأنه وعلا سلطانه، وهذا يظهر لنا في قصة ملكة سبأ وما كانت فيه من ملك عظيم ومكانة وسلطان وقوة وعزة ولكنها كانت تعبد غير الله تعالى هي وقومها فبسبب هذه الكبيرة والتي هي الشرك بالله تعالى وعبادة غيره وهي عبادتهم للشمس من دون الله تعالى زال الملك، والله تعالى يقص علينا ذلك في كتابه العزيز حيث يقول تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام : ﴿وَنَقَّذَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ۚ﴾ (٢٠) ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَنٍ مُبِينٍ ۚ﴾ (٢١) ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ۚ﴾ (٢٢) ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۚ﴾ (٢٣) ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۚ﴾ (٢٤) ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ﴾ (٢٥) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۚ﴾ (٢٦) ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۚ﴾ (٢٧) ﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ۚ﴾ (٢٨) ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنَّ إِلَيْنَا كُنُوزَكُمُ ۖ إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ ۚ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۚ﴾ (٢٩) ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأَنُؤِنِّي مُسْلِمِينَ ۚ﴾ (٣٠) ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ۚ﴾ (٣١)

﴿٣٣﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَاجَ أَهْلِهَا آذِلَةً ۚ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَاءَ اثْنَيْنِ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا عَاتَبَكُمْ بَلْ أَتَتْكُمْ بِهِدْيَتُكُمْ فَفَرَحُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَبَتَّأِيهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عَفَرْتُ مَنِ الْجِنِّ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ ۚ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ ۚ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۚ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۖ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ۖ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴿١﴾

إن هذه الآيات فيها البيان الوافي حيث قصّ علينا المولى عز وجل قصة هذه المرأة وما هي فيه من العزة والسلطان والملك العظيم والجنود والحرس، ولكن بسبب الكفر بالله تعالى وعبادة غيره جل وعلا رأينا ما حل بها من زوال ملكها.

قال ابن جرير عند قوله تعالى : (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) يقول : (وجدت هذه المرأة ملكة سبأ ، يسجدون للشمس فيعبدونها من

(١) سورة النمل : آية (٢٠-٤٤) .

دون الله. وقوله : (وزين لهم الشيطان أعهما لهم) يقول : وحسن لهم إبليس عبادتهم الشمس، وسجودهم لها من دون الله، وحبب ذلك إليهم ، (فصدّهم عن السبيل) يقول : فمنعهم بتزيينه ذلك لهم ألا يتبعوا الطريق المستقيم وهو دين الله الذي بعث به أنبياءه، ومعناه: فصدّهم عن سبيل الحق (فهم لا يهتدون) يقول: فهم لما قد زين لهم الشيطان ما زين من السجود للشمس من دون الله والكفر به لا يهتدون السبيل الحق ولا يسلكونه ، ولكنهم في ضلالهم الذي هم فيه يترددون<sup>(١)</sup> اهـ.

إن المعاصي مهما كانت فهي ظلم، إذا وقع فيها العبد لابد أن تظهر آثارها عليه وقد ظهر لنا مما ذكرناه آثار الظلم وعواقبه فليكن في ذلك عبرة لأولي الألباب، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن : ج ١٩ ص ١٤٩ .

(٢) سورة الأنعام : آية (٨٢) .

المبحث الثالث

ندم الظلم

## المبحث الثالث

### ندم الظالم

قال الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ (١) .

قال محمد أمين الشنقيطي رحمه الله تعالى : (من المشهور عند علماء التفسير أن الظالم الذي نزلت فيه هذه الآية هو عقبة بن أبي معيط، وأن فلاناً الذي أضله عن الذكر أمية بن خلف، أو أخوه أبي بن خلف، وذكر بعضهم أن في قراءة بعض الصحابة ليتني لم ألتزم أبيتاً خليلاً، وهو على تقدير ثبوته من قبيل التفسير، لا القراءة، وعلى كل حال فالعبرة بعموم الألفاظ، لا بخصوص الأسباب، فكل ظالم أطاع خليله في الكفر حتى مات على ذلك يجري له مثل ما جرى لأبي معيط. وما ذكره جل و علا في هذه الآيات الكريمة جاء موضحاً في غيرها فقلوه : (ويوم يعض الظالم على يديه) كناية عن شدة الندم والحسرة لأن النادم نداماً شديداً يعض على يديه، وندم الكافر يوم القيامة وحسرتة الذي دلت عليه هذه الآية، جاء موضحاً في آيات أخر، كقلوه تعالى في سور يونس: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢) ، وقوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا

(١) سورة الفرقان: آية (٢٧) .

(٢) سورة يونس: آية (٥٤) .

الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿١﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿قَالُوا  
يَحْشَرُنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ ﴿٢﴾ الآية ، والحسرة : أشد الندامة ، وقوله : ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ  
اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ ﴿٣﴾ إلى غير ذلك من الآيات ،  
وما ذكره هنا من أن الكافر يتمنى أن يكون آمن بالرسول في الدنيا ، واتخذ معه  
سبيلاً : أي طريقاً إلى الجنة . في قوله هنا : (يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً) جاء  
موضحاً في آيات أخرى كقوله تعالى : ﴿يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ﴿٤﴾ ،  
وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ  
﴿٦٦﴾﴾ ﴿٥﴾ ، وقوله تعالى : ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدِمْتُ لِحَيَاتِي﴾ ﴿٦﴾ ، إلى غير ذلك من الآيات  
(٧) اهـ .

ما ذكره المولى عز وجل عن سوء حال الظالمين والصفة التي يكونون عليها  
من عضّهم على أيديهم لما قد فات عليهم من إعراضهم عن الإيمان برّبهم وما قد  
جاءت به رسلهم وطرحهم ذلك وراءهم ظهرياً ، وهذا عندما رأوا العذاب ، ورأوا

(١) سورة سبأ : آية (٣٣) .

(٢) سورة الأنعام : آية (٣١) .

(٣) سورة البقرة : آية (١٦٧) .

(٤) سورة الفرقان (٢٧) .

(٥) سورة الفجر : آية (٢٤) .

(٦) سورة الأحزاب : آية (٦٦) .

(٧) أضواء البيان ج ٦ ، ص ٣١٣-٣١٤ طبعة الأمير أحمد بن عبدالعزيز .

أنه لا محيد لهم عن ذلك، بل رأوا مقرهم ورأوا مقر عباد الله المؤمنين الذين التزموا بطاعته واجتنبوا نواهيه، فهم في ذلك الموقف يتمنون أنهم سلكوا الطريق الذي أمرهم به رسلهم وهو الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

## الفصل الثاني

### أثر الظلم على المجتمع

وفيه مباحث :

المبحث الأول: أثر الظلم في عموم العقوبة

المبحث الثاني : جور الرعاة وأثره في فساد الرعية

المبحث الثالث : أثر الظلم في نكسة المسلمين وتسلط الكافرين



## المبحث الأول

أثر الظلم في عموم العقوبة

### المبحث الثالث

## أثر الظلم في عموم العقوبة

### ١- عقاب الظلمة في الدنيا

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١).

يقول السعدي: (يخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية، بظلمهم وكفرهم، بعد ما جاءتهم البينات، على أيدي الرسل، وتبين الحق، فلم ينقادوا لها ولم يؤمنوا، فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم، مجترئ على محارم الله، وهذه سته في جميع الأمم) (٢).

هذه عقوبة دنيوية قد حلت بالأمم السالفة الذين كذبوا رسلهم وكفروا برهبهم فالجزاء لهم من جنس عملهم فأهلكوا وأبیدوا على ما كان منهم من الإعراض وعدم الاستجابة لداعي الله .

وقال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (٣).

وتبدلهم القول هو بدل حطة حبة في حنطة استهانة بأمر الله واستهزاء فأنزل عليهم عذاباً بسبب فسقهم وبغيهم .

(١) سورة يونس: آية (١٣) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : ج ٣، ص ٣٣٣ .

(٣) سورة البقرة : آية (٥٩) .

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا دُسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (١). مبلسون: آيسون من كل خير.

وقال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ (٢). والعذاب البئيس: الشديد. والمراد بهم في هذه الآية الذين اعتدوا من بني إسرائيل في السبت.

وقال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (٣)، يعني حامدين لا حراك لهم.

وقال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثَمِينَ ﴿٤﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَفُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (٦).

وقال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ (٧).

(١) سورة الأنعام: آية (٤٤-٤٥).

(٢) سورة الأعراف: آية (١٦٥).

(٣) سورة هود: آية (٦٧).

(٤) سورة هود: آية (٩٤).

(٥) سورة الكهف: آية (٥٩).

(٦) سورة المؤمنین: آية (٢٧).

(٧) سورة النمل: آية (٥٢).

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرًا مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرِئُ الْمُعْتَظِلَةَ وَقَصَّرَ مَشِيدِ﴾ (٣).

فكم من قرية أهلكها الله تعالى بسبب كفرها وتكذيبها لرسول الله فأصبح أهلها أثراً بعد عين، وديارهم قد تساقطت قصورها، ومواردهم من الآبار التي كان يزدحم عليها الناس أصبحت خالية من الناس، وكذا القصور المشيدة والتي قد تعب عليها أهلها وزخرفت وزينت أصبحت خالية من أهلها الذين أهلكهم الله بسبب ظلمهم، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ (٥).

(١) سورة النساء: آية (١٥٣).

(٢) سورة الأنبياء: آية (١١).

(٣) سورة الحج: آية (٤٥).

(٤) سورة الحج: آية (٤٨).

(٥) سورة الأنعام: آية (٤٧).

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ (١).

قال السعدي : (وهذه القرية هي : مكة المشرفة ، التي كانت آمنة مطمئنة ، لا يهاج فيها أحد ، وتحترمها الجاهلية الجهلاء حتى أن أحدهم يجد فيها قاتل أبيه وأخيه ، فلا يهيجه مع شدة الحمية والنصرة العربية فحصل له في مكة من الأمن التام ما لم يحصل في سواها وكذلك الرزق الواسع . كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر ولكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان فجاءهم رسول منهم ، يعرفون أمانته وصدقه ، يدعوهم إلى أكمل الأمور وينهاهم عن الأمور السيئة ، فكذبوه ، وكفروا بنعمة الله عليهم ، فأذاقهم الله ضد ما كانوا فيه ، وألبسهم لباس الجوع ، الذي هو ضد الرغد ، والخوف الذي هو ضد الأمن ، وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم وعدم شركهم : ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ (٤) .

(١) سورة النحل : آية (١١٢-١١٣) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : ج ٤ ، ص ٢٤٨ .

(٣) سورة القصص : آية (٥٩) .

(٤) سورة العنكبوت : آية (١٤) .

الطوفان: الماء الذي نزل من السماء ونبع من الأرض .

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ ۖ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُرَابًا مَبْعَدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٣).

قال المفسرون: (قيل إنهم عاد قوم هود. وقيل المراد بهم قوم صالح أهلكهم الله بالصيحة لقاء تكذيبهم لرسولهم وعدم إيمانهم بالله تعالى .

وقال تعالى: ﴿وَقَفَرُوا وَفِرْعَوْنُ وَهَامَنْ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ (٣٩) ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ ۖ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤٠) (٤).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ

(١) سورة الأعراف: آية (٤-٥) .

(٢) سورة الأنفال: آية (٥٤) .

(٣) سورة المؤمنین: آية (٤١) .

(٤) سورة العنكبوت: آية (٣٩-٤٠) .

﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكْبَرَهُ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ  
﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ  
الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ  
الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانَوْا ظَالِمِينَ﴾ (٣١) (٢).

بعد أن استعرضنا بعض الآيات التي بين لنا فيها المولى عز وجل ما حل  
بالظلمة من هلاك ودمار في الدنيا بسبب ظلمهم، سنستعرض بعض الآيات التي  
ذكرها الله تعالى في عذابهم في الآخرة .

---

(١) سورة القصص : آية (٣٨-٤٠) .

(٢) سورة العنكبوت : آية (٣١) .

## ٢- عقاب الظلمة في الآخرة

قال الله تعالى : ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ تُنَلَّىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ (١).

قال سيد قطب : (ومشهد لفح النار للوجوه حتى تكلح، وتشوه هيئتها ويكدر لونها... مشهد مؤذ أليم، وهؤلاء الذين خفت موازينهم خسروا كل شيء.. فقد خسروا أنفسهم . وحين يخسر الإنسان نفسه فماذا يملك إذن؟ وما الذي يتبقى له . وقد خسّر - نفسه التي بين جنبيه، وخسر - ذاته الذي تميزه، فكأنما لم يكن له وجود. وهنا يعدل عن أسلوب الحكاية إلى أسلوب الخطاب والمواجهة، فإذا العذاب الحسى على فظاعته أهون من التأنيب والحزى الذي يصاحبه. وكأننا نحن نراه اللحظة ونشاهده في حوار ممض طويل ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ تُنَلَّىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ ، وكأننا نجلى إليهم وقد سمعوا هذا السؤال أنهم مأذونون في الكلام ، مسموح لهم بالرجاء. وأن الاعتراف بالذنب قد يجري في قبول الرجاء: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ . وهو اعتراف تتجلى فيه المرارة والشقوة... ولكن كأنما هم قد تجاوزوا حدّهم وأساءوا أدهم، فلم يكن مأذوناً لهم في غير الإجابة على قدر

(١) سورة المؤمنين : آية (١٠٢-١٠٧) .



السؤال. بل لعله كان سؤالاً للتبكي لا يطلب عليه منهم جواب. فهم يزجرون زجراً عنيفاً قاسياً: ﴿أَخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونِ﴾ (١٠٨) هـ.

الله عز وجل يبين حال الفريقين من عباده ومآل كل فريق، فالذين امتثلوا لأمره واجتنبوا نهيه وعملوا صالحاً لهم الفلاح والنجاح في الآخرة وذلك بإدخالهم الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

والفريق الثاني الذين كذبوا رسل الله ولم يؤمنوا برهيم وبما جاءت به رسلهم حتى انتقلوا من هذه الحياة الدنيا وهم على ظلمهم خرجوا بلا عمل صالح فأصبحت موازينهم قد خفت من عدم وجود الأعمال الصالحة فأصبح مصيرهم نار جهنم لا يخفف عنهم وهم فيها خالدون، ولا يسمع لهم قول ولا يجابون إلا ﴿أَخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونِ﴾ (١٠٨) هـ.

قال تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٣).

(١) في ظلال القرآن: ج ٤، ص ٢٤٨١.

(٢) سورة الكهف: آية (٧). سورة النساء: آية (١٦٨-١٦٩).

(٣) سورة يونس: آية (٥٢).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (٨٥) (١).

وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (٢٢٧) (٢).

وقال تعالى: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٢) من دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَفُؤَهُمْ إِنَّمَا مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ

سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾ (٥).

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٦).

ذنوباً: أي نصيباً. وأصحابهم: أي من الظلمة.

(١) سورة النحل: آية (٨٥).

(٢) سورة الشعراء: آية (٢٢٧).

(٣) سورة سبأ: آية (٤٢).

(٤) سورة الصافات: آية (٢٢-٢٤).

(٥) سورة الزمر: آية (٤٧-٥١).

(٦) سورة الزخرف: آية (٦٥).

وقال تعالى : ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَافِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (١).

ومن يرد فيه : أي في المسجد الحرام .

وقال تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٢٩ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠﴾ (٢).

وقال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝٣١﴾ (٣).

وقال تعالى : ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَىٰ الظَّالِمِينَ ۝١٥١﴾ (٤).

وقال تعالى : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۝١٩٢﴾ (٥).

(١) سورة الذاريات : آية (٥٩) .

(٢) سورة الحج : آية (٢٥) .

(٣) سورة النساء : آية (٣٠) .

(٤) سورة آل عمران : آية (١٥١) .

(٥) سورة آل عمران : آية (١٩٢) .

وقال تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٧٢) (٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (٤٠) ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤) (٤).

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٩) (٥).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي

(١) سورة طه: آية (١١١).

(٢) سورة المائدة: آية (٧٢).

(٣) سورة الأعراف: آية (٤٠-٤١).

(٤) سورة الأعراف: آية (٤٤).

(٥) سورة التوبة: آية (١٠٩).

وَلَوْ مَوَّأَ أَنْفُسَكُمْ ۖ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتَ بِمُصْرِخِي ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكَتُمُونَ مِنْ قَبْلُ ۚ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ نَحْنُ الَّذِينَ أَلَّيْنَا أَنْتَقُوا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَا ۖ ﴿٧٢﴾ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ ۖ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنْذَرُهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ مَالٍ لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾ (٥) .

الأزفة : يوم القيامة . وكاظمين : لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن .

وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٦) .

(١) سورة إبراهيم : آية (٢٢) .

(٢) سورة الكهف : آية (٢٩) .

(٣) سورة مريم : آية (٢٧) .

(٤) سورة الأنبياء : آية (٢٩) .

(٥) سورة غافر : آية (١٨) .

(٦) سورة غافر : آية (٥٢) .

وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١).

أي : لولا الأجل أي الإنظار إلى يوم المعاد لقضي بينهم في الوقت الحاضر ولكن جزاءهم على ظلمهم يوم القيامة موجه وشديد في جهنم وبئس المصير .

وقال تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَقَعُ بِهِمْ﴾ (٢).

أي : يرون أنفسهم بالكفر والمعاصي خائفين أن يعاقبوا على ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ (٤).

هذا بيان للناس يذكره رب العزة لعباده تحذيراً لهم من الظلم وعواقبه ومآل الظالمين الذين خسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة .

﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٥).

(١) سورة الشورى : آية (٢١) .

(٢) سورة الشورى : آية (٢٢) .

(٣) سورة الشورى : آية (٤٤) .

(٤) سورة الشورى : آية (٤٥) .

(٥) سورة الأنعام : آية (٤٧) .

فبيّن تعالى كيف حلّت العقوبة الدنيوية بالذين ارتكبوا محارمه وخالفوا أمره  
وآذوا رسله وطغوا وبغوا وتكبروا وتجبروا وكيف يكون عذابهم في الآخرة، وفي  
الآيات التي ذكرنا ما يجعل للعباد عبرة بمن سلف وما حلّ بهم من عقاب الله  
تعالى وما سيحلّ بهم بعد الموت من العذاب الشديد الموجه في جهنم وبئس  
المصير.

وسنبين إن شاء الله تعالى في المباحث القادمة أمثلة في عقاب الأمم السالفة  
الظالمة وكيفية إهلاكها وأسبابه .

### ٣- نماذج من هلاك الأمم بظلمهم

إن من عدل الله عز وجل أنه لم يترك أمة من الأمم إلا وبعث فيها نذيراً منهم يبين لهم ما فيه صلاحهم وفلاحهم في دنياهم وآخرتهم فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (١). ولئلا يكون هناك حجة للناس فقد أرسل الله الرسل ، فقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (٢).

فهؤلاء الرسل إنما أرسلهم الله تعالى لبيان الحق من الباطل والرشد من الغي ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ أَهْمُ الطَّاغُوتِ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥٧) (٣).

فمن زاغ عن هدي الله الذي أرسل به رسله فقد باء بغضب الله واستحق عذابه. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٥) (٤).

والله تعالى يقص علينا في محكم التنزيل ما جرى للأولين من الهلاك والدمار لقاء ظلمهم وكفرهم بالله تعالى .

(١) سورة النحل: آية (٦) .

(٢) سورة النساء: آية (١٦٥) .

(٣) سورة البقرة: آية (٢٥٦-٢٥٧) .

(٤) سورة الصف: آية (٥) .



## أ - قوم نوح عليه السلام

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَفُرُوا بَادِيَ الْبَاطِلِ وَمَا نَرَىٰ لَكَ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكَ كَاذِبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (١) .

لقد أرسل الله تعالى نوحاً عليه لا سلام إلى قومه يدعوهم إلى توحيد الله تعالى وأن لا يعبدوا غيره ويخوفهم عذاب الله الشديد الموجه، ولكن قومه عصوه وخالفوه فيما يدعوهم إليه وكذبوه، واعتبروا في نظرهم أن من اتبعه وآمن به أنهم من أسافل الناس مع أن ما تصوره بضد ذلك، ولكنه عليه السلام لم يزل في دعوتهم والصبر على أذاهم وهم في غيهم يعمهون، ولأشرافهم أصحاب الدنيا ذووا الأموال والأولاد يتبعون، ولا لكلمة الحق يسمعون.

قال تعالى : ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي هُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢٦﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٧﴾ وَقَالُوا لَا نَدْرَأُ الْهَتَكَ وَلَا نَذَرُ وَدَا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (٢) .

(١) سورة هود : آية (٢٥-٢٧) .

(٢) سورة نوح : آية (٢١-٢٣) .

عاندوا وكابروا واتبعوا الملاء من الأشراف الذين آثروا المال والولد ولم يزدهم ذلك إلا هلاكاً ، ورغم دعوة استمرت ألف سنة إلا خمسين عاماً ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً فلم يستجيبوا ، فكانت الخاتمة أن هلكهم الله بالطوفان كما سيأتي .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَتَّبِعِ الْبَاطِلَ كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣٦) وَأَصْنَعُ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَعَلْنَا مَكْرَهُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَتَّزِئْ أَرْضِ أَبْلَغِي مَاءَ لِي وَيَسْمَأْ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴿١﴾ .

لما حقَّ القول على قوم نوح عليه السلام وأظلمهم أمر الله أوحى إليه بأنه لن يوحد الله ويتبعك على ما تدعوا إليه إلا من قد آمن، فطمأن تعالى نبيه بأنه

(١) سورة هود : آية (٣٦-٤٤) .

مهلك الكفرة منهم ومنقذ نبيه ومن اتبعه، وهذا بعد ما دعا عليهم بالهلاك كما ذكر تعالى ذلك عنه ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ (١). وبعد دعوة استمرت ألف سنة إلا خمسين عاماً كما أخبر تعالى عن ذلك فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ (٢).

وبعد أن لاقى منهم أشد الإيذاء كما أخبر تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴿١٠﴾ (٣).

أمره تعالى أن يصنع سفينة بوحى منه تعالى، وكلما مرّ عليه جماعة من كبراء قومه سخرها منه، ويقولون له: أتحوّلت نجاراً بعد النبوة وتعمل السفينة في البر، فيرد عليهم عليه السلام إن تهزءوا منّا اليوم فإنّا نهزأ منكم في الآخرة كما تهزؤون منّا نهزأ منكم في الآخرة كما تهزؤون منّا في الدنيا وسوف تعلمون إذا عايتم عذاب الله، من الذين كان إلى نفسه مسيئاً منّا.

وقد وعد الله نبيه نوحاً بأنه إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة التي لا تقلع ولا تفتت وفار التنور وهو الذي يخبز فيه بأن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين من صنوف المخلوقات وأهل بيته وقرايته إلا من سبق عليه القول ممن لا

(١) سورة نوح: آية (٢٦-٢٧).

(٢) سورة العنكبوت: آية (١٤).

(٣) سورة القمر: آية (٩-١٠).

يؤمن بالله فكان منهم ابنه <sup>(١)</sup> الذي انزل وحده، وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله. وأمر الله رسوله نوحاً عليه السلام بأن لا يخاطبه في أحد عند معاينة العذاب وأن لا تأخذه رافة بقومه وشفقة عليهم وطمعاً في تأخيرهم لعلهم يؤمنون فإنه سبحانه قد قضى أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان.

واختلف في عدد من ركب السفينة :

قال ابن جرير : (والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله (وما آمن معه إلا قليل) يصفهم بأنهم كانوا قليلاً، ولم يحدد عددهم بمقدار ولا خبر عن رسول الله ﷺ صحيح ، فلا ينبغي أن يتجاوز في ذلك حد الله، إذ لم يكن لمبلغ عدد ذلك حد من كتاب الله، أو أثر عن رسول الله ﷺ) <sup>(٢)</sup> .

ثم قال نوح عليه السلام لمن أمر بحملهم في السفينة : ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَيْنَهَا وَمُرسِنَهَا﴾ أي : بسم الله يكون جريها على وجه الماء، وبسم الله يكون سيرها ورسوها، فأخذ الماء يعلو الأرض ويرتفع والسفينة سائرة بهم على وجه الماء الذي طبق جميع الأرض حتى طفت على رؤوس الجبال وهي سائرة بإذن الله وتحت كنفه وعنايته وحراسته وامتنانه، وقد نادى ابنه أن يركب معهم في السفينة ولكن اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال حيث قال : ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ

(١) هذا هو الابن الرابع واسمه يام وكان كافراً دعاه أبوه أن يؤمن ويركب معهم فرفض. تفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٤٤٦ .

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ج ١٢، ص ٤٠٣ طبعة الحلبي مصر ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.

يَعِصْمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴿١﴾ ، فقال له أبوه عليه السلام : ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مِنْ رَحْمَةٍ﴾ ، فلحق به الماء فأغرقه ولحق بالظلمة من جنسه الذين خرجوا على نبيهم وكفروا بربهم حتى أراهم الله تعالى العذاب وأبعدهم من رحمته فهلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية وباؤوا بالهلاك والخسران أعادنا الله من ذلك .

وبعد ذلك أمر الله السماء أن تقلع عن المطر والأرض أن تبلع الماء، ثم رست السفينة ونزل نوح ومن معه بعد أن طهرت الأرض من الكفرة) (١).

قال ابن كثير : (أقرب والله اعلم ما ورد من أقوال في عمر نوح عليه السلام هو ما ذكره ابن عباس قال: بعث نوح وهو لأربعين سنة ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وعاش بعد الطوفان ستين عاماً حتى كثر الناس وفشوا) (٢).

الله سبحانه وتعالى عندما يوجد أسباب الرزق لعباده ويبين الحق من الضلال بواسطة إرسال رسل من هؤلاء الأقوام من بني جلدتهم وينطقون بلسانهم هو من أجل أن لا يكون هناك ظلم في هذه الحياة الدنيا، وأن يسود الإخاء بين الأفراد وأن يعبد سبحانه حق عبادته ولكن إذا ظهر من العباد ما يناقض هذا فإن الله سبحانه للظالمين بالمرصاد فهو يوقع عذابه المتنوع بهم، وينصر- رسله والذين آمنوا معهم من اعتداءاتهم ويطهر الأرض منهم ويجعل العزة له سبحانه ولرسوله وللمؤمنين ويذل أعداءه بل يهلكهم ويعد لهم العذاب الشديد الموجه،

(١) تفسير هذه الآيات بشكل إجمالي كان بتصرف من تفسير ابن جرير وابن تكيير .

(٢) تفسير القرآن العظيم : سورة العنكبوت: آية (١٤) ج ٣، ص ٤٠٧ .

فهذا جزاء الظلمة الذين دعاهم رسولهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ليلاً ونهاراً  
وسراً وجهاراً ولم يزدهم ذلك إلا فراراً عن توحيد الله تعالى وإعراضهم  
وتكذيبهم، حتى أهلكهم الله تعالى: ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ (٣٦) (١).

قال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنْ  
اعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتَقُوا وَاطِيعُونَ (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَذِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا  
جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا  
(٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِيْءَ آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا  
وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩)﴾ (٢)  
الآيات .

(١) سورة النبا: آية (٢٦) .

(٢) سورة نوح: آية (٢-٩) .

## ب - فرعون وجنوده

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنْ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٣٨) وَأَسْتَكَبرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَهًا لَا يُرْجَعُونَ ﴿ ٣٩ ﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاُنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿ ٤٠ ﴾ (١).

لقد تنكر فرعون وتعالى وتعاضم وحتى آل به الأمر إلى ادعاء الألوهية : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ وتبعه من تبعه . والآيات تبين أسباب هلاكهم والظلم الذي ارتكبه .

قال تعالى : ﴿ كَذَّابٍ ءَالَ فِرْعَوْنُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَاثِبٍ ظَالِمٍ ﴾ (٥٤) (٢).

يقول السعدي : في معنى الآيات : ( " وقال فرعون " متجرباً على ربه ومموهاً على قومه ضعفاء العقول : ﴿ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ أي : أنا وحدي إلهكم ومعبودكم . ولو كان ثم إله غيري ، لعلمته . فانظر إلى هذا الورع التام من فرعون ، حيث لم يقل : ( مالكم من إله غيري ) . وهذا لأنه عندهم العالم الفاضل الذي مهما قال ، فهو الحق ، ومهما أمر أطاعوه ، فلما قال هذه المقالة التي قد

(١) سورة القصص : آية (٣٨-٤٠) .

(٢) سورة الأنفال : آية (٥٤) .

تحتمل أن ثم إليها غيره، أراد أن يحقق النفي الذي جعل فيه ذلك الاحتمال فقال لـ "هامان": ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنَّ عَلَى الطِّينِ﴾ ليجعل له لبناً من فخار: ﴿فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ أي: بناءً عالياً ﴿لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٣٨). ولكن سنحقق هذا الظن ونريكم كذب موسى. فانظر هذه الجرأة العظيمة، على الله، التي ما بلغها آدمي، كذب موسى، وادعى أنه الله، ونفى أن يكون له علم بالإله الحق، وفعل الأسباب، ليتوصل إلى إله موسى، وكل هذا ترويج. ولكن العجب من هؤلاء الملاء، الذي يزعمون أنهم كبار المملكة المدبرون لشئونها، كيف لعب هذا الرجل بعقولهم، واستخف أحلامهم، وهذا لفسقهم الذي صار صفة راسخة فيهم.

قال تعالى: ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ استكبروا على عباد الله، وساموهم سوء العذاب، واستكبروا على رسل الله، وما جاؤهم من الآيات، فكذبوها، وزعموا أن ما هم عليه أعلى منها وأفضل ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَهَنَالَا يُرْجَعُونَ﴾ (٣٩). فلذلك تجرؤوا، وإلا فلو علموا، وظنوا أنهم يرجعون إلى الله، لما كان منهم ما كان.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ عندما استمر عنادهم وبغيهم ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ فانظر كيف كانت عقبة الظالمين: كانت شر العواقب وأخسرها عاقبة، أعقبتها العقوبة الدنيوية المستمرة المتصلة بالعقوبة الأخروية (١) اهـ.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ج ٦ ص ٢٤-٢٦.



ما كان الله ليعذب قوماً وهم على نهج المنعم عليهم - صراط الله المستقيم - بل ذلك يحل بمن نهج طريق المغضوب عليهم والضالين. قال تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (١).

فالله يبين لنا ما كان من الظلمة من مخالفات استحقوا عليها عذابه تعالى فهو يفضحهم بفعلهم القبيح . وبين نوعية عذابهم في الدنيا وما أعد لهم في الآخرة ليكون لغيرهم رادعاً وزاجراً ، ففي الآيات الثلاث نرى ما فعل الله بفرعون وقومه عندما علا في الأرض وتعاضم وادعى لنفسه ما ادعى ، وظنّ وقومه أنهم خالدون في دنياهم وأن ليس لهم ثمّة رجعة إلى الله وحساب وجزاء حتى أراهم إحاطة العذاب بهم وهو الغرق في البحر ثم أهلكهم وهم الآن في عذاب الله حتى يوم القيامة يدخلون أشد العذاب كما أخبر عنهم المولى عز وجل: ﴿التَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (٢).

وقال تعالى : إخباراً عن فرعون : ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ (٣١) ثُمَّ أَذْبَرَ سَعْيَ (٣٢) فَحَشَرَ فَنَادَى (٣٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٣٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٣٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى (٣٦) ﴿ (٣).

(١) سورة الرعد : آية (١١) .

(٢) سورة غافر : آية (٤٦) .

(٣) سورة النازعات : آية (٢١-٢٦) .

وقال تعالى : **خَبْرًا عَنْ مَالِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ**  
**وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾** (١) .

بئس الرفد المرفود: أي ما اجتمع لهم وترادف عليهم من عذاب الله ولعنة الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة هود: آية (٩٨-٩٩) .

### ج - قوم لوط عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٨) ﴿ إِنِّي كُنتُمْ لَتَأْتُونَ الرَّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢٩) ﴿ (١) .

قال ابن كثير : (يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال في إتيانهم الذكران من العالمين ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم وكانوا مع هذا يكفرون بالله ويكذبون رسوله ويخالفون ويقطعون السبيل أي يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم (وتأتون في ناديكم المنكر) أي : يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك فمن قائل كانوا يتضارطون ويتضاحكون قائلته عائشة والقاسم، ومن قائل كانوا يناطحون بين الكباش ويناقدون بين الديوك، وكل ذلك كان يصدر عنهم وكانوا شراً من ذلك) (٢) .

بهذه الأفعال القبيحة التي ارتكبها القوم من الكفر بالله تعالى والركون إلى هذه الدنيا ، والتي قد تنأى عن عملها الحيوانات العجماء، وعدم سماع ما يخاطبهم

(١) سورة العنكبوت: آية (٢٨-٢٩) .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ج ٣، ص ٤١١ .

به نبيهم لوط عليه السلام وبيانه لهم الحق من الضلال، ومع هذا لم تكن إجابتهم إلا الاستهزاء والسخرية ﴿أَتُتَنَاجَىٰ عَذَابَ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ (٢٩) .

وقال تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) ﴿ (١)

وقال تعالى : ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحْشَاءَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿ (٢) بعد أن رأينا سوء صنيعهم سنرى ما حلّ بهم من عذاب الله تعالى الدنيوي جزاء على جرمهم وفسادهم .

قال الله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٣٠) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانَوْا ظَالِمِينَ ﴿ (٣)

تبين لنا في الآيات السابقة جرم قوم لوط عليه السلام وبعد أن ازداد فسادهم وعدم استجابتهم لرسولهم قال عليه السلام ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ

(١) سورة الشعراء : آية (١٦٠-١٦٦) .

(٢) سورة الأعراف : آية (٨٠-٨١) .

(٣) سورة العنكبوت : آية (٣٠-٣١) .

الْمُفْسِدِينَ ﴿١﴾ فاستجاب الله دعوته فأرسل ملائكة العذاب فمروا على إبراهيم عليه السلام، وبشروه بولد صالح من امرأته سارة وهو إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب <sup>(١)</sup>، ثم أخبروه أنهم رسل الله أرسلهم لإهلاك قوم لوط، إلا لوطاً وأهله فإنهم منجون من عذاب الله ما عدا امرأته فإنه مصيبتها ما أصاب القوم المجرمين، فلما وصل رسل الله إلى لوط عليه السلام أقبل إليه قومه مسرعين يريدون أن يعملوا الفاحشة بأضيافه، فأخذ في محاولة ردهم عن أضيافه حتى عجز، فأخبره الملائكة أنهم رسل الله وأنهم لن يصلوا إليهم.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۖ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقُومُ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ۖ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ۖ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ۖ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلَوْا إِلَيْكَ فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبَهُمَا أَصَابَهُمْ ۖ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا ۖ مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ ۖ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ۖ ﴿٨٣﴾﴾ <sup>(٢)</sup>.

(١) تفسير القرآن العظيم: ج ٣، ص ٤١٢، ج ٤، ص ٢٣٦.

(٢) سورة هود: آية (٧٧-٨٣).

سيء بهم : أي ساءهم مجيئهم، وضاق بهم ذرعاً: أي ضاق صدره بمجيئهم لما رأى من جلالهم ولما يعلم من قبح عمل قومه. حجارة من سجيل: أي من حجارة النار الشديدة الحرارة متتابعة عليهم.

مسومة : أي معلمة عليها علامة العذاب .

قال الشوكاني :

( " فلما جاء أمرنا " أي : الوقت المضروب لوقوع العذاب فيه، أو المراد بالأمر نفس العذاب (جعلنا عاليها سافلها) أي : عالي قوم لوط سافلها، والمعنى : أنه قلبها على هذه الهيئة وهي كون عاليها صار سافلها وسافلها صار عاليها، وذلك لأن جبريل أدخل جناحه تحتها فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء ثم قلبها عليهم )<sup>(١)</sup>.

وبعد أن قلبها بالصفة التي ذكر تعالى أرسل عليهم حجارة النار الشديدة الحرارة متتابعة عليهم جزاء وفاقاً .

وقال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾<sup>(٨٣)</sup> وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾<sup>(٨٤)</sup> <sup>(٢)</sup>.

---

(١) فتح القدير : ج ٢ ص ٥١٥ .

(٢) سورة الأعراف : آية (٨٣-٨٤) .

(إلا امرأته كانت من الغابرين) : أي الباقين المعذبين من القوم الكافرين فأصابها ما أصابهم .

وقال تعالى : ﴿ فَأَجْنَيْنَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ، قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَيْرِ ﴾ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٨﴾ (١) .

وقال تعالى حكاية عن إبراهيم : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ، قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْغَيْرِ ﴿٦٠﴾ ... إلى قوله : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ (٢) .

وقال تعالى : مخبراً عن الملائكة الذين أرسلهم لعذابهم : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ (٣) . أي : عبرة تدل على هلاك الله لهم فيرتدع بها غيرهم .

هذه الآيات البينات التي جاءت في كتاب الله العزيز إخباراً من المولى عز وجل عن صنيع عمل قوم لوط عليه السلام وسوء فعلهم وبيان ما أوقع بهم تعالى من العقاب في هذه الحياة الدنيا ويا له من عقاب عظيم وما هو مؤجل لهم في الآخرة أشد وأعظم .

(١) سورة النمل : آية (٥٧-٥٨) .

(٢) سورة الحجر : آية (٥٧-٧٤) .

(٣) سورة الذاريات : آية (٣٥-٣٧) .

هكذا كان هلاك من لا يؤمن بالله واليوم الآخر ويسعى في الأرض بالفساد ويستبدل الأدنى بالذي هو خير. يقول تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١١٨) . (١)

فهذه الأفعال القبيحة التي لم يردعهم عنها قول قائل، ولا نصيحة ناصح، ولا زجر مبلغ، ولا دعوة داع، هؤلاء فرق بينهم وبين من يقول: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَأَمْنًا رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ (١١٣) . (٢)

---

(١) سورة النحل: آية (١١٨) .

(٢) سورة آل عمران : آية (١٩٣) .



## د - قوم صالح عليه السلام

قال الله تعالى :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمِرْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَغْفِرُكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝٦١﴾ قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ۝٦٢﴾ قَالَ يَتَقَوَّمِرْ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِن عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ۝٦٣﴾ وَيَتَقَوَّمِرْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ۝٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۝٦٥﴾ (١).

يقول الله تعالى ولقد أرسلنا ثمود إلى أخاهم صالحاً، وثمرود يسكنون مدائن الحجر بين المدينة والشام، وكان صالح منهم بعثه الله رحمة لهم يدعوهم إلى توحيد الله تعالى، ويبين لهم أصل خلقتهم من التراب، وجعلهم الله يعمررون الأرض ويسكنونها، وأمرهم بالاستغفار فهو مهلكة للشيطان وتوبة من الذنوب والرجوع إلى الله، والله يسمع دعاء الداعي ويغفر الذنوب ويتوب على من تاب.

(قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوًّا قبل هذا) .

(١) سورة هود: آية (٦١-٦٥) .

قال ابن جرير : (أي كنا نرجو أن تكون فينا سيذاً (قبل هذا) القول الذي قلته لنا من أنه ما لنا من إله غير الله (أنتهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) يقول: أنتهانا أن نعبد الآلهة التي كان يعبد آباؤنا (وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب) يعنون أنهم لا يعلمون صحة ما يدعوهم إليه من توحيد الله. وأن الألوهية لا تكون إلا له خالصاً. وقوله : (مريب) أي يوجب التهمة) (١) اهـ.

ولكنه عليه السلام يلاطفهم ويبين أن دعوته هذه هي الحق الذي جاء من عند الله، وأنه لا أحد ينفعه إذا ترك الدعوة إلى الله والبلاغ المبين. وأخذ يعدد نعم الله تعالى التي أنعم بها عليهم : ﴿ أَتُرْكُونَ فِي مَا هَهْنَاءَ آمِنِينَ ﴾ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿ ١٤٧ ﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿ ١٤٨ ﴾ وَتَنَحَّتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿ ١٤٩ ﴾ (٢) .

فطلبوا منه آية على صحة رسالته : ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١٥٠) فقال : ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ الْعَذَابِ ﴾ (٧٣) (٣) .

وقال : ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ هَآ شَرِبَ وَلَكُمْ شَرِبَ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴾ (١٥٥) (٤) .

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ج ١٢ ص ٦٣ .

(٢) سورة الشعراء : آية (١٤٦-١٤٩) .

(٣) سورة الأعراف : آية (٧٣) .

(٤) سورة الشعراء : آية (١٥٥) .

قال ابن جرير : (قال صالح لثمود لما سألوه آية يعلمون بها صدقه، فأتاهم بناقة أخرجها من صخرة أو هضبة: هذه ناقة يا قوم، لها شرب ولكم شرب يوم آخر معلوم، ما لكم من الشرب ليس لكم في يوم ورودها أن تشربوا من شربها شيئاً، ولا لها أن تشرب في يومكم مما لكم شيئاً) (١).

ولكن ذلك لم يزد لهم إلا طغياناً وكفراً فعقروا الناقة، ثم ندموا على فعلهم (فعقروها فأصبحوا نادمين)، ولكن لم ينفعهم ندمهم، ثم لم يقتصروا على هذه الجرائم بل أخذوا في الإفساد ومحاولتهم في قتل صالح عليه السلام ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤٌ مَكْرُؤٌ مَكْرُؤٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ (٢).

هؤلاء الرهط التسعة كفروا بالله تعالى وذكر المفسرون بأنهم الذين سعوا في عقر الناقة وتعاونوا على ذلك، وتحالفوا على قتل صالح وأهله، وقد أقسم بعضهم لبعض على مفاجأتهم ليلاً وقتلهم ثم يجحدون وينفون ذلك ويحلفون، وقد دبروا أمرهم على قتل صالح وأهله، ولكن الله أبطل مكيدتهم وذلك بإهلاكهم وجميع الكفرة من قوم صالح .

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ج ٩ ، ص ١٠٤ .

(٢) سورة النمل : آية (٤٨-٥٠) .

روى البخاري بسنده عن عبدالله بن زمعة أنه سمع النبي ﷺ يخطب وذكر الناقة والذي عقر، فقال رسول الله ﷺ : (إذ انبعث أشقاها) انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة...) (١) الحديث .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنَيْنَا صَلْدًا وَلَذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۝٦٦ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيصِينَ ۝٦٧ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الْآلَاءُ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدَ لَثَمُودَ ۝٦٨ ﴾ (٢) .

لما تمادى قوم صالح في كفرهم وعدم سماعهم لنبيهم، وأخذوا يزدادون في الفساد، أرسل الله عليهم عذابه، وذلك بعد أن عقروا الناقة وأخبرهم صالح أن العذاب مصيبهم بعد ثلاثة أيام (فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب) أي لا بد من وقوعه . فبعد مرور ثلاثة أيام من إخبار صالح عليه السلام لهم أرسل الله تعالى عليهم الصيحة التي قطعت قلوبهم (فأما ثمود فاهلكوا بالطاغية) .

قال ابن كثير : (هي الصيحة التي أسكتتهم والزلزلة التي أسكتتهم هكذا قال قتادة: الصيحة - وهو اختيار ابن جرير) (٣) .

وأنجى الله رسوله ومن آمن معه من عذابه الذي أهلك القوم حتى أصبحوا لا حراك لهم خامدين، كأن لم يكن هناك من أنس وتنعم في هذه الدار، إن هذا العذاب هو لقاء كفرهم وجحودهم لآيات الله البينات واعتدائهم .

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير حديث ٤٩٤٢ .

(٢) سورة هود : آية (٦٦-٦٨) .

(٣) تفسير القرآن العظيم : ج ٤ ص ٤١٢ .

وقال تعالى مخبراً عنهم في موضع آخر من كتابه الكريم: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ آثُنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٧٨﴾ (١).

وقال تعالى مبيناً ما حصل بين صالح وقومه من مجادلة: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا سَوْءٌ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ (٢).

وفي سورة النمل يبين لنا تعالى مجادلته ومناصحته لهم وردودهم الفاضحة، وما قد أجمع عليه بعضهم من أمر سوء - قتل صالح وأهله - ولكنهم يمكرون ويمكر الله وهو خير الماكرين ﴿وَمَكْرُؤٌ مَكْرُؤٌ مَكْرُؤٌ مَكْرُؤٌ مَكْرُؤٌ﴾ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْبِئْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَكَانُوا يَنْتَفُونَ ﴿٥٣﴾ (٣).

(١) سورة الأعراف: آية (٧٧-٧٨).

(٢) سورة الشعراء: آية (١٥٣-١٥٩).

(٣) سورة النمل: آية (٥٠-٥٣).

وبيّن تعالى تكذيبهم لآياته وتكذيب رسوله، وبيّن مقالتهن الضلالة، وعذابه لهم في الدنيا وتوعده لهم في الآخرة ﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مَنْ الْكَذَّابُ الْأَشِرُّ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فَمَنَّةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُخَضَّرٌ ﴿٢٨﴾ فَادَّوْا صَاحِبَهُمْ فَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ ﴿١﴾ .

وقال تعالى: ﴿وَفِي ثُمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ ﴿٤٥﴾﴾ ﴿٢﴾ .

هذه قصة أمة من الأمم الماضية ثمود قوم صالح أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام يبلغهم دين ربهم ويأمر بعبادة الله تعالى وترك عبادة ما سواه ولكنهم كذبوا صالحاً وما جاء به عن الله تعالى وطلبوا منه آية تثبت صدق رسالته وأن ما يقول حق، فبعث الله لهم ناقة وجعل لها شرباً ولهم شرب يوم معلوم لا ترد عليهم ولا يردون عليها، ولكنهم اعتدوا على ناقة الله التي جعلها لهم آية فعقروها، واتفقوا على قتل صالح وأهله ليلاً ولكن الله أنجى رسوله والذين آمنوا معه وأهلك القوم الظالمين وفي هذا عبرة لمن يقع في محارم الله ويحسب أوامره .

(١) سورة القمر: آية (٢٣-٣١) .

(٢) سورة الذاريات: آية (٤٣-٤٥) .

## هـ - قوم شعيب عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ (١).

أرسل الله شعيباً عليه السلام إلى مدين وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريباً من معان. بلاداً تعرف بهم يقال لها مدين، وكان شعيب عليه السلام من أشرفهم نسباً (٢).

دعا قومه عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له أسوة بما كان يبدأ به إخوانه الرسل أقوامهم بناء على أمر ربهم ثم نهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان، وأن عليهم أن يوفوا الكيل والوزن بالقسط لا يظلمون ولا يظلمون، وأن لا يأخذوا أموال الناس بغير حقها، وهذا العمل لا يرضاه الله تعالى. قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ

(١) سورة الأعراف: آية (٨٥-٨٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم: ج ٢، ص ٤٥٥.

وَزَنُّوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ <sup>(١)</sup> ونهاهم عليه السلام من الإفساد في الأرض وذلك بقطع الطرق سواء بالقتل وأخذ الأموال أو بصدّ الناس عن الإيمان بشعيب وبما جاء به عن الله تعالى ومحاولتهم أن يكون الناس جميعاً في الطريق المعوج ويحفظونهم عن هدى الله ، ويذكرهم عليه السلام بنعم الله تعالى عليهم إذ كانوا قلة مستضعفين فكثّروهم وجعلهم أعزة ، وأخذ يبين لهم ما حلّ بالأمم السالفة من عذاب الله ونكاله لمخالفتهم لما جاءتهم به رسلهم عن الله تعالى ، وصدق الله حيث يقول: ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١٠١﴾ <sup>(٢)</sup>.

لقد قابلوا شعيباً بمقابلة سيئة وردوا عليه رداً قبيحاً فاضحاً: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ <sup>(٣)</sup>. الآية. هكذا كانت المواجهة من أعداء الله لرسول الله ومن آمن معه، وهو أن يعودوا في ملّة الكفر أو ينفوهم من أوطانهم ويبعدوهم، ولكن عباد الله الذين دخل الإيمان قلوبهم وأيقنوا أنهم على الحق وأن الله ناصرهم يردون على الكفرة المكذبين ﴿ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسَ اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا

(١) سورة المطففين: آية (١-٣).

(٢) سورة يونس: آية (١٠١).

(٣) سورة الأعراف: آية (٨٨).



أَفْتَحْ يَبْنَائَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَلَّاحِينَ ﴿١﴾ نعم إنه الاعتراف بالحقيقة بأن من رجع عن دين الله فهو مكذب وراجع من النجاة إلى الهلاك، ثم يقررون بأنهم لن يعودوا في ملة الكفر والضلال ويربطون مقالتههم بمشيئة الله تعالى لأن القلوب بيد الله يقبلها كيف يشاء ويطلبون من ربهم النصر على الكفرة المكذبين، وسرعان ما يأتيهم النصر من رب العالمين.

لقد ندّد الله بصنيع أولئك القوم في مواضع من كتابه الكريم فقال تعالى : ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ ... إلى قوله : ﴿وَيَبْقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ (٢).

وفي سورة الشعراء يخبر تعالى عن تكذيبهم، وما كان من شعيب عليه السلام ودعوته لهم باللين وملاطفتهم لعلهم يرجعون عما هم عليه من التكذيب بدعوته وظلمهم للآخرين في التطفيف في المكيال والميزان وبخس الناس حقوقهم، وإفسادهم في الأرض قال تعالى : ﴿كَذَبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْقِوْنَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَتَقُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ

(١) سورة الأعراف: آية (٨٩) .

(٢) سورة هود: آية (٨٤-٩٣) .

﴿١٨٣﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَأَنْتُمْ أَلَذَىٰ حَلْقِكُمْ وَالْجِيلَةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴿١﴾

قال ابن كثير : (هؤلاء - يعني أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح وكان نبي الله شعيب من أنفسهم وإنما لم يقل هاهنا أخوهم شعيب لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة وهي شجرة، وقيل شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها ، فلهذا لما قال : كذب أصحاب الأيكة المرسلين، لم يقل : إذ قال لهم أخوهم شعيب، وإنما قال : (إذ قال لهم شعيب) فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه وإن كان أخاهم نسباً. ومن الناس من لم يفتن لهذه النكتة فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين فزعم أن شعيباً عليه السلام بعثه الله إلى أمتين، ومنهم من قال ثلاث أمم) (٢) اهـ .

وفي سورة العنكبوت : ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُومُوا عِبَادُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٣﴾ .

لقد أُنذِرهم عذاب الله تعالى وبيّن لهم ما أصاب الأقوام الذين مضوا قبلهم من هلاك الله وعذابه لهم، ويأمرهم أن يستغفروا ربهم من ذنوبهم ويتوبوا إليه مما

(١) سورة الشعراء : آية (١٧٦-١٨٨) .

(٢) تفسير القرآن العظيم: ج ٣، ص ٣٤٥ .

(٣) سورة العنكبوت : آية (٣٦) .

يخالف أمره فإنه سبحانه رحيم ودود لمن تاب ورجع إليه ﴿وَيَقَوْمٌ لَا يَجْرِمُكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ۝٨٩﴾ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ (١).

بعد هذا النصح والدعوة من شعيب عليه السلام لقومه وردودهم الباطلة عليه، وعدم الاستجابة له، وإنذاره لهم عذاب الله تعالى مثلما أصاب من قبلهم من الأمم العاصية، أنزل الله عليهم عذابه، وحل بهم مثلما حل بمن قبلهم من الأمم جزاء على ظلمهم وكما سنبينه :

قال الله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَبَاءٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمًا ۝٩٤﴾ (٢).

لما تعذر إيمان من كفر بشعيب وبما جاء به من الله تعالى وأنذرهم عذاب الله تعالى ولم يسمعوا لذلك ﴿وَيَقَوْمٌ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ ۖ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ۝٩٣﴾ (٣).

أنزل الله عذابه بالقوم الظالمين وأنجى نبيه شعيباً ومن آمن معه من قومه وذلك رحمة منه تعالى بنبيه ومن آمن معه. وكان هلاك الظلمة بالصيحة التي جعلتهم جثثاً هامدة .

(١) سورة هود : آية (٨-٩٠) .

(٢) سورة هود : آية (٩٤) .

(٣) سورة هود : آية (٩٣) .

قال ابن جرير : (وأخذت الذين ظلموا الصيحة من السماء أخذتهم فأهلكتهم بكفرهم برهم. وقيل: إن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة أخرجت أرواحهم من أجسامهم (فأصبحوا في ديارهم جاثمين) على ركبهم وصرعى بأفئيتهم . ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ إِلَّا بُعْدًا لِّمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴿١﴾ : كَأَن لَّمْ يَعِشْ قَوْمُ شَعِيبَ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابِهِ . أَلَا أُبَعِدُ اللَّهُ مَدِينٍ مِنْ رَحْمَتِهِ بِإِحْلَالِ نَقْمَتِهِ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ، يَقُولُ : كَمَا بَعَدَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ ثَمُودُ مِنْ رَحْمَتِهِ بِإِنْزَالِ سَخَطِهِ بِهِمْ) (٢) .

وقال تعالى : ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيَنَّ أَتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذْتُمُ الرِّجْفَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴿٣﴾ .

يقولون : إن الخسارة هي لمن يتبع شعيباً، وهم الذين نزلت بهم الصيحة وأهلكتهم عن آخرهم ولم يبق لهم باق، ولم ينبج إلا شعيباً ومن اتبعه من المؤمنين، وأخبر تعالى عن عذابهم في موضع آخر من كتابه فقال : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٨٩﴾ ﴿٤﴾ .

(١) سورة هود : آية (٩٥) .

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ١٢ ، ص ١٠٨-١٠٩ .

(٣) سورة الأعراف : آية (٩٠-٩٢) .

(٤) سورة الشعراء : آية (١٨٩) .

وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

قال ابن كثير: (وذكر هاهنا<sup>(٢)</sup> أنهم أتهمت صيحة، وفي الأعراف رجفة، وفي الشعراء عذاب يوم الظلة وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه، ففي الأعراف لما قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشُعْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾ ناسب أن يذكر هنا الرجفة فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها وأرادوا إخراج نبيهم منها، وهاهنا<sup>(٣)</sup> لما أساءوا الأدب في مقاتلتهم على نبيهم ذكر الصيحة التي استلبت منهم وأخذتهم، وفي الشعراء لما قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ قال ﴿فَأَخَذَهُمُ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: وهذا من الأسرار الدقيقة والله الحمد والمنة كثيراً دائماً)<sup>(٤)</sup> اهـ.

إن سبب هلاك الأفراد والأمم هو إعراضهم عن دين الله تعالى وارتكاب ما قد نهى عنه، قال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾<sup>(٥)</sup>، ومن تمام عدله سبحانه أنه لم يكن معذباً أحداً حتى يقيم عليه

(١) سورة العنكبوت: آية (٣٧).

(٢) سورة هود: آية (٩٤).

(٣) سورة هود: آية (٩٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم: ج ٢، ص ٤٥٨.

(٥) سورة الكهف: آية (٥٧).

الحجة كما أخبر تعالى : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (١) . فإذا قامت الحجة فمن استقام وأناب فله الحسنى وزيادة، ومن نكص وحاد فله الهلاك والعذاب، وما كان من عذاب الأمم السابقة سواء ما ذكرنا أو لم نذكر هو بسبب ظلمهم لأنفسهم ولغيرهم. وإذا أنزل الله عذابه بالظلمة فعذابه مهلك لمن يقع عليه ﴿وكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (٢) .

قال العيني : (إن أخذه أي أخذ الله أليم : أي وجيع شديد، وهذا تحذير من وخامة الذنب لكل أهل قرية) (٣) .

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، قال : ثم قرأ : ﴿وكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢) ) (٤) .

هذه سنة الله في القرون الظالمة المكذبة لرسوله، وكذلك يفعل سبحانه وتعالى بأشباههم كما أخبر تعالى : ﴿وَكَأَنِّ مِّنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ (٤٨) (٥) .

(١) سورة القصص : آية (٥٩) .

(٢) سورة الهود : آية (١٠٢) .

(٣) عمدة القاري : ج ٩ ، جزء ١٨ ، ص ٢٩٥ .

(٤) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير حديث ٤٦٨٦ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب البر ٦٢ ، وابن ماجه كتاب الفتن ٢٢ .

(٥) سورة الحج : آية (٤٨) .

فإذا حصل التماذي والبقاء على الظلم أحلّ الله عقوبته بإهلاكه لأولئك الظلمة ثم إليه المرجع فيلاقون من العذاب ما لا قبل لهم به. وقال تعالى مخبراً عن رد عبده ورسوله هود عليه السلام على قومه المشركين ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١).

قال ابن القيم: (فكونه على صراط مستقيم ينفي ظلمه للعباد، وتكليفه إياهم ما لا يطيقون، وينفي العيب من أفعاله وشرعه ويثبت لها غاية الحكمة والسداد رداً على منكري ذلك، وكونه كل دابة تحت قبضته وقدرته وهو آخذ بناصيتها ينبغي أن لا يقع في ملكه من أحد من مخلوقاته شيء بغير مشيئته وقدرته، وأن من ناصيته بيد الله وفي قبضته لا يمكنه أن يتحرك إلا بتحريكه، ولا يفعل إلا بأقداره، ولا يشاء إلا بمشيئته تعالى، إلى أن قال: فهو سبحانه على صراط مستقيم في إعطائه ومنعه، وهدايته، وإضلاله، وفي نفعه وضره، وعافيته وبلائه، وإغنائه وافتقاره، وإعزازة وإذلاله، وإنعامه وانتقامه، وثوابه وعقابه، وإحيائه وإماتته، وأمره ونهيه، وتحليله وتحريمه، وفي كل ما يخلق، وكل ما يأمر به، وهذه المعرفة بالله لا تكون إلا للأنبياء ولورثتهم) (٢).

(١) سورة هود: آية (٥٦).

(٢) التفسير القيم للإمام ابن القيم: ص ٣١٣.

## المبحث الثاني

جور الرعاة وأثره في فساد الرعية



## المبحث الثاني

### جور الرعاة وأثره في فساد الرعية

المراد بالرعاة : الراعي : (كل من وليّ أمراً بالحفظ والسياسة كالملك، والأمير، والحاكم. وفي التنزيل العزيز: ﴿حَتَّى يُصَدَرَ الرَّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (كلكم راع وكل مسئول عن رعيته فالأمير الذي على الناس راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) (٢).

قال النووي : (قال العلماء: الراعي هو الحافظ المؤمن الملتزم صلاح ما قام عليه وما هو تحت نظره ففيه أن كل من كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه والقيام بمصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته) (٣) اهـ.

وهنا سيكون الكلام على أربعة أصناف وهم : الحاكم على رعيته ، والرجل على أهل بيته، والمرأة في بيت زوجها ، والعبد في مال سيده، ومن في حكمهم، فهؤلاء سنقوم بالكلام على كل منهم ومدى مسؤوليته وما يجب عليه وما يكون من مفسدة إذا حصل تقصير أو مخالفة في عدم العدل .

(١) المعجم الوسيط : ٣٥٦/١ .

(٢) رواه مسلم كتاب الإمارة حديث ١٨٢٩، والبخاري كتاب الأحكام، حديث ٧١٣٧ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي : ج ٦ ، الجزء ١٢ ، ص ٢١٣ .

## ١- رعاية الحكام وأثر الظلم منهم

الحاكم : هو المنصب للحكم بين الناس في فصل القضاء على ضوء الكتاب الكريم والسنة المطهرة وتولي شؤونهم الدينية والدنيوية، وسواء كان الإطلاق عليه ملكاً أو رئيساً أو أميراً أو أي مسمى آخر، المهم أن له سلطة على دولة من الدول أو إمارة من الإمارات أو ما شابه هذا .

الشئون الدينية : هي إقامة شعائر الإسلام بين أفراد مجتمعه وإلزام من يجيد عن ذلك بها، وإقامة الحدود والتعزيرات على المخالفين على نهج كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

فالحاكم خليفة الله في أرضه، فالواجب عليه أن يحكم بين الناس بالحق، قال تعالى : ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (٢٦) .

قال ابن كثير : (هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله، وقد توعد تبارك وتعالى من ضلّ عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد. قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن خالد حدثنا الوليد حدثنا مروان بن جناح حدثني إبراهيم أبو زرعة وكان قد قرأ الكتاب أن الوليد

(١) سورة ص : آية (٢٦) .

بن عبد الملك قال له : أيجاسب الخليفة فإنك قد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن وفقهته، فقلت: يا أمير المؤمنين: أقول ؟ قال: قل في أمان الله، قلت يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة ثم توعده في كتابه فقال تعالى : ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (١) .

وإقامة دين الله تعالى والمحافظة عليه هو المقدم على كل شيء فلا يقبل الله مخالفة من أحد لا نبي ولا رسول ولا ملك ولا كبير ولا صغير لأن الجميع مكلف ومطلوب أن يطبق دين الله على نفسه ثم على غيره قال تعالى مخاطباً أكرم الخلق محمداً ﷺ : ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ (٢) .

فما دام هذا خطاباً لمحمد ﷺ ولمن قبله من الأنبياء والمرسلين! فكيف بمن عداهم ممن قد استخلفوا على الناس؟ هم من باب أولى أن يطبقوا على أنفسهم ويلتزموا ثم يلزموا من قد ولاهم الله أمرهم دين الله تعالى وأن يكون لهم في رسول الله ﷺ وخلفائه أسوة وقدوة قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٣) .

(١) تفسير القرآن العظيم: ج ٤، ص ٥٠ دار الفكر .

(٢) سورة الزمر : آية (٦٥-٦٦) .

(٣) سورة الأحزاب: آية (٢١) .

فالحاكم الذي يُمكن الله تعالى له في الأرض ويعطيه السلطة من مُلكٍ أو رئاسة أو إمارة أو قضاء، أو أي مسئولية أخرى هو ملزم أن يستخدم هذه السلطة وهذه المسئولية فيما يرضي الله تعالى قولاً وعملاً على نفسه ثم على من ولاه الله أمرهم قريباً أو بعيداً، وما جعلت السلطة لتستخدم في المصالح الذاتية، وتحقيق الرغبات الفردية الخاصة، وتطبق الأحكام على الضعفاء والمجاوزه عن الأشراف والأقارب.

قال الخليفة الراشد أبو بكر رضي الله عنه عندما تولى الخلافة : (أيها الناس إنني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني : الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله... إلى أن قال: أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فإطاعة لي عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله) (١).

ولما ولي عمر الخلافة صعد المنبر فقال: (إني قائل كلمات فأمنوا عليهن، فكان أول كلام قاله حين استخلف : إنما مثل العرب مثل جمل أنف، اتبع قائده فليُنظر قائده حيث يقوده، وأما أنا فو رب الكعبة لأحملنهم على الطريق) (٢).

(١) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي / الدكتور حسن إبراهيم حسن ج ١، ص ٢٠٥ - ٢٠٦، الطبعة السابعة ١٩٦٤ م، مكتبة النهضة المصرية .

(٢) نفس المرجع السابق : ص (٢١٢) .

وعندما بويع عثمان رضي الله عنه بالخلافة خطب الناس فقال : (إنكم في دار قلعة، وفي بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أتيتم صبحتم أو مسّيتم، ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور، واعتبروا بمن مضى، ثم جدّوا ولا تغفلوا، فإنه لا يغفل عنكم أين أبناء الدنيا وإخوانها، الذين آثروها وعمروها ومتّعوا بها طويلاً، ألم تلفظهم؟ أرموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلاً والذي هو خير فقال عز وجل: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ تَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ (١) (٢).

وكان أول خطبة خطبها علي رضي الله عنه أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال : (إنا الله تعالى أنزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر، إن الله حرم حرماً مجهولة، وفضل حرم المسلم على الحرم كلها، وشدّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل لمسلم أذى مسلم إلا بما يجب، وبادروا أمر العامة، وخاصة أحدكم الموت، فإننا لناس أمامكم وإنما خلفكم الساعة تحذوا بكم فتخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر بالناس أخراهم، اتقوا الله عباده في عباده وبلاده، فإنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم ثم أطيعوا الله ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فدعوه الآية ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ (٣) اهـ.

(١) سورة الكهف : آية (٤٥-٤٦) .

(٢) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج ١، ص ٢٥٧ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير : ج ٤ جزء ٧ ص ٢٢٦ .

هكذا كان نهج خلفاء رسول الله ﷺ في حكمهم، فخطبهم تبين منهجهم في حكمهم ومعاملاتهم للناس وما يريدون أن يسير عليه الناس في هذه الحياة لأنه لا صلاح للأفراد ولا للجماعات إلا بالالتزام بهذا الدين ونهج طريق المنعم عليهم لا المغضوب عليهم والضالين، وهؤلاء القدوة بعد رسول الله ﷺ، فكل من خالف السياسة الشرعية التي رسمها رسول الله ﷺ ونهجها خلفاؤه الراشدون، ومن تبعهم من الأئمة المهديين والتي مصدرها كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فقد ضل وخسر وباء بالندامة والحسرة يوم يكون الجزاء والحساب، ويتولى القضاء رب الأرض والسماء .

الشئون الدنيوية : هو أن ينظر الحاكم أحوال رعيته الدنيوية ويساوي بينهم في العطية، ولا يعطي أحداً ويترك آخر أو يؤثر أحداً على أحد أو يجعل ميزة لأحد على أحد في عطية أو غير ذلك إلا ما يكون مقابل عمل يستحق ذلك عليه، فالمسلمون كلهم في حق الله سواء ولهم حق في بيت مال المسلمين، فالحاكم يتفقد أحوال من ولاه الله أمرهم. ولنذكر بعض الآثار الواردة عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

قال ابن كثير: (قال أسلم<sup>(١)</sup> : خرجت ليلة مع عمر إلى ظاهر المدينة فلاح لنا بيت شعر فقصدناه فإذا فيه امرأة تمخض وتبكي فسألها عمر عن حالها فقالت: أنا امرأة عربية وليس عندي شيء، فبكى عمر وعاد يهرول إلى بيته فقال لامرأته أم

(١) أسلم: مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الإصابة في تبيين الصحابة: ج ١، جزء ١ ص ٥٨ .

كلثوم بنت علي بن أبي طالب: هل لك في أجر ساقه الله إليك؟ وأخبرها الخبر، فقالت: نعم، فحمل على ظهره دقيقاً وشحماً، وحملت أم كلثوم ما يصلح للولادة، فدخلت أم كلثوم على المرأة، وجلس عمر مع زوجها وهو لا يعرفه يتحدث فوضعت المرأة غلاماً فقالت أم كلثوم: يا أمير المؤمنين بشر صاحبك بغلام، فلما سمع الرجل قوله استعظم ذلك وأخذ يعتذر إلى عمر، فقال عمر: لا بأس عليك ثم وصلهم بنفقة وما يصلحهم وانصرف) (١) اهـ.

هذا أروع مثل في العدالة وبذل النفس في خدمة الشعب، وتفقد أحوال المسلمين ورعايتهم بما يصلح أحوالهم، ويجعلهم على اختلاف مستوياتهم في حق الله سواء، الخليفة الراشد الذي عرف حق المسؤولية، وما سيسأل عنه يوم الوقوف أمام الله تعالى، وأن هذه الأمة التي يحكمها في ذمته، تفانى في الحفاظ على حقوقهم، وتفقد أحوالهم وحتى في الليل، وهذه القصة مثل يجب أن يجعله حكام المسلمين منهجاً يسلكونه ويسIRON عليه، ليحقق الله النصر لهم على أعدائهم، ويحفظ لهم سلطانهم، ويظفرون بسعادتي الدنيا والآخرة .

وقال ابن كثير : (وقال أسلم : خرجت ليلة مع عمر إلى حرة واقم حتى إذا كنا بصرار إذا بنار فقال: يا أسلم ها هنا ركب قد قصر بهم الليل، انطلق بنا إليهم، فأتيناهم فإذا امرأة معها صبيان لها و قدر منصوبة على النار، وصبيان يتضاغون، فقال عمر: السلام عليكم يا أصحاب الضوء، قالت: وعليك السلام. قال: أدنو،

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ج ٤، جزء ٧، ص ١٣٦ .

قالت: ادن أو دع. فدنا فقال: ما بالكم؟ قالت: قصر بنا الليل والبرد. قال: فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: من الجوع. فقال: وأي شيء على النار؟ قالت: ماء أعللهم به حتى يناموا، الله بيننا وبين عمر، فبكى عمر ورجع يهرول إلى دار الدقيق فأخرج عدلاً من دقيق وجراب شحم، وقال: يا أسلم احمله على ظهري، فقال: أنا أحمله عنك، فقال: أنت تحمل وزري يوم القيامة؟ فحمل على ظهره، وانطلقنا إلى المرأة فألقى عن ظهره وأخرج من الدقيق في القدر، وألقى عليه الشحم، وجعل ينفخ تحت القدر و الدخان يتخلل لحيته ساعة، ثم أنزلها عن النار وقال: ائتني بصحفة، فأتي بها فغرفها ثم تركها بين يدي الصبيان، وقال: كلوا، فأكلوا حتى شبعوا والمرأة تدعو له وهي لا تعرفه فلم يزل عندهم حتى نام الصغار، ثم وصلهم بنفقة وانصرف، ثم أقبل عليّ فقال: يا أسلم الجوع الذي أسهرهم وأبكاهم (١) اهـ.

وهنا سنرى موقفه من قرابته وعدم إثارهم على غيرهم من المسلمين وخوفه من الله إذا هو آثرهم على غيرهم .

قال ابن كثير أيضاً : ( قيل إن عمر رأى جارية تتمايل من الجوع فقال: من هذه؟ فقالت ابنة عبدالله: هذه ابنتي، قال: فما بالها؟ فقالت: إنك تحبس عنا ما في يدك فيصينا ما ترى، فقال: يا عبدالله، بيني وبينكم كتاب الله، والله ما أعطيك إلا ما فرض الله لكم، أتريدون مني أن أعطيك ما ليس لكم؟ فأعود خائناً؟

(١) البداية والنهاية لابن كثير: ج ٤، جزء ٧، ص ١٣٦ .



قال الدكتور محمد يوسف موسى : (إن العدل الذي يقوم عليه نظام الحكم الإسلامي، ويعتبر حقاً دعاماً قوية من دعاماته، هو العدل المثالي بين الناس جميعاً مهماً تختلف أجناسهم وأديانهم، هو العدل الذي لا يتأثر بالقرابة أو الجاه أو السلطان، والذي لا ينبغي أن يتأثر بالبغض أو العداوة، ولا بأي عامل آخر غير ما تقدم كله) (١).

فالحكام ملزمون برعاية أحوال المسلمين وما لهم وما عليهم فإذا حصل منهم جور أو ظلم أدى ذلك إلى تفكك المجتمعات وفساد الأفراد وحصول الفوضى، لأن الدين لله تعالى فإذا لم يجد حكومة تقيم حدوده أميتت السنن وظهرت البدع وضاعت الحقوق وحصل الظلم بين الرعية.

وقد ذكر الماوردي أموراً عامة عشرة تلزم الحاكم للرعية :

- ١ - حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة فإن نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجة وبين له الصواب وأخذ بما يلزمه من الحقوق والحدود ليكون الدين محروساً من خلل والأمة ممنوعة من زلل.
- ٢ - تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النصفة، فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم.
- ٣ - حماية البيضة والذب عن الحريم ليتصرف الناس في المعاش وينتشروا في الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو مال.

(١) نظام الحكم في الإسلام : ص ١٩١ .

- ٤ - إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك وتحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك.
- ٥ - تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا تظفر الأعداء بغرة ينتهكون فيها محرماً أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دماً.
- ٦ - جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة لقيام بحق الله تعالى في إظهاره على الدين كله.
- ٧ - جباية الفي والصدقات على ما أوجبه الشرع نصّاً واجتهاداً من غير خوف ولا عسف .
- ٨ - تقدير المعطيات وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقتير ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير .
- ٩ - استكفاء الأمانة وتقليد الفصحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال ويكله إليهم من الأموال، لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة والأموال بالأمانة محفوظة .
- ١٠ - أن يباشر بنفسه مشاركة الأمور وتصفح الأحوال، لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة فقد يخون الأمين ويغش الناصح وقد قال الله تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (١) (٢) اهـ.

(١) سورة ص : آية (٢٦) .

(٢) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٨ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

قال الشيخ هبة الله إسماعيل بن إبراهيم الخطيب الحسني الأسعدي الأزهري السلفي : (حكاية لطيفة ساقها الإمام محمد بن قتيبة الدينوري في كتابه تأويل مختلف الحديث قال: وحدثني رجل من أصحاب الأخبار أن المنصور سمر ذات ليلة فذكر خلفاء بني أمية وسيرتهم وأنهم لم يزالوا على استقامة حتى أفضى- أمرهم إلى أبنائهم المترفين فكان همهم من عظيم شأن الملك وجلالة قدره قصد الشهوات وإيثار الذات والدخول في معاصي الله عز وجل ومساخطه جهلاً منهم استدراج الله تعالى وأما من مكره تعالى فسلبهم الله تعالى الملك والعز ونقل عنهم النعمة فقال له صالح بن علي : يا أمير المؤمنين إن عبيد الله بن مروان لما دخل أرض النوبة هارباً فيمن اتبعه سأل ملك النوبة عنهم فأخبر فركب عبيدالله فكلمه بكلام عجيب في هذا النحو لا أحفظه وأزعجه عن بلده فإن رأى أمير المؤمنين أن يدعو به من الحبس بحضر-تنا في هذه الليلة ويسأله عن ذلك فأمر المنصور بإحضاره وسأله عن القصة فقال: يا أمير المؤمنين قدمت أرض النوبة بأثاث سلم لي فافترشته بها وأقمت ثلاثاً فأتاني ملك النوبة وقد أخبر أمرنا فدخل عليّ رجل أقنى حسن الوجه فقعد على الأرض ولم يقرب الثياب فقلت: ما يمنعك أن تقعد على ثيابنا؟ فقال: إني ملك وحق على كل ملك ان يتواضع لعظمة الله عز وجل إذ رفعه الله ثم أقبل عليّ فقال لي: لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم؟ قلت: اجترأ على ذلك عبيدنا وسفاؤنا. قال: فلم تطؤون الزرع بداوبكم والفساد محرم عليكم في كتابكم؟ قلت: يفعل ذلك جهالنا. قال: فلم تلبسون الديباج والحرير وتستعملون الذهب والفضة وهو محرم عليكم؟ فقلت: زال عنا الملك

وقل أنصارنا فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا. فأطرق ملياً وجعل يُقَلِّب يده وينكت في الأرض ثم قال: ليس ذلك كما ذكرت بل أنتم قوم استحللتم ما حرّم عليكم وركبتم ما عنه نهيتهم وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله تعالى العز وألبسكم الذل بذنوبكم والله تعالى فيكم نقمة لم تبلغ نهايتها وأخاف أن حل بكم العذاب وأنتم ببلدي فيصيني معكم وإنما الضيافة ثلاثة فتزودوا ما احتجتم إليه وارتحلوا عن بلدي ففعلت ذلك<sup>(١)</sup>.

ثم قال الأسعدي: (وفي هذه الحكاية مقنع وكفاية لمن رزقه الله الهداية، وجنبه طريق الغواية. وفيما رأيتم وسمعتم به مما جرى بأولئك الظالمين المستبدين الخاسرين الأبعدين، أكبر عبرة لمن اعتبر، وتبصرة لمن تبصّر).

قال شهاب الدين محمد الألبشهي: (قيل لما ظلم أحمد بن طولون قبل أن يعدل استغاث الناس من ظلمه وتوجهوا إلى السيدة نفيسة<sup>(٢)</sup> يشكونه إليها فقالت لهم متى يركب؟ قالوا: في غد فكتبت رقعة وقفت بها في طريقه وقالت: يا أحمد، يا بن طولون فلما رآها عرفها فترجل عن فرسه، وأخذ منها الرقعة وقرأها، فإذا فيها ملكتم فأسرتم، وقدمتم فقهرتم، وخولتم فعسفتم، وردت إليكم

(١) مجموعة الرسائل المنيرية: ج ١ جز ١، تحذير أهل الإيمان عن الحكم بغير ما أنزل الرحمن ص ١٥٦ - ١٥٧، إحياء التراث العربي بيروت.

(٢) نفيسة: هي بنت الحسن بن زيد بن الحسين اشتهرت بتقواها وورعها ومعارفها. بنت مسجداً بالقاهرة على اسمها وتوفيت سنة ٢٠٩هـ - ٨٢٤هـ، المستظرف في كل فن مستظرف (بجزأيه)، للإمام شهاب الدين محمد الألبشهي، دار القلم، بيروت، لبنان.

الأرزاق فقطعتم، هذا وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة لاسيما من قلوب أوجعتموها، وأكباد جوعتموها، وأجساد عريتموها، فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم، اعملوا ما شئتم فإننا صابرون، وجوروا فإننا إلى الله مستجيرون، واذلموا فإننا بالله متظلمون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. قال : فعدل لوقته) (١) اهـ.

إن الحكماء هم ولادة الأمر وهم خلفاء الله في أرضه لإقامة الحدود ورد الحقوق إلى أهلها والتثبت والأمر المبين، وإحياء السنن التي سنّها رسول الله ﷺ وإماتة البدع التي أحدثت، ورفع الظلم عن أممهم، وعدم الاحتجاب عن سماع مظالمهم وإنصافهم، ومعرفة الحق وإقامته، والمنكر وإزالته، وتحكيم كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ونبذ الأحكام الوضعية والقوانين والأنظمة الفاسدة البغيضة المخالفة لحكم الله تعالى وحكم رسوله ﷺ ظهيراً .

إن كل ما ذكرنا وكل شيء يخالف أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ يعتبر جوراً وظلماً والله سائل عن ذلك ومحاسب عليه .

سنرى بعض الأحاديث التي فيها الوعيد الشديد لمن حاد من الولاية ولم يقم بالعدل والإنصاف ووقع في ظلم الرعية.

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف (بجزأيه) ص ١٣٠ للإمام العالم شهاب الدين محمد الاشبيهي ، دار القلم، بيروت، لبنان .

عن الحسن قال: أتينا معقل بن يسار نعوده فدخل علينا عبيد الله، فقال له معقل: أحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ فقال: (ما من والي يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش إلا حرم الله عليه الجنة) <sup>(١)</sup>.

قال ابن حجر: (قال ابن بطلال: هذا وعيد شديد على أئمة الجور فمن ضيع من استرعاه الله أو خانهم أو ظلمهم فقد توجه إليه الطلب بمظالم العباد يوم القيامة فكيف يقدر على التحلل من ظلم أمة عظيمة، ومعنى حرم الله عليه الجنة أي أنفذ الله عليه الوعيد ولم يرض عنه المظلومين...) <sup>(٢)</sup> اهـ.

وعن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال فضرِب بيده على منكبي، ثم قال: يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها) <sup>(٣)</sup>.

قال النووي: (هذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات لاسيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف تلك الولاية، وأما الخزي والندامة فهو في حق من لم يكن أهلاً أو كان أهلاً ولم يعدل فيها فيجزيه الله تعالى يوم القيامة ويفضحه ويندم على ما فرط، وأما من كان أهلاً لولايته وعدل فيها فله فضل عظيم

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأحكام، حديث ٧١٥١، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان حديث ٢٢٧، ٢٢٨، وكتاب الإمارة، باب ٢١، حديث ١٨٣٠، وعبيد الله هو ابن زياد يعني أمير البصرة في زمن معاوية وولده يزيد.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ج ١٣، ص ١٢٨.

(٣) رواه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة حديث ١٨٢٥.

تظاهرت به الأحاديث الصحيحة كحديث سبعة يظلهم الله والحديث المذكور هنا عقب هذا أن المقسطين على منابر من نور وغير ذلك، وإجماع المسلمين منعقد عليه ومع هذا فلكثرة الخطر فيها حذرهم ﷺ منها وكذا حذر العلماء وامتنع منها خلائق السلف وصبروا على الأذى حين امتنعوا<sup>(١)</sup> اهـ.

وعن عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : (خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلون عليكم وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم) قيل : يا رسول الله أفلا ننايذهم بالسيف؟ فقال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من ولا تكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله، ولا تنزعوا يداً من طاعة<sup>(٢)</sup>.

وعن علقمة بن وائل الحضرمي عن أبيه. قال: سألت سلمة ابن يزيد الجعفي رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا، فما تأمرنا؟ فأعرض عنه ثم سأله فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم سأله في الثانية أو الثالثة فجذبه الأشعث بن قيس. وقال: اسمعوا وأطيعوا، فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم<sup>(٣)</sup>.

(١) مسلم بشرح النووي: ج ٦، جز ١٢، ص ٢١٠-٢١١.

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة حديث ١٨٥٥.

(٣) رواه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة حديث ١٨٤٦.

فالإمام يجب عليه العدل وإعطاء حق الرعية، وعدم الجور وظلمهم وضياع حقوقهم، فإذا خالفوا فعليهم الوزر والوبال، والرعية عليهم السمع والطاعة وأداء الحقوق .

وعن عبدالرحمن بن شماس قال: أتيت عائشة أسأها عن شيء فقالت: ممن أنت؟ فقلت: رجل من أهل مصر، فقالت: كيف كان صاحبكم لكم في غزاتكم هذه؟ قال: ما نقمنا منه شيئاً، إن كان ليموت للرجل منّا البعير فيعطيه البعير، والعبد فيعطيه العبد، ويحتاج إلى النفقة فيعطيه النفقة، فقالت: أما إنه لا يمنعني الذي فعل في محمد بن أبي بكر، أخي، أن أخبرك ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا (اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق به فارفق به) <sup>(١)</sup>.

وعن الحسن أن عائذ بن عمرو وكان من أصحاب رسول الله ﷺ دخل على عبد الله بن زياد، فقال: أي بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن شر الرعاء الحطمة <sup>(٢)</sup> فإياك أن تكون منهم، فقال له اجلس فإنما أنت من نخالة <sup>(٣)</sup> أصحاب

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة حديث ١٨٢٨ .

(٢) (إن شر الدعاء الحطمة) قال في النهاية: الحطمة هو العنيف برعاية الإبل في السوق والإيراد والإصدار يلقي بعضها على بعض ويعسفها. ضربه مثلاً لوالي السوء، ويقال أيضاً: حطم، بلا هاء.

(٣) (نخالة) يعني لست من فضلائهم وعلمائهم وأهل المراتب منهم بل من سقطهم، والنخالة هاهنا استعارة من نخالة الدقيق وهي قشوره. والنخالة والحثالة والحفالة بمعنى واحد .



محمد ﷺ، فقال: وهل كانت لهم نخالة<sup>(١)</sup>؟ إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم<sup>(٢)</sup>.

بعد أن وقفنا على بعض الأحاديث والآثار الواردة في رعاية الحكام وآثار الظلم منهم فإنه لا يفوتنا أن ذلك يعم كل من ولي سلطة في هذه الحياة الدنيا وعلى رأسهم القضاة. فالقاضي هو نائب الحاكم في القضايا الشرعية والحقوق المدنية، فإن أقام أحكامه على معرفة ودراية بشرع الله تعالى وحكم بذلك غير مبال بما يقابله من قضايا من أفراد على اختلاف شخصياتهم ومكاناتهم بل مع الحق أينما كان فقد سلم ونجا وله الأجر والمثوبة، وإن أوقع نفسه في القضاء وحكم في حقوق الناس على جهل وضلال أو عرف الحق ولم يحكم به فقد باء بغضب الله تعالى واستوجب عقابه.

عن ابن بريدة عن أبيه عن النبي ﷺ قال: (القضاة ثلاثة واحد في الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنة: فرجل عرف الحق فقتل به، ورجل عرف الحق فجار فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار) (قال أبو داود: وهذا أصح شيء فيه)، يعني حديث ابن بريدة<sup>(٣)</sup>.

(١) (وهل كانت لهم نخالة؟ إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم) هذا من جزل الكلام وفصيحته وصدقته الذي ينقاد له كل مسلم فإن الصحابة رضي الله عنهم كلهم صفوة الناس وسادات الأمة وأفضل ممن بعدهم، وفيمن بعدهم كانت النخالة. (مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ج ٣، ص ١٤٦١).

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة باب ٢٣ حديث ١٨٣١.

(٣) رواه أبو داود ج ٣، حديث ٣٥٧٣، ورواه الحاكم في المستدرک ٩٠ / ٤ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وله شاهد بإسناد صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

فالقاضي : هو الذي يحكم في الحلال والحرام في الأعراض والنفوس، ترد إليه القضايا فيجري فيها حكمه فإن كان مصيباً في حكمه حيث عرف حكم الله وحكم رسوله ﷺ فحكم به في ذلك فقد حصل على الأجر والثوبة في الدنيا والآخرة ، وأما إن كان قد عرف الحق فعدل عنه لأغراض شخصية أو أهداف مادية فقد باء بغضب الله تعالى واستحق النار يوم القيامة، وأما إن كان يخطئ خطأ عسواء لا يدري أمصيباً في قضائه، أم مخطئاً بل يرم بذلك على جهل وعدم دراية ومعرفة فهذا واقع في الخطأ لا محالة فهو مستحق لغضب الله تعالى وعذابه عز وجل حيث الرجم بالغيب في قضايا العباد دون معرفة كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، وكل من ولي للمسلمين أمراً فقد أوقع نفسه فإن شاء أخذ بها وأنقذها من الظلم للعباد، وأدّى واجب الوظيفة على المنهج الشرعي الصحيح، والذي عليه تقوم أعمال العباد وحقوقهم ونصح في ذلك وراقب الله تعالى وإن شاء اتبعها هواها وعبث في أعماله الوظيفية وحقوق العباد وضياع حقوقهم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ (٣٧) وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١)﴾ (١) .

(١) سورة النازعات: آية (٣٧-٤١) .

## ٢- رعاية الرجل لأسرته وأثر الظلم في ذلك

قال الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصَلِحْهُنَّ قَبْلَ نِكَاحِكُمْ فَطُفْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ۝﴾ (١)

قال ابن كثير: يقول تعالى: (الرجال قوامون على النساء) أي: الرجل قيم على المرأة أي هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا هي اعوججت (بما فضل الله بعضهم على بعض) أي لأن الرجال أفضل من النساء والرجل خير من المرأة ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال وكذلك الملك الأعظم لقوله ﷺ: (لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة) (٢)، رواه البخاري من حديث عبدالرحمن بن أبي بكر عن أبيه وكذا منصب القضاء وغير ذلك (وبما أنفقوا من أموالهم) أي من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهن في كتابه وسنة نبيه ﷺ فالرجل أفضل من المرأة في نفسه وله الفضل عليها والأفضال فناسب أن يكون قيماً عليها) (٣) اهـ.

(١) سورة النساء: آية (٣٤) .

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب المغازي حدي ٥٥٢٥، وحديث ٧٠٩٩، ورواه الترمذي كتاب الفتن ٧٥، والنسائي كتاب القضاة ٨، وأحمد في المسند ٥/٤٣، ٥١ .

(٣) تفسير القرآن العظيم: ج ١، ص ٤٩١ .

ويقول سيد قطب : (وكذلك زود الرجل - فيما زود به من الخصائص - بالخشونة والصلابة، وبطء الانفعال والاستجابة واستخدام الوعي والتفكير قبل الحركة والاستجابة. لأن وظائفه كلها من أول الصيد الذي كان يمارسه في أول عهده بالحياة إلى القتال الذي يمارسه دائماً لحماية الزوج والأطفال، إلى تدبير المعاش... إلى سائر تكاليفه في الحياة... لأن وظائفه كلها تحتاج إلى قدر من التروي قبل الإقدام، وإعمال الفكر، والبطء في الاستجابة بوجه عام! .. وكلها عميقة في تكوينها عمق خصائص المرأة في تكوينها... وهذه الخصائص تجعله أقدر على القوامه، وأفضل في مجالها، كما أن تكليفه بالإنفاق وهو فرع من توزيع الاختصاصات يجعله بدوره أولى بالقوامه؛ لأن تدبير المعاش للمؤسسة ومن فيها داخل في هذه القوامه، والإشراف على تصريف المال فيها أقرب إلى طبيعة وظيفته...) (١).

وقوله تعالى : ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَنَاطٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾

ستكلم عن هذا إن شاء الله في بحثنا عن رعاية المرأة .

وقد بين تعالى ما كان من حق الرجل في تأدب المرأة التي تترفع عما أوجب

عليها شرع الله الحكيم، فقال تعالى : ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ سُوءَ ظَنَّهُمْ لَا يَخَافُكُمْ إِلَّا طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ﴾ .

(١) في ظلال القرآن : ج ٢، ص ٦٥١ .

فإذا ترفّعت المرأة على الرجل فله وعظها فإذا أفاد ذلك فهو أول مراتب التأديب، وإن لم يفد معها فاهجر، واهجر: هو أن يوليها ظهره في المضجع ولا يكلمها ويرى غضبه عليها لما قد ارتكبه من عدم طاعته فيما أوجب الله، فإذا لم يجد هذا ولا ذاك فالضرب. والضرب يكون غير مبرح أي لا يكسر عظماً ولا يحدث شيئاً، فإن أطاعت المرأة فليس للرجل شيء من الضرب ولا الهجر، فإن اعتدى فإن الله تعالى ينصر المظلومين (إن الله كان علياً كبيراً) أي لا أحد أعلى ولا أكبر ولا أقوى منه سبحانه وتعالى ولا أقدر منه في الانتقام من الظلمة المعتدين وخاصة على النساء الضعيفات اللاتي لسن شيئاً في جانب الرجل، فسبحان الحكم العدل الذي لا تخفى عليه خافية المنصف المظلوم من ظالمه .

قد سبق في بحثنا في ظلم العبد لغيره ما فيه الكفاية عن الإعادة أو الزيادة، ومعلوم أن رعاية الرجل في بيته هو للزوجة وللأولاد والمماليك أو من كان في حكمهم وقد بينا ذلك في موضعه، والمقصود هنا أن الرجل إذا حصل منه حيف أو جور على من يعول فإنه يحصل مضار أثر ذلك، فما كان في جانب الزوجة قد يؤدي إلى خراب البيت من الشقاق والذي قد تكون العقبى الطلاق والفراق وتشتت شمل الأبناء وحصول ما لا تحمد عقباه سواء للزوج أو الزوجة أو الأطفال، والمسئول هو الزوج عن هذا كله.

والأولاد: هم فلذة الأكباد فلا ميزة لأحد على الآخر لا في التودد ولا في العطية، فإذا حصل انصراف لأحد منهم على الآخر، أدّى ذلك إلى البغض والشحناء بين الأخوة لما يرونه من تفضيل أحدهم على الآخر .

والماليك : إذا كلفوا ما لا يطيقون ، أو عوملوا بالشدة والقسوة من الضرب والعري والجوع تغير الأمر، وأدّى ذلك بالملوك إلى ارتكاب المحظور من السرقة وما شابهها أو من الهرب، أو الاعتداء على السيد أو ماله، والعبث في ذلك وإهماله وضياعه .

### ٣- رعاية المرأة لأسرتها وأثر الظلم في ذلك

قال الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالْضَّالِحَاتُ قَلِيلٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّيِّ تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضَرُّهُنَّ فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ (١).

قال السعدي: (فالصالحات قانتات): أي مطيعات لله تعالى، (حافظات للغيب): أي مطيعات لأزواجهن حتى في الغيب، تحفظ بعلمها بنفسها، وماله وذلك بحفظ الله لهن، توفيقه لهن، لا من أنفسهن، فإن النفس أمارة بالسوء ولكن من توكل على الله كفاه ما أهمته من أمر دينه ودنياه) (٢).

إنها المرأة المسلمة التي عرفت حق الله عليها فقامت بذلك، وبهذه المعرفة الحقة قامت بواجب زوجها فحفظته في نفسها وماله، فمال زوجها من الأمانات التي استرعاهما الله ذلك وكذلك ولده فهي الأم المربية لهم المقومة لأخلاقهم، فإذا كان الرجل هو الساعي عليهم في الخارج في البحث عن قوتهم وما يصلح شأنهم، فكذا الأم هي الساعية عليهم في الداخل في ما يصلحهم ويجعلهم نشأ طيباً ينفع نفسه وينفع غيره.

فالأم لها تأثير على الأبناء وكذا الأب وذلك في طريقتهم ومسلكتهم في حياتهم.

(١) سورة النساء: آية (٣٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ج ٢، ص ٦١، المؤسسة السعيدية بالرياض.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟) <sup>(١)</sup>، قال أبو هريرة: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُمْ لَهَا﴾ الآية .

فالأم لها دورها الفعال على الأبناء في تربيتهم التربية الإسلامية الصحيحة، ومنهجهم القويم، فهي الراعية لهم في البيت، والبيت أول محاضن التربية وأكثرها أهمية، فإذا وجد الأولاد من يثبتهم على الفطرة ويبين لهم الطريق الذي لا عوج له بقوا على ذلك واستقاموا عليه، وإذا كان الأبوان وخاصة الأم على خلاف الفطرة أثر على سلوك الأبناء ومنهجهم وتبعهم الأبناء إلا أن يشاء الله .

والمرأة لها دورها على الممالك الذين هم تحت رعاية الأسرة، وتوجيههم إلى ما يصلحهم في دينهم ودنياهم، وخدمتهم الجادة وإخلاصهم في أعمالهم.

فإذا كانت المرأة منحرفة ومسيئة في معاملتها مع زوجها أو أولادها أو ممالكهم إن وجدوا. تغيرت الأحوال، وحصلت الفوضى، وأظلمت الدنيا في وجه الرجل وكذا الأولاد والممالك، وكانت العاقبة وخيمة على جميع الأطراف إلا أن تدرك الأمور بالإصلاح ويجري كل شيء على مجراه الطبيعي أو تغير عتبة الباب إذا يئس الرجل ورأى أن لا فائدة تحصل من وراء ذلك، وهذا كله في سبيل رعاية البيت ومن فيه ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه .

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز حديث ١٣٥٨، وله أطراف ١٣٥٩، ١٣٨٥، ٤٧٧٥، ٦٥٩٩، ورواه مسلم كتاب القدر ٢٢-٢٥، والترمذي كتاب القدر ٥، وأبو داود كتاب السنة ١٧، ومالك في الموطأ كتاب الجنائز ٥٢، وأحمد في المسند ٢/٢٣٣، ٢٥٣ .



#### ٤- رعاية العبد على مال سيده

عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (العبد إذا نصح سيده وأحسن عبادة ربه كان له أجره مرتين) <sup>(١)</sup>.

العبد - المملوك - هو العامل في مال سيده سواء في التجارة أو الزراعة أو الخدمة في البيت، وهو راع على ذلك فإذا نصح لسيده في ذلك وخاصة في الحق والنصيحة والطاعة والخدمة، وأقام عبادة ربه على ما جاء به رسول الله ﷺ عن ربه عز وجل فالله يضاعف أعماله وهذا ما أخبر به الرسول ﷺ في الحديث .

قال ابن حجر : (في ذكر رعاية الإمام والرجل والمرأة والخادم في حديث الرسول ﷺ . قال الخطابي : (اشتركوا - أي الإمام والرجل ومن ذكر في التسمية أي في الوصف بالراعي ومعانيهم مختلفة، فرعاية الإمام الأعظم حياطة الشريعة بإقامة الحدود والعدل في الحكم، ورعاية الرجل أهله سياسته لأمرهم وإيصالهم حقوقهم، ورعاية المرأة تدبير أمر البيت والأولاد والخدم والنصيحة للزوج في كل ذلك، ورعاية الخادم حفظ ما تحت يده والقيام بما يجب عليه من خدمته) <sup>(٢)</sup>.

فالعبد يلزمه حفظ مال سيده، ولا يعمل إلا بإذنه، ولا يخون فإنه مسئول ومحاسب عن ذلك أمام الله جل وعلا، فهذا أمانة في عنقه، لذا كانت المضاعفة في الأجر إذا نصح لسيده وأحسن عبادة ربه، فقد قام بواجبين، واجب الله تعالى المفروض عليه، وواجب سيده الذي يملكه فأحسن في ذلك .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب العتق حديث ٢٥٤٦ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ١٣ ، ص ١١٣ .

فإذا لم يقيم العبد بما أوجب الله عليه تلقاء سيده والنصح له في عمله أو خان فيما قد كلف به من تجارة أو زراعة أو خدمة في البيت نتج مضار من جراء ذلك تلحق بالسيد من كساد تجارة، أو خراب زراعة أو ترد في خدمة البيت، وهذا الإهمال الذي ظلم فيه العبد نفسه وألحق الضرر بسيده، تلحق عواقبه الوخيمة به نفسه، فكما أنه إذا أحسن عبادة ربه تعالى، ونصح لسيده، ضاعف الله له أجره مرتين، فكذا إذا كان بضد ذلك كان عليه الوزر مرتين، حيال ربه، وتجاه سيده؛ لأن من خان سيده، لم يكن لديه الوازع الديني الذي يجعله ينصح في عمله، فلا تجتمع طاعة الله والخوف منه في قلب رجل، ثم ينتج من وراء ذلك خيانة للعباد. هذا ما كان من رعاية للعبد "المملوك" وما ينجم عن تقصيره في رعايته لمال سيده.

قال ابن حجر: (ولابن عدي بسند صحيح عن أنس أن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ ذلك أو ضيعه) (١).

عن الحسن قال: (إن عبيد الله بن زياد عاد معقل بن يسار في مرضه الذي مات فيه فقال له معقل: إني محدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ سمعت النبي ﷺ يقول: (ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحه لم يجد رائحة الجنة) (٢).

(١) فتح الباري: ج ١٣، ص ١١٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأحكام حديث ٧١٥٠، ومسلم: إيمان ٢٢٧، ٢٢٨، وأمازه باب ٢٠١ حديث ١٨٣٠.

مما مر معنا تبين لنا أهمية مسئولية الرعاة وما قد ولّوا ، وعاقبة من جار منهم لرعيته ولم يف في تأدية ما أوجب الله تعالى عليه ، وما يحصل من مفسد من جراء الإهمال في الواجب والجور في ذلك وسوء عاقبة وجزاء في الآخرة ، وحسب الظلمة الجائرين والذين لم يحيطوا رعيتهم بالنصح والعدل حرمانهم حتى من رائحة الجنة كما بينه الرسول ﷺ .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (من حمل علينا السلاح فليس منّا، ومن غشنا فليس منّا) <sup>(١)</sup> يعني ليس على هدي الرسول ﷺ والمنهاج الصحيح الذي عليه المسلمون الملتزمون بالشرع الحكيم .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان حديث ١٠١ ، وأبو داود كتاب البيوع ٥٠ ، والترمذي كتاب البيوع ٧٢ ، وابن ماجه كتاب التجارات ٣٦ ، والدارمي كتاب البيوع ١٠ ، وأحمد في المسند ٢ / ٥٠ ، ٢٤٢ ، ٤١٧ ، ٤٥ / ٣ ، ٤٦٦ / ٤ .

## المبحث الثالث

أثر الظلم في نكسة المسلمين وتسلب الكافرين

## ١- الميل عن دين الله تعالى

إن أروع مثل مشرق يضربه لنا التاريخ هو الدولة الإسلامية التي أسسها رسول الله ﷺ في المدينة المنورة، ثم كيف انبثق نور الإسلام من تلك المنطقة وأخذ ينتشر شيئاً فشيئاً حتى دخل الناس في دين الله أفواجا قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٢﴾﴾ (١).

ثم كيف عمّ المعمورة في شملها وجنوبها وشرقها وغربها على أيدي خلفائه الراشدين، وصحابته الكرام الذين لم يركنوا إلى الدنيا وزخرفها، ولم يكونوا يريدون إلا نشر هذا الدين، والموت في سبيل الله شهداء، وحقق الله لهم ذلك رضي الله عنهم أجمعين .

قال تعالى: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا ۝٢٣﴾ (٢).

وقد خلفهم على ذلك رجال نهجوا نهجهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولكن عندما طال الأمد وقست القلوب ومالت إلى الدنيا وحطامها، اختلفت الكلمة، وتفرقت شتات الأمة، وأصبحت الدولة الإسلامية دويلات صغيرة، يلعب بها أعداء الإسلام ويغرون بعضهم على بعض حتى حصلت بينهم العداوة

(١) سورة النصر .

(٢) سورة الأحزاب : آية (٢٣) .

والبغضاء، وأخذ بعضهم يستعين بأعداء الإسلام على الآخر، فسَلَّطَ الله عليهم أعداءهم وهذا مصداق قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (١).

فلقد حلَّ بالمسلمين ما نرى اليوم من تفرُّق في الوحدة وفي الرئاسة حتى أصبح اليوم ممالك وجمهوريات وأمارات وسلطنات، وهذا بسبب تبديل نعمة الله، وتغيير ما كانوا عليه من الحق الذي كان به جمع الكلمة ووحدة الصف، وقد وقع عقاب الله تعالى ذكره فقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢).

فما يحصل اليوم من أعداء الإسلام على بعض الدول المسلمة وما يسومونهم به من سوء العذاب هو بسبب تبديل نعمة الله تعالى وأي نعمة أعظم من الإسلام الذي كله أمن وسلام، فإذا نكص المسلمون عن الإسلام وأهملوا أوامر الرب تبارك وتعالى ووقعوا في محارمه سلط الله عليهم أعداءهم.

قال الدكتور علي عبد الحليم محمود: (كان العالم الإسلامي في تلك الآونة فترة الصليبية التي شنتها أوروبا على الشرق الإسلامي يعيش ظروفًا أبسط ما توصف بها أنها ظروف اضطراب أدَّى إليه الانقسام والفرقة التي كانت واضحة لكل ذي عين).

(١) سورة الرعد: آية (١١).

(٢) سورة البقرة: آية (٢١١).

وإذا كان الأصل في العالم الإسلامي أن يكون أمة واحدة وقيادة واحدة فإنه كان في تلك الآونة بالذات أكثر ما يكون انقساماً في القيادة وفرقة في الاتجاه .

فالخلافة العباسية في بغداد تقلص نفوذها، وطمع فيها قوادها وأمرؤها بل استبدوا بها حتى أصبح الخليفة صورة لا حقيقة، وأصبحت الخلافة شكلاً ولا جوهرًا . ولقد استمرت الخلافة العباسية مظهرًا لوحدة المسلمين وقوتهم أكثر من قرنين من الزمان، بلغ فيها المسلمون في السياسة شأواً بعيداً، ثم بدأ الضعف يدب في الخلافة فتقسمت دولتها دولاً صغيرة<sup>(١)</sup> اهـ.

هذا كله بسبب ترك ما كان عليه السلف الصالح من أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ والانغماس في ملهيات الدنيا وتقديم الرئاسة وما يحققها .

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلِعِبَآوَعَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾<sup>(٣)</sup> .

(١) الغزو الصليبي والعالم الإسلامي ص ١٥٣ .

(٢) سورة الأعراف : آية (٥١) .

(٣) سورة إبراهيم : آية (٣) .

يقول الشهيد عبد القادر عودة : (ولقد جهل أكثر المسلمين الإسلام حتى بعدوا عن حقائق الإسلام وأحكامه، وبعد المسلمون عامة عن الإسلام وهجروا أحكامه حتى خرجوا على الإسلام وهدموا معالم الإسلام. وإن شئنا أن نعرف إلى أي حدّ بعدنا عن الإسلام فلقد رأينا فيما سبق كثيراً من أحكام المسلمين فلننظر أين نحن من هذه الأحكام؟

إن الإسلام يجعل من المسلمين وحدة سياسية واحدة، ولقد كَوّن المسلمون هذه الوحدة وحرصوا عليها من يوم أن تجمّع المسلمون في المدينة، وظلّت هذه الوحدة تتسع وتقوى حتى بلغت من المنعة والقوة ما لم تبلغه أيّة وحدة سياسية أخرى قبلها، ثم أخذ المسلمون بعد ذلك يستجيبون للأهواء والمطامع، ويفتنهم عن دينهم الحكم والسلطان، وتحركهم المنافع الشخصية والعصبية القبلية، فانقضّوا على هذه الوحدة المقدسة التي صنعها الله وأمر بالمحافظة عليها فمزقوها شر ممزق وقطعوها أمارات وسلطنات وممالك وجمهوريات باسم الإسلام وباسم الاستقلال في ظاهر الأمر، وباسم الاستقلال وباسم الاستعلاء وباسم العصبية في حقيقته، وما فعلوا إلا أن مزقوا قوتهم ومنعتهم، وأضعفوا ملكهم وسلطانهم، وهيؤوا لأعداء الإسلام والسلطنات والممالك والجمهوريات باسم الاحتلال وباسم الحماية وباسم الانتداب وباسم التحالف وبغير ذلك من الأسماء التي يستظل بها الاستعباد ويستتر فيها الاستعمار ويستعان بها على إذلال الشعوب وإخضاع الأمم . ويوم كان للمسلمين دولة واحدة كانت دول الأرض جميعاً تخافهم وترجوهم وتتودد إليهم وتتهافت عليهم، وكانت كلمة هذه الدولة الواحدة هي السياسة العالمية، أما اليوم ودولة الإسلام بضع عشرة دولة عدا



الإمارات والسلطنات فقد خفت صوت الإسلام والمسلمين ، وأصبح المسلمون سخرية أهل الأرض وأهونهم على الناس، وأضيعهم في ميدان السياسة الدولية وما نفعتهم هذه الدول المتعددة شيئاً وما حفظت له حقاً ولا ردّت عنهم حيفاً، وما كانت إلا ذيلًا لغيرها من الدول تستتبع فتتبع، ويشار إليها فتخضع<sup>(١)</sup> اهـ.

قال الأسعدي وهو يبيّن حال المسلمين وتفریطهم في أوامر الله فحدّد ما حلّ بالدولة الإسلامية حتى قال : (وكذلك الشام كان أهله في أوّل الإسلام في سعادة الدنيا والدين ثم جرت فتن وخرج الملك من أيديهم ثم سلط عليهم المنافقون الملاحدة والنصارى بذنوبهم واستولوا على بيت المقدس وقبر الخليل وفتحوا البناء الذي كان عليه وجعلوه كنيسة، ثم صلح دينهم فأعزّهم الله ونصرهم على عدوهم لما أطاعوا الله ورسوله واتبعوا ما أنزل إليهم من ربهـم . وكذلك أهل الأندلس كانوا رقاداً في ظلال الأمن وخفض العيش والدعة فغمطوا النعمة وقابلوها بالأشر والبطر فاشتغلوا بمعاصي الله تعالى وأكبّوا على لهوهم ولم يتقوا موقع سخط ربهـم ومقته ففعل بهم ما لا يحصره قلم كاتب . ولا يحصيه حساب حاسب . بتسليط عدوهم عليهم حتى مزّقهم الله كل ممزّق وفرّقهم أيادي سبأ وارتد بعضهم على عقبيه ركوناً إلى الدنيا الفانية والحظوظ العاجلة، ومن قرأ تاريخهم علم ما كان القوم عليه، وما صاروا إليه وفي التاريخ أكبر عبرة لمن اعتبر)<sup>(٢)</sup> اهـ.

(١) الإسلام وأوضاعنا السياسية ص ٢٨٣ - ٢٨٥ .

(٢) مجموعة الرسائل المنيرية جزء ١ ، تحذير أهل الإيمان عن الحكم بغير ما أنزل الرحمن ص ١٥١ - ١٥٢ ، دار إحياء التراث العربي، بيروت .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (أمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم: أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة. ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام، وقال النبي ﷺ: (ليس ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم) (١) (٢) .

---

(١) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة حديث رقم ٢٥١١، وقال: حديث حسن صحيح، وأبو داود كتاب الأدب حديث رقم ٤٩٠٢، وأحمد في المسند ٣٦/٥ .

(٢) مجموع الفتاوى : ج ٢٨ ص ١٤٦ .

## ٢ - كفر النعمة وأثرها في نكسة المسلمين

لقد خلق الله الخلق من أجل عبادته جل وعز دون غيره وتكفل لهم بالأرزاق كما أخبر تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ﴾ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) ﴿ (١).

قال ابن كثير: (ومعنى الآية: أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب وأخبر أنه غير محتاج إليهم بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم فهو خالقهم ورازقهم) (٢) اهـ.

إذا علم هذا وأن الغاية من وجود الخلق هي عبادته، وأن الأرزاق هي من فضل الله تعالى ومنته على عباده، فيلزم كل مكلف أن يعبد الله حق عبادته وأن لا يكفره في نعمته أو غيرها فيغير الله عليهم ذلك بفقدانهم لها أو عذابهم على كفرهم كما أخبر تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٣) ﴿ (٣). وهذا من تمام عدله وقسطه في حكمه، ولا يغيب عن النفوس ما حل بالأقوام السابقين بكفرهم وبتكذيبهم بآيات ربهم وما قد أنعم به عليهم من جنات وعيون وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين. وهذا ما جاء تذييلاً للآية آنفة الذكر، فقال تعالى: ﴿كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ

(١) سورة الذاريات: آية (٥٦-٥٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم: ج ٤، ص ١٣٨.

(٣) سورة الأنفال: آية (٥٣).

مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَاذِبٍ ظَالِمٍ ﴿٥٤﴾ (١). فما ظلمهم ذو العزة والجلال بل هم الذين بدلوا نعمة الله كفراً فظلموا أنفسهم حتى حاق بهم العذاب. يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ (٢).

عن عروة بن الزبير أن المسور بن مخرمة أخبره أن عمرو بن عوف وهو حليف بني عامر بن لؤي وكان شهد بداراً مع رسول الله ﷺ أخبره أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتهما وكان رسول الله ﷺ قد صالح أهل البحرين وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال أظنكم سمعتم أنا أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين فقالوا: أجل يا رسول الله قال: (فابشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكنني أخشى أن تبسط الدين عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم) (٣).

(١) سورة الأنفال: آية (٥٤).

(٢) سورة النحل: آية (١١٢-١١٣).

(٣) رواه مسلم في صحيحه كتاب الزهد حديث ٢٩٦١، والبخاري في صحيحه، كتاب الجزية ١، وكتاب المغازي ١٢، والترمذي كتاب القيامة ٢٨، وابن ماجه كتاب الفتن، ١٨.

ففي هذا الحديث الشريف بيّن الرسول ﷺ خشيته على أمته من أن تبسط عليهم الدنيا فتهلكهم بتنافسهم وتكاثرهم فيها كما حصل للأمم السابقة؛ لأنه من المعلوم أن من ركن إلى الدنيا وكانت أكبر همه غفل عن الجانب الآخر وهو الدين فكان حظه منه قليلاً، أو قد يكون ضياعه بالكلية أقرب إلى ذلك فتحصل النكسة عن دين الله وهذا من الظلم الذي حرّمه الله تعالى وبيّن أن عاقبته الهلاك والدمار.

وعن أبي سنان الدؤلي أنه دخل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنده نفر من المهاجرين الأولين فأرسل عمر إلى سبط أتى به من قلعة من العراق فكان فيه خاتم فأخذه بعض بنيه فأدخله في فيه فانتزعه عمر منه ثم بكى عمر رضي الله عنه فقال من عنده: لم تبكي وقد فتح الله لك وأظهرك على عدوك وأقر عينك؟ فقال عمر رضي الله عنه: إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله عز وجل بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وأنا أشفق من ذلك) <sup>(١)</sup>.

(١) ورواه أحمد في المسند ١٦/١، وإسناده صحيح. انظر: تحقيق: أحمد شاكر لمسند أحمد ٩١/١، حديث

### ٣ - المداهنة وعدم الإنكار

إن من أسباب نكسة المسلمين وتسلط الكافرين تركهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والذي هو قوام الدين فما من نبي ولا رسول إلا وأمر بتوحيد الله تعالى ونهى عنا لإشراك به، أمر بما أمر الله به ونهى عما نهى عنه، وكذا الأفراد والأمم مطالبة بذلك. يقول تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) (١).

وعن حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ قال: (والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم) (٢).

ما أهون الخلق على الله إذا هم ضيعوا أو امره وارتكبوا نواهيه ولم يكن هناك أمة تنتصب لهذا الأمر، فأول أمر ربها يقع بهم هو تسلط أعدائهم أعداء هذا الدين عليهم، لأنه لا عزة لأحد ولا رفعة ولا سؤدد إلا بهذا الدين دين الإسلام الذي ارتضاه الله لنا ديناً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (٣).

(١) سورة آل عمران: آية (١٠٤-١٠٥).

(٢) رواه الترمذي كتاب الفتن حديث ٢١٦٩، وقال حديث حسن، وأبو داود كتاب الملاحم ٤٣٣٦، وأحمد في المسند ٣٨٨/٥.

(٣) سورة آل عمران: آية (١٩).

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ (١) ،  
﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (٢) .

فإذا تركت الأمم الإسلامية هذا الدين والعض عليه ولم يضرّبوا على أيدي  
الظلمة الذين خالفوا شرع الله تعالى عمّهم الله بعذابه وسلّط عليهم أعداءهم .

وعن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : أيها الناس إنكم  
تقرؤون هذه الآية : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾  
وإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إنّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه  
أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه) (٣) .

قال الإمام الحافظ أبي العلي : (أي الزموا حفظ أنفسكم عن المعاصي فإذا  
حفظتم أنفسكم لم يضرّكم إذا عجزتم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر  
ضلال من ضل بارتكاب المناهي إذا اهتديتم إلى اجتنابها وإنّي (أي أنكم تقرؤون  
هذه الآية، وتجرون على عمومها، وتمتنعون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر  
وليس كذلك فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إنّ الناس) أي المطيقين لإزالة  
المنكر مع سلامة العاقبة. (إذا رأوا الظالم) أي علموا ظلمه وفسقه وعصيانته، فلم  
يأخذوا عليه أي لم يكفوه عن الظلم بقول أو فعل.. أوشك بفتح الهمزة والشين

(١) سورة آل عمران : آية (٨٥) .

(٢) سورة المائدة : آية (٣) .

(٣) رواه الترمذي كتاب الفتن حديث ٢١٦٨ ، وقال : حديث صحيح .

أي قارب أو أسرع، أن يعمهم الله بعقاب منه، إمّا في الدنيا أو الآخرة أو فيهما، لتضييع فرض الله بلا عذر<sup>(١)</sup>.

هكذا كانت أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعاقبة السيئة لمن لم يكن على ذلك، كما أن المداهنة وعدم تنفيذ أحكام الله تعالى سبب هلاك من كان قبل كما أخبر ﷺ عن ذلك فيما ترويه عائشة رضي الله عنها أن قریشاً أهمّهم شأن المرأة<sup>(٢)</sup> المخزومية التي سرقت فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ قالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ، فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: (أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فاختطب ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)<sup>(٣)</sup>.

(١) تحفة الأحوذى: ج٦، حديث ٢٢٥٧، دار الفكر.

(٢) المرأة المخزومية: قال العيني: (المرأة التي سرقت هي فاطمة بنت الأسود بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهي بنت أخي أبي سلمة بن عبد الأسد الصحابي الجليل الذي كان زوج أم سلمة قبل النبي ﷺ قتل أبوها كافراً يوم بدر قتله حمزة بن عبد المطلب ووهبهم من عزم أن له صحبة، وقيل: هي أم عمرو بنت سفيان بن عبد الأسد وهي بنت عم المذكورة. وفيه نظر: عمدة القارئ شرح صحيح البخاري كتاب الحدود ١٧ مجلد ١٢ جزء ٢٣، ص ٢٧٧.

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأنبياء، حديث ٣٤٧٥، ومسلم في صحيحه كتاب الحدود ٨، والترمذي كتاب الحدود ٦.



في هذا الحديث تظهر لنا العدالة الحقّة، وإقامة حدود الله دون أي مجاملة مع أحد، فلا مكانة لشريف ولا صاحب سلطان ولا منزلة رفيعة تمنعه من إقامة حدود الله عليه إذا هو وقع في ذلك، وقد بيّنا في المبحث الذي قبل هذا كيف كان موقف الخلفاء الراشدين ومنهجهم في سياستهم مع الناس بهذا يعلم أن ديننا لا يفرق بين أسود ولا أبيض، ولا بين شريف، ولا غيره من الناس إلا بالتقوى، الكل من آدم وآدم من تراب، وما أروع من مثل يضربه الرسول ﷺ ففاطمة ابنته وأقرب الناس إليه، فهو يقسم أنها لو سرق لقطع يدها، هنا تظهر العدالة الصادقة وعدم المجاملة والمداينة في دين الله تعالى ولم تستقر الأرض وتستقيم الحياة إلا بالعدل، والغيرة لحدود الله تعالى وتعمّر الوجوه لذلك، ومن هنا جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً.

قال محمد بن الحسين الآجري : (من تصفح أمر هذه الأمة من عالم عاقل علم أن أكثرهم والعام منهم تجري أمورهم على سنن أهل الكتابين كما قال النبي ﷺ أو على سنن كسرى وقيصر أو على سنن أهل الجاهلية، وذلك مثل السلطنة وأحكامهم في الأعمال والأمراء وغيرهم، وأمر المصائب والأفراح والمساكن واللباس والخلية والأكل والشرب والولائم والمراكب والخدم والمجالس والمجالسة. والبيع والشراء والمكاسب من جهات كثيرة، وأشباه لما ذكرت يطول شرحها، تجري بينهم على خلاف السنة والكتاب، وإنما تجري بينهم على سنن من قبل، كما قال النبي ﷺ والله المستعان)<sup>(١)</sup> اهـ.

(١) الشريعة ص ٢٠، للإمام أبي بكر محمد بن الحسين الآجري المتوفى سنة ٣٦٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

قال محمد حامد الفقي : (إذا كان هذا في زمان أبي بكر الآجري المتوفى سنة ٣٦٠ من الهجرة فكيف به لو رأى الناس اليوم، وما تتابعوا فيه من تقليد اليهود والنصارى والوثنيين، وكل ملحد زنديق في فسوقهم وتمردهم على الله وكتبه ورساله وسننه وآياته وما جر عليهم ذلك التقليد الأعمى من الانحلال والذلة والصغار وذهاب ريجهم، وضياح كل ما خلقه لهم آبائهم من أسباب القوة والسلطان، ولو أن الناس عقلوا عن ربهم وآمنوا بآياته ونعمه ورحمته وحكمته، وآمنوا بما أكرمهم به ربهم من الإنسانية العاقلة، وما أعطاهم من هذا الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وما حفظ لهم من هدى مختاره ومصطفاه إمام المهتدين عبدالله ورسوله (محمد) لو أنهم عقلوا وآمنوا بهذا لانتفعوا بهدي الله، ولنفخ الله فيهم من روح العزة والقوة، ولمكن الله دينهم الذي ارتضى لهم ولبلدهم من بعد خوفهم أمناً، كما أعطى المسلمين الأولين، ولكن أكثر الناس لا يعقلون، فهم في تقليدهم الأعمى يتخبطون، وفي ضلالهم يعمهون، ويجرون في كل شيء حياتهم ذيولاً للفرنجة أعدائهم، فلا ينالوا منهم إلا كل ظلم وبغي واستعباد ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) <sup>(١)</sup>.

---

(١) الشريعة ص ٢٠ للإمام الآجري. الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

الخاتمة

الحمد لله الذي بحمده تتم الصالحات والصلاة والسلام على أفضل وأشرف المخلوقات نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .. أما بعد :

فلقد بحثت موضوع الظلم الذي بسببه يحصل الندم والخسارة، وبالسلامة منه يحصل الفوز والنجاح، فتوصلت إلى :

١ - رحمة الله تعالى وتنزهه عن الظلم وتحريمه ذلك على عباده وجعله بينهم محرماً وعدله تعالى بينهم فيما يرتكبون ويقعون فيه من مخالفات، ومن هنا يتبين لنا :

أ - مظاهر عدله تعالى وشواهد من كمال نزاهته عز وجل عن الظلم ونجاة المتقين والنكال بالظالمين وإمهال الظالمين إلى يوم القيامة بحضور رسلهم وكتب أعمالهم والحفظة عليهم من الملائكة .

ب - طرق التخلص من الظلم بالذكر والاستغفار وكف النفس عن الظلم والتوبة .

ج - عقوبته تعالى للظلمة جزاء على ما ارتكبوه مما قد نهاهم عنه في الحياة الدنيا.

٢ - شرع الله الحكيم وحايته للأفراد والمجتمعات الإسلامية وذلك ب :

أ - تعظيم حرمان المسلمين وبيان حقوقهم .

ب - تحريم الظلم ووجوب رد المظالم .

ج - نصرة المظلوم وإجابة دعوته .

٣ - ظلم العبد لنفسه :

وأعظمه إشراكه بالله تعالى والمولى عز وجل حذر من ذلك وأن هذا الظلم لا يقبل معه عمل أبداً .

قال تعالى : ﴿ وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ (٣٣)

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾

ثم ظلم العبد لنفسه بما دون الشرك من كبائر الذنوب وصغائرها .

ب - ظلم العبد لغيره : وذلك بالوقوع في حقوق الآخرين من عرض أو مال أو دم. وأن هذا لا يسقط بالتوبة مثل النوع الأول الذي يكفي التخلص منه بالتوبة وهنا لا بد من التحلل أو رد المظالم، ويدخل في ظلم الغير ظلم الحيوان فقد حرمت الشريعة ذلك.

٤ - عواقب الظلم الوخيمة وأثره السيء على الأفراد والمجتمعات وذلك بعقاب الله تعالى لهم في الدنيا .

أ - فقد أهلك سبحانه وتعالى الظلمة من قوم نوح بالطوفان وفرعون وقومه بالغرق والظلمة من قوم لوط جعل الله عليهم الأرض عاليها سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود وثمود قوم صالح ومدائن قوم شعيب أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين وللظالمين أمثال ذلك

ب - جور الحكام وانعكاس ذلك عليهم بزوال الملك والسلطان وسوء العاقبة وعذاب الله تعالى لهم وسخطه عليهم، وأثر ظلمهم وجورهم على الرعية، ونتائج الظلم من الرعاة الذين ذكرهم الرسول ﷺ في الحديث : (ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام الأعظم الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وهي مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) (١).

فرعاية الإمام : حيطة الشريعة بإقامة الحدود والعدل في الحكم .

ورعاية الرجل أهله : سياسته لأمرهم وإيصاله حقوقهم .

ورعاية الخادم : حفظ ما تحت يده والقيام بما يجب عليه من خدمته .

فالتقصير في هذه الرعاية من الإهمال وضياع الحقوق ظلم يستحق العقاب عليه .

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأحكام حديث ٧١٣٨، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة ٢٠ وأبو داود كتاب الإمارة، ١ والترمذي كتاب الجهاد ٢٧، وأحمد في المسند ٥٤، ٥٤ .

ج - نكسة المسلمين:

كانت بسبب إهمالهم في دينهم وتشتتهم واختلاف كلمتهم وانقسامهم إلى دويلات من أجل الركون إلى الدنيا والميل إلى حب الرئاسة وكان في ذلك ظلم للنفس ومدعاة لتسلط الكافرين واستباحتهم لبيضة المسلمين .

هذا ولقد كان لكل موضوع تفصيل من كلام الله تعالى وسنة رسوله ﷺ في موضعه من هذه الرسالة ما أرجو الله أن ينفع به المسلمين أفراداً وجماعات. حكاماً ومحكومين، وأن يجعل العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن لا يجعل لأحد فيه شيئاً فإنه نعم المولى ونعم النصير والحمد لله أولاً وآخراً.. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

## فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة.....	٣
التمهيد .....	١٣
الباب الأول: رحمة الله تعالى وتنزهه عن الظلم .....	١٥
الفصل الأول : مظاهر عدل الله تعالى وشواهدہ .....	١٦
المبحث الأول : كمال نزاهته عز وجل عن الظلم .....	١٨
المبحث الثاني : نجاة المتقين والنكال بالظالمين .....	٣٠
المبحث الثالث : إمهال الظالمين إلى يوم القيامة وأخذهم بما يستحقون ..	٤٤
المبحث الرابع : عفو الله عن المستضعفين والتائبين بقبول توبتهم .....	٦٠
المبحث الخامس : القضاء بين العباد بحضور رسلهم وكتب أعمالهم والحفظت عليهم من الملائكة .....	٧٦
الفصل الثاني : طرق التخلص من الظلم : .....	٨٥
المبحث الأول : الذكر والاستغفار .....	٨٧
المبحث الثاني : استغفار الرسول ﷺ لأمتة في حياته .....	٩٠
المبحث الثالث : كف النفس عن الظلم .....	٩٤
المبحث الرابع : التوبة .....	٩٩



١٠٤	..... الفصل الثالث : عقوبة الظلمة :
١٠٥	..... المبحث الأول : مسببات الظلم .
١١٣	..... المبحث الثاني : عظم عقوبة الظلم .
١١٧	..... المبحث الثالث : جزاء ظالمي أنفسهم بالشرك في الدنيا والآخرة.
١٢١	..... المبحث الرابع : جزاء آكلي أموال اليتامى ظلماً .
١٢٩	..... المبحث الخامس : جزاء آكلي أموال المؤمنين ظلماً وعدواناً.
١٣٥	..... المبحث السادس : عاقبة الظلم في المسجد الحرام.
١٣٨	..... المبحث السابع : جزاء الظالمين في الآخرة .
١٤٧	..... المبحث الثامن : القصاص من عدل الله تعالى .
١٥٢	الباب الثاني : شرع الله الحكيم وأثره في حماية المجتمع الإسلامي من الظلم.
١٥٣	..... الفصل الأول : تعظيم حرمان المسلمين وبيان حقوقهم .
١٥٤	..... المبحث الأول : السخرية والتنازع .
١٦٠	..... المبحث الثاني : المحافظة على حقوق المسلمين .
١٦٦	..... الفصل الثاني : تحريم الظلم ووجوب رد المظالم .
١٦٧	..... المبحث الأول : تحريم الظلم .

١٧٦	.....	المبحث الثاني : رد المظالم .
١٨٤	.....	الفصل الثالث : نصرة المظلوم وإجابة دعوته :
١٨٥	.....	المبحث الأول : إعلان المظلوم ظلامته .
١٨٩	.....	المبحث الثاني : الفرار بالدين من جور الظلم .
١٩٣	.....	المبحث الثالث : نصرة المظلوم .
٢٠١	.....	المبحث الرابع : استجابة دعوة المظلوم .
٢١١	.....	الفصل الرابع : التحذير من الركون إلى الظلمة ومخالطتهم وموالاتهم .
٢١٢	.....	المبحث الأول : تحريم موالات اليهود والنصارى .
٢١٦	.....	المبحث الثاني : موالات الأقارب من الكفرة .
٢٢٤	.....	المبحث الثالث : الركون إلى الظلمة موجب للعذاب .
٢٣٥	.....	الباب الثالث : أنواع الظلم :
٢٣٦	.....	الفصل الأول : ظلم العبد لنفسه .
٢٣٦	.....	المبحث الأول : الشرك بالله تعالى، ويدخل فيه الشرك
	.....	في الاتباع بتحكيم غير ما أنزل الله .
٢٧٧	.....	المبحث الثاني : الوقوع في المعاصي .

٣٠٩	..... الفصل الثاني : ظلم العبد لغيره :
٣١٠	..... المبحث الأول : ظلم العبد من يعول .
٣٣٠	..... المبحث الثاني : ظلم العباد فيما بينهم .
٣٤٤	..... المبحث الثالث : ظلم العبد لسائر الحيوان .
٣٥٣	..... الباب الرابع : أثر الظلم على الفرد والمجتمع :
٣٥٤	..... الفصل الأول : أثر الظلم على الأفراد :
٣٥٥	..... المبحث الأول : ضياع النعمة .
٣٦٤	..... المبحث الثاني : زوال الملك .
٣٦٨	..... المبحث الثالث : ندم الظالم .
٣٧٢	..... الفصل الثاني : أثر الظلم على المجتمع :
٣٧٣	..... المبحث الأول : أثر الظلم في عموم العقوبة :
٣٧٤	..... ١- عقاب الظلمة في الدنيا .
٣٨٠	..... ٢- عقاب الظلمة في الآخرة .
٣٨٨	..... ٣- نماذج من هلاك الأمم .
٣٨٩	..... أ- قوم نوح عليه السلام .

٣٩٥	ب - فرعون وجنوده . . . . .
٣٩٩	ج - قوم لوط عليه السلام . . . . .
٤٠٥	د - قوم صالح عليه السلام . . . . .
٤١١	هـ - قوم شعيب عليه السلام . . . . .
٤٢٠	المبحث الثاني : جور الرعاة وأثره في فساد الرعيّة: . . . . .
٤٢٢	١ - رعاية الحكام وأثر الظلم منهم . . . . .
٤٣٩	٢ - رعاية الرجل لأسرته وأثر الظلم في ذلك. . . . .
٤٤٣	٣ - رعاية المرأة لأسرتها وأثر الظلم في ذلك. . . . .
٤٤٥	٤ - رعاية العبد على مال سيده . . . . .
٤٤٨	المبحث الثالث : أثر الظلم في نكسة المسلمين وتسلب الكافرين : . . . . .
٤٤٩	١ - الميل عن دين الله تعالى . . . . .
٤٥٥	٢ - كفر النعمة . . . . .
٤٥٨	٣ - المداينة وعدم الإنكار . . . . .
٤٦٣	الخاتمة . . . . .